أبو تمام

(حياته، وعصره، وشعره)

تأليف

إبراهيم السمري

شبكة الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net

أبو تمـام

(حياته ، وعصره، وشعره)

تأليف

إبراهيم السمري

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مقدمــة

كان العصر العباسي الأول عصر قوة وازدهار ، ويعد هذا العصر من أزهي عصور الدولة الإسلامية في كافة مناحي الحياة السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والعسكرية، والفكرية، والأدبية؛ وذلك بانفتاحه علىٰ كافة الحضارات الإنسانية المختلفة، وتَمَيُّز خلفائه بقوتهم، وحزمهم، وحبهم للعلم والأدب، ورغبتهم الطموحة في تأسيس دولة قوية مرهوبة الجانب.

لقد أصبح للموالي ـ الذين همِّشوا في عهد الدولة الأموية ـ علىٰ اختلاف أجناسهم وأعراقهم دور بارز في تشكيل الحضارة الإسلامية الجديدة وتأسيسها وارتقائها في ذلك العصر الزاهر النابض بكل فنون الحياة، فقد حمل كل جنس من هذه الأجناس سمات الحضارة التي ينحدر منها، فانصهرت هذه الحضارات المختلفة في بوتقة واحدة وانبثقت منها الحضارة الإسلامية التي بهرت العالم قديمه وحديثه.

في ذلك العصر ولد ونشأ وترعرع شاعرنا أبو تمام الطائي الذي تجسدت في شعره كل ملامح هذا العصر، وتجلت فيه كل آيات القوة والعظمة، ذلك الشاعر الذي سرعان ما اعتُمد كشاعر رسمي للإمبراطورية الإسلامية علىٰ اتساع رقعتها، وانبساط مُلْكِها وهيبتها، ذلك الشاعر الذي جاب الآفاق، وبلغت شهرته كل البقاع حتىٰ أخمل كل شعراء عصره.

وكانت هذه المنزلة الرفيعة التي بلغها سببًا أصيلاً في محاولة كثير من الشعراء، والأدباء، والنقاد، والبلاغيين، والرواة وعلماء اللغة، وعلماء النحو، وغيرهم، طمس فضائله، وشن حرب لا هوادة فيها علىٰ أعماله وقصائده؛ ربما تكون الغيرة سببًا، وربما يرجع هذا إلىٰ أن أبا تمام كان سابقًا عصره بما يقرب من ألف عام أو يزيد.

لقد حاكموا أعماله وفق مقاييس معيارية جامدة لا تتناسب مع الشاعر الذي يعرف دور الكلمة ووظيفتها الشعرية، فاللفظة في الشعر لا يجب أن تبقىٰ علىٰ استعمالها الحقيقي الذي وضعت له، وإنما يلبسها الشاعر بما لديه من مخزون ثقافي عريض معنىً جديداً يجعل المشاعر تتحرك والعقول تثار وتفكر، فالشاعر لا يرصّ الكلمات رصاً كما هي في القواميس والمعاجم ، وإنما يحلق بها في سماوات الخيال ثم يخلقها خلقًا جديداً، هذا الخلق الجديد هو ما يعرف باللغة الشعرية لا اللغة المنطقية، وهذا ما فعله أبو تمام ، ومن أجل ذلك لم يفهمه كثير ممن انتقدوه.

من هنا نشأ صراع مرير بين أنصار القديم وأنصار الجديد؛ إذ خرج أبو تمام علىٰ الناس "بنوع جديد من الشعر أخرجه من رأسه لا من قلبه، فهو يغوص علىٰ المعاني العقلية غوصًا، ثم يرفعها إلىٰ السماء، ويعمل فيها خياله البعيد، ويختار لها الألفاظ، ويعنىٰ ببديعها وجناسها، فتتم له من معانيه العميقة إلىٰ القاع، وخياله المرتفع إلىٰ السماء، وألفاظه المتجانسة المزوَّقة، نوع جديد من الشعر لم يسبق إليه، نعم .. إن كل جزئية من هذه الجزئيات قد سُبق إليها، فقد سبقه مسلم بن الوليد

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بكثرة البديع والجناس في شعره، وسبقه أبو نواس وبشار بكثرة المعاني وغزارتها، ولكن كل هذه الجزئيات ـ مبالغاً فيها ـ لم تجتمع لأحد قبل ما اجتمعت لأبي تمام.

وشأن الجديد في كل عصر، وفي كل علم وفن أن يثير جدالاً، وأن يقسم الناس إلىٰ معسكرين: معسكر ينصره، ومعسكر يخذله، وأن يشتد القتال بين المعسكرين.

وكذلك كان الحال في أبي تمام؛ فقد أتىٰ بجديد فتنازع العلماء والأدباء فيه، فأما من تعصب للقديم كابن الأعرابي، فكرهوا أبا تمام، وكرهوا ما جاء به من شعر جديد، وقالوا إنه خرج عن عمود الشعر المعروف، وأما من مرن ذوقه وعقله ولم يتقيد بقديم، فقد أعجب بأبي تمام أيما إعجاب، وخاصة من تفلسف ذوقه وعمق فكره وبعد خياله واستطاع أن يفهمه؛ لأن أبا تمام كان يغوص في الغالب أو يرتفع حتىٰ لا يدركه إلا الخاصة"(١).

ولعل هذا الصراع الدائر حول أبي تمام وشعره هو الذي جعل الغموض يلف حياته، فالمؤرخون لا يكادون يجمعون علىٰ تاريخ محدد لمولده، ولم يجمعوا علىٰ العام الذي توفي فيه ، ولم يسجلوا شيئاً عن حياته الخاصة إلا نتفاً يسيرة لا تسمن ولا تغني من جوع، ولا تعين الباحث الذي يريد أن يربط بين حياته وشعره، أو بالأحرىٰ يريد أن يحدد الدوافع التي دفعت به إلىٰ أن يكون في هذه المنزلة الرفيعة والمكانة السامية.

وكل ما نستطيع قوله أنه نشأ فقيراً، لكنه كان يحمل من شرف النسب، وعلو الهمة، والذكاء الألمعي المتقد ما يستعيض به عن ألم الفقر وخشونة العيش، ومرارة النفس، "ولله در الشقاء والبؤس ومرارة النفس، فإنه لولاها لم تفتق ألسنة الشعراء، ولم تجر الفصاحة والبلاغة أنهاراً، ولولاها لم تبرز مكنونات النفوس ولا جواهر الصدور، ولم تشرّح النفس أدق تشريح، به تظهر أعماقها ومحتوياتها وألوانها وأشكالها وشعورها العميق، وأنينها الخفي، وروحها المتألمة، وعزة نفسها المحتضرة؛ فإن البؤس هو المحرك الوحيد لكهربائية النفس، وهو الذي يثيرها من مكامنها ويبعثها من وكناتها فتفيض أفكاراً شعرية، أو تيارات كهربائية تمتد علىٰ أسلة اللسان، ثم تصور وتضبط بالألفاظ وسحر البيان وتسبك بالنظم فتبرز صورة طبق الأصل لنزعات النفس المنكسرة، ومرآة بها ترىٰ أدق خفاياها، وكنه حقيقتها ؛ فالشاعر هو المصور الوحيد للنفس المستترة، ولذا سمي شاعراً؛ لأنه يشعر بأدق ما يكون من الشعور الخفي الذي لا يشعر به غيره، ومقدرة كل شاعر تقاس بمقدار ما ينال من الإجادة والإبداع والوقوف علىٰ الحقيقة النفسية وإبرازها كما يشعر بها

(١) ـ انظر: مقدمة أخبار أبي تمام لأبي بكر الصولي بقلم الدكتور أحمد أمين.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تماماً ، وشاعرنا هو ذلك المصور الماهر الذي قد أتىٰ بها كاملة ساحرة خلابة ، وصوره البديعة في ديوانه"(١).

هذه النشأة الفقيرة جعلته لا يعتمد في كل أموره وأحواله إلا علىٰ نفسه، فامتهن الحياكة منذ نعومة أظفاره في دمشق، ثم عمل سقّاءً بمسجد عمرو بن العاص في مصر، ولقد كان لهاتين المهنتين أثرهما الكبير علىٰ ألفاظه وصوره وتراكيبه؛ فكثيراً ما تحدث عن الوشي والبرد والثوب والنسيج، وكل الألوان والأصباغ، وكثيراً ما تناول لفظ الماء، وما يتصل به من المطر والدلاء والرشاء والبئر، وغير ذلك من ألفاظ السقاية، كما أن لهذه النشأة الفقيرة دور في ترحاله وتنقله من بلد إلىٰ بلد ومن إقليم إلىٰ إقليم بحثاً عن الغنىٰ والمجد والشهرة وإثبات الذات، وقد كان لهذا التنقل أثره في الاحتكاك بغيره من الشعراء والعلماء ورجال الدولة، واكتساب خبرات جديدة لم تكن لتتاح له إذا ما ظل قابعاً في موطنه، راضياً بحياته ، أليس هو القائل:

وطولُ مُقامِ المرءِ في الحَيِّ مُخْلِقٌ لديباجَتَيْهِ فاغْتَرِبْ تَتَجدَّدِ

فإنِّي رَأيتُ الشَّمسَ زِيدَتْ مَحَبَّةً إلَىٰ النَّاسِ إذْ لَيْسَتْ عليهم بِسَرْمَدِ

وهذه النشأة جعلته يثقِّف نفسه تثقيفاً ذاتياً كما فعل العقاد في عصرنا الحديث، هذه الثقافة ـ التي جمعت بين دفتيها عمالقة الشعر الجاهلي، وأساطين الشعر الإسلامي والأموي، وأمراء الشعر العباسي الجديد، وأضافت إليهم الرجازين علىٰ اختلاف عصورهم وبيئاتهم، وضمت في ثناياها العلوم الجديدة لهذا العصر ـ جعلت أبا تمام موسوعة شعرية متنقلة، وعالماً من علماء العربية الأفذاذ،كما جعلته يقف علىٰ أسرار اللغة وجمالها وعبقريتها؛ فطفق يبدع، ويلوّن ويزخرف، ويخترع المعاني البديعة العميقة الطريفة؛ لأنه يمتلك ما لا يمتلكه كثير من شعراء عصره.

وما هذا الكتاب إلا محاولة لفهم وكشف بعض الغموض الذي أحاط بشخصية أبي تمام وبشعره، ولمعرفة صفاته وأخباره وتأثيره علىٰ الشعراء المعاصرين له واللاحقين به، ومحاولة لكشف الصراع الدائر حوله وطبيعة الخصومة التي دارت بين أنصاره وأنصار البحتري.

وقد جاء هذا الكتاب في ثلاثة أبواب وخاتمة ، جاءت كالتالي:

الباب الأول: يتناول عصر أبي تمام ويندرج تحته أربعة فصول:

الفصل الأول: الحياة السياسية، والفصل الثاني: الحياة الاجتماعية، والفصل الثالث: الحياة الاقتصادية، والفصل الرابع : الحياة العقلية والأدبية.

أما الباب الثاني فيتناول حياة أبي تمام، ويندرج تحته خمسة فصول هي:

---

(١) . د. ملحم إبراهيم الأسود: بدر التمام في شرح ديوان أبي تمام، مطابع قوزما ، بيروت ١٩٢٨م، ج١ ص ٣٣ . ٣٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

الفصل الأول : اسمه ونسبه، والفصل الثاني: مولده ونشأته، والفصل الثالث: صفاته وأخلاقه، والفصل الرابع: ثقافته، ومكانته، والفصل الخامس: علاقته بالشعراء، وتحته ثلاثة مباحث : (أ) ـ تأثره بالشعراء السابقين. (ب) ـ علاقته بالشعراء المعاصرين له.

(ج) ـ تأثر الشعراء المعاصرين واللاحقين به.

الباب الثالث: يتناول شعر أبي تمام دراسة موضوعية وفنية، ويأتي في فصلين:

الفصل الأول: مذهب أبي تمام الشعري، والفصل الثاني: أبو تمام في ميزان النقد، ثم الخاتمة، وفيها النتائج والتوصيات.

وبعد ، فهذا جهد المقل، أسأل الله العلي القدير أن أكون قد وفِّقْتُ في بحثي، وأن يكون هذا العمل خالصاً لوجه الله الكريم ، والحمد لله أولاً وآخراً.

الباحث

إبراهيم عبد العزيز إبراهيم سمري

الشهرة: إبراهيم السمري

ج.م.ع. ، محافظة الغربية ، السنطة

٢٤/ ٨/ ٢٠١٨م

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

الباب الأول

عصر أبي تمام

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الفصل الأول

الحياة السياسية

المبدع ـ لا شك ـ مرآة عصره، أو بالأحرىٰ ثمرة عصره وبيئته، ونحن عندما نقول عصره إنما نعني كل الظروف التي أحاطت به، وشكلت شخصيته، وأثرت في إبداعه، سواء أكانت هذه الظروف سياسية، أم اجتماعية، أم اقتصادية، أم علمية، أو ثقافية بكل ما تعنيه كلمة ثقافة.

وإذا كنا بصدد الحديث عن أبي تمام وحياته فمن الضروري أن نتعرض لعصره من جميع جوانبه؛ لأن "الشعر في كل أمة خاضع لتطور حياتها في النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية، هي التي تحدد مجراه ومساربه واتجاهاته، وهي التي تفرض عليه ما شاءت من التغيرات، فينتقل من طور إلىٰ طور، وتتبدل موضوعاته وصوره، وألفاظه وأساليبه، وتستثار فيه معانٍ جديدة لم تكن موجودة، وتغلب عليه صياغة لم تكن مألوفة، وبقدر خطر هذه التغيرات التي تحدث في حياة كل أمة، يكون خطر التغيرات التي تحدث في تطور الشعر والأدب عامة، لهذا كان لابد أن نتناول بالتحليل والتفصيل تلك التغيرات التي طرأت علىٰ الحياة العربية في (العصر العباسي الأول) في شتىٰ النواحي التي ذكرناها من قبل، والتي تعتبر الأسس التي يقوم عليها بناء أي مجتمع إنساني"(١).

الثورة العباسية وعوامل نجاحها:

شهد العصر الأموي العديد من الثورات الخارجة علىٰ خلفاء بني أمية، بعضها ينادي بالمساواة والعدالة الاجتماعية ويتخذ إلىٰ ذلك طريق الرفق علىٰ نحو ما هو معروف عن جماعة الفقهاء، وبعضها يرفض الخلافة الأموية رفضاً باتا ويتخذ طريق العنف يريد أن يمحو سلطان الأمويين محواً علىٰ نحو ما كان يريد الزبيريون والعلويون والخوارج وابن الأشعث ويزيد بن المهلب، غير أن خلفاء بني أمية استطاعوا أن يكبحوا جماح الثائرين خائضين إلىٰ ذلك بحاراً من الدماء، متخذين من القضاء علىٰ كل ثائر وأنصاره نكالاً لكل من يحاول الثورة علىٰ نظمهم السياسية والاجتماعية .

"وكانت تنضم إلىٰ كل هذه الثورات فئات من الموالي الذين اضطهدهم بنو أمية، وحرموهم المساواة بالعرب في الحقوق، مخالفين نظرية الإسلام وما يدعو إليه من التسوية المطلقة بين العرب وغير العرب في الضرائب وغير الضرائب، وقد احتملوا في ذلك ألواناً من البؤس الذي يطاق والذي

---

(١). د. محمد مصطفى هدارة: اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، دار المعارف ١٩٦٣م، ص٢٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لا يطاق، فكان طبيعيًّا أن تكثر مطالبتهم بالعدل الاجتماعي، وأن يطمحوا إلىٰ حكام جدد، يقرُّون فيهم مبادئ الإسلام، الذي يوجب المساواة بين أفراد الأمة في جميع الواجبات المالية وغير المالية ، والذي ينكر الظلم أشد الإنكار، كما ينكر أن تستغل طبقة من الأمة بعض الطبقات فيها لمآربها العاجلة، وقد وضعت كثرتهم آمالها في أبناء علي وأسرته الهاشمية؛ لما تميز به حكمه من مساواة تامة بين العرب والموالي بحيث أصبحوا شيعتهم، غير أنهم فقدوا في أسرة علي وأبنائه وأحفاده الشخص الحصيف الجريء الذي يستطيع تنظيم ثورتهم بحيث يكتب لها النجاح"(١).

عقد الشيعة من الموالي والعرب آمالهم علىٰ رجل من البيت العلوي ، هذا الرجل هو أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب، أحد العلماء الثقات، وكان مقيماً بالشام، قريبًا من مركز الخلافة الأموية، فكاتبوه علىٰ أن يكون إمامهم وزعيمهم في الحركات الثورية ضد بني أمية، وما لبث أمر تلك المكاتبة أن وصل الخليفة الأموي "سليمان بن عبد الملك"، فخشي أبو هاشم علىٰ نفسه – وكانت قد تقدمت به السِّنّ – بطش الخليفة، فانتقل إلىٰ "الحميمة" من أرض الشام؛ حيث يقيم عمه "عليّ السَّجَّاد بن عبد الله بن عباس"، وهناك حضرته منيته، فأوصىٰ إلىٰ "محمد بن علىٰ بن عبد الله بن عباس" بما كان من أمر الناس معه، ودفع إليه الكتب التي كتبوها إليه، وقال له: أنت صاحب هذا الأمر، وهو في ولدك، ثم مات، وكان ذلك في خلافة سليمان بن عبد الملك سنة ٩٩هـ/ ٧١٨م.

وأخذ محمد بن علي بن عبد الله بن عباس في تنفيذ ما أوصاه به أبو هاشم، فاتصل بالناس، واختار من بينهم دعاة يخرجون وينتشرون في ربوع الدولة الأموية، يشهرون بها وينتقدون عيوبها، ويدعون إلىٰ ضرورة أن يتولىٰ أمر الخلافة رجل من آل البيت قادر علىٰ أن يملأ الأرض عدلاً، ووجدت تلك الدعوة صدىٰ عند الناس ورواجًا.

ويبدو أن خلافة عمر بن عبد العزيز كانت فرصة لنشاط أعداء الأمويين، ولبدء الدعوة؛ فابن عبد ربه واليعقوبي والطبري والدينوري وابن خلكان يجعلون سنة مائة هجرية السنة التي بدأ فيها محمد بن علي أعماله، يقول الطبري: "وفي هذه السنة- أعني سنة مائة- وجه مُحَمَّد بن عَلِيّ بن عَبْدِ اللهِ بْنِ عباس من أرض الشراة ميسرة إلىٰ العراق، ووجه مُحَمَّد بن خنيس وأبا عكرمة السراج، وهو أبو مُحَمَّد الصادق وحيان العطار خال إبراهيم بن سلمة إلىٰ خراسان، وعليها يومئذ الجراح بن عبد الله الحكمي من قبل عمر بن عبد العزيز، وأمرهم بالدعاء إليه وإلىٰ أهل بيته، فلقوا من لقوا،

(١). د. شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الأول، ط/١٦ دار المعارف ، القاهرة ٢٠٠٤م، ص ١٠.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ثم انصرفوا بكتب من استجاب لهم إلىٰ مُحَمَّد بن علي، فدفعوها إلىٰ ميسرة، فبعث بها ميسرة إلىٰ مُحَمَّد بن علي..."(١).

وفي سنة ١٠٢هـ أرسل ميسرة دعاته إلىٰ خراسان من العراق، فوشي بهم إلىٰ أمير خراسان (سعيد خزينة) لأعمالهم المريبة، فادعوا أنهم تجار، وشفع لهم بعض الخراسانيين، وأغلبهم من ربيعة واليمن فأطلق سراحهم(٢).

وفي سنة ١٠٥هـ انضم بكير بن ماهان للدعوة ، وقد رجع في تلك السنة من السند(حيث كان كاتبًا لأميرها) ومعه أربعة قضبان فضة وقضيب من ذهب، فأقنعه الدعاة بالانضمام إليهم فأعطىٰ ماله لمحمد بن علي، وأصبحت له معه صلة شخصية، وصادف أن توفي ميسرة فعين بكير محله(٣).

وفي أول ذي القعدة سنة ١٢٥هـ يموت محمد بن علىٰ بن عبد الله بن عباس، بعدما أوصىٰ ابنه إبراهيم الملقب بالإمام بمواصلة المسيرة، وتأخذ الدعوة العباسية عند إبراهيم الإمام صورة أخرىٰ غير التي كانت عليها قبل ذلك، فهي لم تكن منظمة، أما الآن فقد صار لها نظام، وقادة معلومون، من أمثال أبىٰ سلمة الخلال علىٰ الكوفة، وأبىٰ مسلم الخراساني علىٰ خراسان.

وما تكاد سنة ١٢٩هـ/ ٧٤٧م، تقبل حتىٰ يصدر أمر الإمام العباسي "إبراهيم بن محمد" أن يكون "أبو مسلم الخراساني" رئيسًا للدعاة جميعًا في خراسان وما حولها، وكلَّفه أن يجهر بالدعوة للعباسيين علنًا، وأن يعمل علىٰ جعل خراسان قاعدة للانطلاق بقواته ضد البيت الأموي.

تولىٰ أبو مسلم الخراساني قيادة الدعوة، وكان من دهاة الرجال ومن أكفئهم في النهوض بجلائل الأمور، فأخذ يصور للناس فساد الحكم الأموي والناس يسمعون له وينضمون إلىٰ دعوته.

وخلال هذه الفترة قام أبو مسلم بإشعال الفتنة بين القبائل اليمنية والمضرية فنشبت الحروب بين الطرفين، وسفك فيها كثير من الدماء، وكان يقود القبائل المضرية نصر بن سيّار والي خراسان لمروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين، وحين تأكد أبو مسلم أن القبائل قد استفرغت قوتها بسبب الاقتتال الداخلي، وأنه لم يعد في طاقتها الصمود، وأن نصر بن سيار قد ضعف جانبه، أعلن الثورة

---

(١) . محمد بن جرير الطبري: تاريخ الرسل والملوك، دار التراث، بيروت ١٣٨٧هـ، (٥٦٢/٦).

(٢) . الطبري: تاريخ الرسل والملوك، مرجع سابق، (٦/ ٦١٦).

(٣) . د. عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي، ط/ ٣ ، دار الطليعة، بيروت ١٩٩٧م، ص ٢٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

علىٰ الأمويين، وأخذت رايات العباسيين السوداء تخفق، وحواضر خراسان تسقط واحدة إثر الأخرىٰ، واشتد الصراع بين العباسيين والأمويين(١).

ولم يلبث أبو مسلم أن دخل "مرو " عاصمة خراسان، وكاد أن يستولىٰ عليها إلا أنه لم يتمكن من ذلك هذه المرة، وهنا أسرع الوالي علىٰ خراسان من قبل بني أمية، وهو "نصر بن سيار" يستغيث بمروان بن محمد ويطلب منه مددًا، وينبه رجال الدولة إلىٰ الخطر المحدق فيقول:

أَرىٰ خَلَل الرَّمادِ وَميضَ نارٍ ... ويُوشكُ أن يَكُونَ لَهَا ضِـرَامُ

فإن لم يُطفـها عقلاء قـومٍ ... يكون وقودها جثثٌ وهــامُ

فإن النارَ بالعـودين تُذْكـىٰ ... وإن الحربَ مبدؤها كـلامُ

فقلت من التعجب ليتَ شعـري ... أ أيقاظ أمية أم نيــام؟

فإن كانـوا لحينهمُ نيامـاً ... فقل قومـوا فقد حان القيامُ

ففـري عن رحـالك ثم قـولي ... علىٰ الإسلام والعرب السلامُ(٢)

ولم يهتم بنو أمية بهذا الأمر بسبب انشغالهم بصراعات أنصارهم القدماء بالشام، وانشقاق زعماء الأمويين علىٰ أنفسهم، ولم يمدُّوا واليهم علىٰ خراسان بشيء، فأدرك أبو مسلم الخراساني أن الوالي الأموي لن يصبر طويلاً، وأن "مرو" ستفتح يومًا ما قريبًا، فأخذ يجمع العرب من حوله، ثم انقضَّ بهم علىٰ "مرو" ففتحت له، وهرب واليها "نصر بن سيار" وكان ذلك سنة ١٣٠هـ.

واصل أبو مسلم فتوحاته، فدانت له "بلخ" و"سمرقند" و"طخارستان" و"الطبسين" وغيرها، وتمكن من بسط سيطرته ونفوذه علىٰ خراسان جميعًا، وراح يتطلع إلىٰ غيرها، وكان كلما فتح مكانًا أخذ البيعة من أهله علىٰ كتاب الله – عز وجل – وسنة نبيه، "وللرضا من آل محمد"، أي يبايعون إمامًا مرضيًا عنه من آل البيت من غير أن يعيِّنَهُ لهم.

---

(١). د. شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، دار المعارف مصر ٢٠٠٤م، ص ١١ . ١٢.

(٢) . انظر: ابن جرير الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ط/ ٢، دار التراث، بيروت، ١٣٨٧ هـ، (٣٦٩/٧)، وابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط/١، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م، (٣٦٥/٤)، وابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك،لمحقق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، ط/١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢م (٢٧٢/٧) ، وابن كثير : البداية والنهاية، تحقيق : عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط/١ ، دار هجر، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م ، (٢٣٠/١٣).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والواقع أن بني أمية كانوا نيامًا في آخر عهدهم، لا يعلمون من أمر القيادة الرئيسية لهذه الدعوة العباسية شيئًا، ولما وقع في يد الخليفة (مروان بن محمد) كتاب من "الإمام إبراهيم العباسي" يحمل تعليماته إلىٰ الدعاة، ويكشف عن خطتهم وتنظيمهم، كان منشغلا بتوطيد سلطانه المتزعزع وقمع الثائرين ضده، واكتفىٰ الخليفة "مروان بن محمد" بأن أرسل إلىٰ القائم بالأمر في دمشق للقبض علىٰ الإمام "إبراهيم بن محمد" "بالحميمة" وإيداعه في السجن، وتم القبض عليه وأودع السجن، فظل به حبيسًا إلىٰ أن مات في خلافة مروان بن محمد سنة١٣٢هـ(١).

ولما علم "إبراهيم" بالمصير الذي ينتظره، وعلم أن أنصاره ومؤيديه قد واصلوا انتصاراتهم، وأن الكوفة قد دانت لهم وصارت في قبضتهم أوصىٰ لأخيه "أبىٰ العباس" بالإمامة طالبًا منه أن يرحل إلىٰ الكوفة ومعه أهل بيته؛ لينزل علىٰ داعي العباسيين بها وهو "أبو سلمة الخلال" فهناك يكون في مأمن من رقابة الأمويين وسلطانهم، وهناك في الكوفة – بعد قليل من وصول آل العباس إليها – تمت مبايعة أبىٰ العباس خليفة للمسلمين، وتوجه "أبو العباس" إلىٰ مسجد الكوفة عقب مبايعته بالخلافة في الثاني عشر من ربيع الأول سنة ١٣٢هـ وألقىٰ علىٰ الملأ خطبة كانت بمثابة الإعلان الرسمي عن قيام الدولة العباسية (٢).

وكان اللقاء الحاسم بين الأمويين والعباسيين علىٰ أحد فروع دجلة بالقرب من الموصل وهو "نهر الزَّاب الأعلىٰ"؛ فجيش العباسيين يقوده عم الخليفة، وهو "عبد الله بن علىٰ"، بينما يقود جيش الأمويين الخليفة نفسه "مروان بن محمد"، كان ذلك يوم السبت لإحدىٰ عشرة ليلة خلت من جمادىٰ الآخرة سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م، ولم يجد "مروان" أمام جحافل العباسيين إلا أن يفر إلىٰ "دمشق" مهزومًا أمام مطاردة "عبد الله بن علىٰ".

لقد راح يُطارده، فاستولىٰ علىٰ "دمشق"، واستولىٰ علىٰ مدن الشام واحدة بعد الأخرىٰ، وكان استسلام دمشق العاصمة معناه سقوط دولة بني أمية وانتهاء عهدها كعاصمة للدولة

---

(١) . محمد بن علي بن محمد المعروف بابن العمراني: الإنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق: قاسم السامرائي، ط/١ دار الآفاق العربية ، القاهرة، ٢٠٠١م، ص٥٧.

(٢) . انظر هذه الخطبة في: ابن جرير الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ط/ ٢، دار التراث – بيروت، ١٣٨٧ هـ، (٧/ ٤٢٦)، وابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط/١، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٩٧م، (٩/٥)، ويوسف ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب، مصر، (٣٢١/١).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

الإسلامية، لكن مروان قد فرّ إلىٰ مصر وتوجه إلىٰ صعيدها، وقرب الفيوم عند قرية "أبو صير" أُلقِيَ القبضُ عليه، وقُتِلَ بعدما ظل هاربًا ثمانية أشهر، يفر من مكان إلىٰ مكان.

ولعلّ أهم المبادئ التي بشّر بها العباسيون خلال دعوتهم، وبعد نجاح ثورتهم، أنهم يريدون تطبيق النظام الإسلامي، وتحقيق العدالة والمساواة بين الشعوب كافة دون التفريق بين العرب وغيرهم(١).

وبعد هذا العرض الموجز يمكننا استخلاص عوامل نجاح الثورة العباسية وإجمالها فيما يلي:

١ ـ اضطهاد الأمويين لآل الرسول ﷺ ، وتشريدهم ونفيهم وحبسهم، وإنزال الهوان بهم، في كل مكان سواء أكان آل الرسول من البيت العلوي أم من البيت العباسي.

٢ ـ ظهور الطبقية بشكل حاد بين العرب وبين أهالي البلاد المفتوحة، نتيجة اضطهاد الأمويين للموالي عامة واحتقارهم، الأمر الذي جعل الموالي يضمرون العداء والكراهية لبني أمية ويتحينون الفرص للقضاء عليهم واستعادة أمجاد حضاراتهم القديمة.

٣ ـ العصبيات القبلية التي أجج نارها الأمويون طوال فترة حكمهم ليشغلوا الناس عن سيادتهم ، ويصرفوهم عن تتبع أعمالهم.

٤ ـ تحلل الأسرة المروانية من داخلها ووقوع النزاع علىٰ السلطة بين أفرادها، وظلمهم للرعية .

٥ ـ اختيار العباسيين للمكان المناسب لانطلاق دعوتهم، وكذلك اختيار نوعية الناس الذي يقدرون علىٰ استيعاب هذه الدعوة، يقول ابن قتيبة : "قال محمد بن علي بن عبد الله بن عباس لرجال الدعوة حين اختارهم للدعوة وأراد توجيههم: أما الكوفة وسوادها فهناك شيعة عليّ بن أبي طالب، وأما البصرة فعثمانيّة تدين بالكفّ وتقول: كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل، وأما الجزيرة فحرورية مارقة، وأعراب كأعلاج، ومسلمون في أخلاق النصارىٰ، وأما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل أبي سفيان وطاعة بني مروان، عداوة لنا راسخة وجهلا متراكما، وأما أهل مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر، ولكن عليكم بخراسان فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر وصدوراً سليمة وقلوباً فارغة لم تتقسّمها الأهواء، ولم تتوزّعها النّحل، ولم تشغلها ديانة، ولم يتقدّم فيها فساد، وليست لهم اليوم همم العرب، ولا فيهم كتحازب الأتباع بالسادات، وكتحالف القبائل وعصبيّة العشائر، ولم يزالوا يذالون ويمتهنون ويظلمون ويكظمون ويتمنّون

(١) . د. حسين عطوان: الشعراء من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، ط/ ١، مكتبة المحتسب، عمان ، دار الجيل، بيروت ١٩٧٤م، ص ٨٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الفرج، ويؤمّلون الدول، وهم جند لهم أجسام وأبدان، ومناكب وكواهل، وهامات ولحىٰ وشوارب وأصوات هائلة، ولغات فخمة تخرج من أفواه منكرة، وبعد فكأني أتفال إلىٰ المشرق وإلىٰ مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق"(١).

ومهما تكن الأسباب التي أدت إلىٰ انهيار الدولة الأموية ، فإن الانقلاب العباسي في حقيقة أمره ثورة اجتماعية غيّرت من صورة المجتمع العربي التي كان عليها أيام بني أمية إلىٰ مجتمع إسلامي جديد تعيش فيه أمة إسلامية تضم إلىٰ جانب العنصر العربي عناصر أجنبية، وبخاصة الفرس، ارتفعت منزلتها الاجتماعية حتىٰ تفوقت علىٰ العرب، واستطاعت أن تفرض وجودها ونفوذها في المجتمع العباسي، وأن يكون لها تأثيرها الفعال في تطويره، والتأثير فيه من شتىٰ جوانبه، حتىٰ صُبغ المجتمع بالصبغة الفارسية ، وقد لاحظ الجاحظ هذه الظاهرة واصفاً الدولة الأموية بأنها: "عربية أعرابية"، والدولة العباسية بأنها: "عجمية خراسانية"(٢)، وهكذا "فإن اصطباغ الدولة العباسية بالصبغة الفارسية، أو الصبغة المختلطة كان له نتائجه السياسية ، ولكن كانت له نتائج أدبية خطيرة"(٣)، وهذا ما سوف نؤكده ونوضحه في الفصول التالية .

****

خلفاء العباسيين في العصر العباسي الأول:

تولىٰ عرش الخلافة في العصر العباسي الأول تسعة خلفاء دانت لهم الدنيا، وخضعت لسلطانهم أمم عريقة، وحضارات قديمة.

(١) ـ كان أولهم أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الملقب بالسفاح (١٣٢ ـ ١٣٦هـ / ٧٤٩ ـ ٧٥٣م)، ولد بالحميمة سنة ١٠٤هـ ، وعاش فيها ٢٨ عاماً وهو أول الخلفاء العباسيين ومؤسس الدولة، قام بدعوته أبو مسلم الخراساني مقوّض عرش الدولة الأموية، فبويع له بالخلافة جهراً في الكوفة سنة ١٣٢ هـ، وصفا له الملك بعد مقتل مروان بن محمد (آخر ملوك الأمويين في الشام) وكافأ أبا مسلم بأن ولاه خراسان، وكان شديد العقوبة، عظيم الانتقام، تَتبَّع بقايا الأمويين بالقتل والصلب والإحراق حتىٰ لم يبق منهم غير الأطفال والجالين إلىٰ

(١) . عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري: عيون الأخبار ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٨هـ (١/ ٣٠٣) .

(٢) . الجاحظ: البيان والتبيين ، دار الفكر للجميع ١٩٨٦م(٤/٦٤).

(٣) . د. طه حسين: من تاريخ الأدب العربي "العصر العباسي الأول" . القرن الثاني ، ط/ ٢ ، دار العلم للملايين ١٩٧٦م، (٣١/٢).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الأندلس، ولقب بالسفاح لكثرة ما سفح من دمائهم، وكانت إقامته بالأنبار، حيث بني مدينة سماها "الهاشمية" وجعلها مقر خلافته، وهو أول من أحدث الوزارة في الإسلام(١).

بدأ السفاح عهده بالتخلص من بقايا الأمويين، وتمكن من القضاء علىٰ الثورات العربية في الشام وفلسطين والجزيرة، كما أوعز لعمه عبد الله بن علي والي الشام للتصدي للبيزنطيين، كما تصدت الجيوش العباسية للجيوش الصينية في الشرق عندما هددت أطراف الدولة سنة ١٣٤هـ ، كما تخلص أبو العباس من أبي سلمة الخلال الذي حاول نقل الخلافة إلىٰ العلويين بواسطة أبي مسلم الخراساني، وقد دامت خلافته إلىٰ أن توفي في الأنبار في ١٣ من ذي الحجة سنة ١٣٦هـ(٢).

(٢) ـ وتولىٰ بعده أخوه أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الملقب بالمنصور، الذي ظل خليفة أكثر من عشرين عاماً (١٣٦ ـ ١٥٨هـ / ٧٥٣ ـ ٧٧٥م) ، ويعتبر المؤسس الحقيقي للدولة العباسية ، لحزمه ودهائه وجرأته ولأنه وطد ملك بني العباس ، وقد واجه في البداية أخطاراً داخلية كان لابد له من أن يتخلص منها لتثبيت سلطانه، منها التخلص من عمه عبد الله بن علي الذي طمع في الخلافة بعد موت السفاح، فقد أودعه السجن إلىٰ أن مات سنة ١٤٧هـ، وتخلص من أبي مسلم الخراساني بقتله في مجلسه سنة ١٣٧هـ، وقضىٰ علىٰ كل الحركات الفارسية المعارضة للدولة كحركة سنباذ، والراوندية، وتخلص من العلويين المعارضين للدولة من بيت الحسن بن علي، كما تصدىٰ للأخطار الخارجية متمثلة في البيزنطيين من ١٣٨ ـ ١٥٥هـ إلىٰ أن طلبوا الصلح ودفعوا الجزية، كما حل مشكلة إيجاد المقر الدائم للدولة العباسية فبنىٰ بغداد التي استغرق بناؤها قرابة خمس سنوات من عام ١٤٥ إلىٰ ١٤٩هـ واتخذها عاصمة له، كما بنىٰ الرصافة سنة ١٥١هـ علىٰ الضفة الشرقية لنهر دجلة في مقابل بغداد لتكون مقراً للجيش الخراساني بقيادة ابنه المهدي(٣)، وشجع العلوم وترجمة آثار الأمم العريقة في الثقافة والحضارة، وكان متقدماً في علم الكلام داهية أديباً مصيباً في رأيه، جميل التدبير، حسن السياسة، وكانت دولته من أحسن الدول رونقاً، وأوسعها رقعة، بيد أنها صبغت في عهده بالصبغة الفارسية.

وكان المنصور أسمر نحيفا طويل القامة خفيف العارضين معرّق الوجه، رحب اللحية، يخضب بالسواد، عريض الجبهة "كأن عينيه لسانان ناطقان، تخالطه أبهة الملوك بزيّ النساك" أمه بربرية تدعىٰ سلامة، وكان نقش خاتمه " الله ثقة عبد الله وبه يؤمن"(٤).

---

(١). خير الدين الزركلي: الأعلام ، ط/١٥ دار العلم للملايين ، بيروت ٢٠٠٢م، (١١٦/٤).

(٢). د. محمد عبد الحفيظ المناصير: الجيش في العصر العباسي الأول، دار مجدلاوي ـ عمان ٢٠٠٠م، ص ٥٧ ـ ٥٨.

(٣). د. محمد عبد الحفيظ المناصير: الجيش في العصر العباسي الأول، مرجع السابق ص ٥٨ ـ ٥٩.

(٤). خير الدين الزركلي: الأعلام، مرجع سابق، (١١٧/٤).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

(٣) ـ وتولىٰ بعده ابنه محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الملقب بالمهدي (١٥٨ ـ ١٦٩هـ / ٧٧٥ ـ ٧٨٥م) وكان سخياً جواداً عادلاً، أطلق سراح المسجونين السياسيين وخاصة العلويين، واسترضىٰ أهل الحجاز عندما حج سنة ١٦٠هـ، وأجرىٰ الكثير من الإصلاحات، وواجه بعض المشاكل الداخلية ومنها مشكلة الزنادقة، وبعض الحركات الإلحادية كحركة المقنّع الراوندي الذي قضىٰ عليه سنة ١٦٣هـ وأنشأ ديوانا للزنادقة، وأنشأ هيئة علمية تشرف عليه للرد عليهم، وقد ازدهرت في عهده الحضارة وشاع الترف، وتقدمت العلوم والفنون والآداب، وعاش في رعايته كثير من العلماء والشعراء، ومات عام (١٦٩هـ) .

(٤) ـ تولىٰ الخلافة بعده ابنه موسىٰ بن محمد الملقب بالهادي (١٦٩ ـ ١٧٠هـ / ٧٨٥ ـ ٧٨٦م) وكان شرساً غليظاً قوياً ، وقد تصدىٰ لبعض المشاكل الداخلية، واتخذ سياسة حازمة مع العلويين، فضيق عليهم مما أدىٰ إلىٰ اندلاع ثورتهم، فأرسل إليهم جيشاً حاربهم وانتصر عليهم في معركة (فخ) بين المدينة ومكة سنة ١٦٩هـ ، وأراد الهادي أن يخلع أخاه هارون من ولاية العهد وجعلها لابنه جعفر إلا أن القدر لم يمهله وتوفي في عام ١٧٠هـ.

(٥) ـ ثم جاء الخليفة هارون بن محمد بن عبد الله الملقب بالرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣هـ / ٧٨٦ ـ ٨٠٩م) ، وكان متديناً شديد المحافظة علىٰ التقاليد الشرعية، وكان يحج عاماً ويغزو عاماً ، وكان عهد الرشيد واسطة عقد الدولة العباسية، بلغت فيه ذروة السلطان والجاه، وكانت بغداد تعج بالعلماء والأدباء والشعراء، ويروىٰ أنه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد والصاحب بن عباد من فحولة الشعراء، وكان الرشيد يقتفي في سياسته آثار جده المنصور، وفي سماحة آثار والده المهدي، ولما زاد نفوذ الفرس علىٰ يد وزرائه من البرامكة بطش بهم في عنف وشدة عام (١٨٧هـ) ونكبهم نكبة هزت النفوذ الفارسي هزا عنيفاً، ورغم أن الرشيد قد حاول استرضاء العلويين في عهده إلا أن أحدهم أعلن خروجه في الديلم فتمكن الرشيد من التخلص منه ، وأنزل بالعلويين أشد العقوبات(١)، ومات الرشيد عام (١٩٣هـ).

(٦) ـ تولىٰ الخلافة بعد الرشيد ابنه محمد بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور الملقب بالأمين (١٩٣ – ١٩٨ هـ / ٨٠٩ – ٨١٣ م)، ولد في رصافة بغداد وبويع بالخلافة بعد وفاة أبيه (سنة ١٩٣ هـ) بعهد منه، فولَّىٰ أخاه المأمون خراسان وأطرافها.

---

(١) . انظر: ابن جرير الطبري: تاريخ الطبري ، دار إحياء التراث العربي بيروت (٨/ ٢٤٢ . ٢٤٣) ، وابن الأثير : الكامل في التاريخ (٥/٩٠) ، وابن الطقطقي محمد بن علي بن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٦٦م، ص١٩٦، وإبراهيم أيوب: التاريخ العباسي والحضاري، ط/ ١، الشركة العالمية للكتاب ، بيروت ١٩٨٩م، ص ٦٧ . ٦٨.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وكان المأمون ولي العهد من بعده، فلما كانت سنة ١٩٥هـ أعلن الأمين خلع أخيه المأمون من ولاية العهد، فنادىٰ المأمون بخلع الأمين في خراسان، وتسمىٰ بأمير المؤمنين، وجهز الأمين وزيره (ابن ماهان) لحربه، وجهز المأمون طاهر بن الحسين، فالتقىٰ الجيشان، فقتل ابن ماهان وانهزم جيش الأمين، فتتبعه طاهر بن الحسين وحاصر بغداد حصاراً طويلاً انتهىٰ بقتل الأمين: قُتل بالسيف، بمدينة السلام، وكان الّذي ضرب عنقه مولىٰ لطاهر، بأمره.

(٧) ـ تولىٰ الخلافة بعده أخوه عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور (الملقب بالمأْمُون) (١٩٨ - ٢١٨ هـ / ٨١٣ - ٨٣٢م) ، وهو سابع الخلفاء من بني العباس في العراق، وأحد أعاظم الملوك في سيرته وعلمه وسعة ملكه، نفذ أمره من إفريقية إلىٰ أقصىٰ خراسان وما وراء النهر والسند.

حاول حفظ التوازن بين الشيعة والسنة ، والعرب والعجم ، ولكن إقامته في خراسان نحو ست سنوات أغضبت العرب في العراق فثاروا في الكوفة، وتزعم الثورة أبو السرايا السري بن منصور الشيباني الذي ولّىٰ أحد أحفاد الحسين بن علي علىٰ مكة، والذي استولىٰ علىٰ الكوفة وهزم جيش الحسن بن سهل سنة ١٩٩هـ وتمكن من إخضاع البصرة والقادسية ، إلا أن ابن هرثمة بن أعين تمكن من الاستيلاء علىٰ الكوفة ، وهزم أبو السرايا سنة ٢٠٠هـ وقُتل، وتمكن ابن هرثمة من هزيمة العلويين في مكة، وتفرق العلويون في كل مكان .

وكثرت الثورات في عهد المأمون؛ إذ ثار الزّطّ في جنوب العراق، وأرسل لهم المأمون الجيوش في السنوات ٢٠٥، ٢٠٦، ثم أرسل إليهم المعتصم جيوشاً سنة ٢١٩هـ إلىٰ أن تمكن من القضاء علىٰ ثورتهم (١)، وشهدت مصر في عهده اضطرابات؛ إذ انقسم أهلها إلىٰ ثلاث فرق: فريق يؤيد الأمين، وفريق يؤيد المأمون، وفريق بزعامة السري بن الحكم.

وسيطر قوم من الأندلس وهم قادة ثورة الربض ضد الحكم الأول الأموي في الأندلس علىٰ الإسكندرية في عهد المأمون، وأسسوا إمارة مستقلة عن الخلافة العباسية استمرت عشر سنوات، وأرسل إليهم المأمون جيشاً سنة ٢١٢هـ أجلاهم إلىٰ جزيرة كريت فاستولوا عليها(٢).

وثار الوجه البحري في مصر سنة ٢١٦هـ فذهب المأمون بنفسه لإخماد ثورتهم، وثار بابك الخرّمي في بلاد فارس، وقاتله المأمون سنة ٢٠١هـ، وفي سنة ٢١٨هـ ثم تمكن المعتصم من القضاء علىٰ ثورة الخرمية وأسر بابك سنة ٢٢٣هـ، وقد سجل أبو تمام هذا في قصائده.

---

(١) ـ انظر: ابن الأثير : الكامل في التاريخ(٥ /٢٣٢) ، وإبراهيم أيوب: التاريخ العباسي السياسي والحضاري، ط/١ الشركة العالمية للكتاب، بيروت ١٩٨٩م، ص٨٣ ـ ٨٤.

(٢) ـ إبراهيم أيوب : التاريخ العباسي ، مرجع سابق، ص٨٥ ـ ٨٦، ود. محمد عبد الحفيظ المناصير: الجيش في العصر العباسي الأول ص٦٧.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ويعد عهد المأمون ـ رغم كل هذه الثورات والاضطرابات ـ درة في تاج الحضارة الإسلامية، وغرة في جبين الخلافة العباسية، أشرقت العلوم في أيامه، ونبغ فحول المفكرين والفلاسفة والعلماء والأدباء والشعراء، وزهت حركة الترجمة، ونقلت الثقافات الأجنبية إلىٰ اللغة العربية، وإن كان نفوذ الفرس قد زاد في أيامه، لأنهم هم الذين ولوه الخلافة بعد أن قتلوا أخاه الأمين.

لقد أتم المأمون ما بدأ به جده المنصور من ترجمة كتب العلم والفلسفة، وأتحف ملوك الروم بالهدايا سائلاً أن يصلوه بما لديهم من كتب الفلاسفة، فبعثوا إليه بعدد كبير من كتب أفلاطون وأرسطاطاليس وبقراط وجالينوس وإقليدس وبطليوس وغيرهم، فاختار لها مهرة التراجمة، فترجمت، وحض الناس علىٰ قراءتها، فقامت دولة الحكمة في أيامه، وقرب العلماء والفقهاء والمحدثين والمتكلمين وأهل اللغة والأخبار والمعرفة بالشعر والأنساب، وأطلق حرية الكلام للباحثين وأهل الجدل والفلاسفة، لولا المحنة بخلق القرآن، في السنة الأخيرة من حياته.

وسبب هذه المحنة أن عهد المأمون شهد ظهوراً ونشاطاً للمعتزلة ، وكان المأمون علىٰ اتصال بعلماء الكلام، وفي مقدمتهم ثمامة بن أشرس النمري ، وبشر بن غياث المريسي اللذان استطاعا أن يجرّاه إلىٰ الاعتزال وإلىٰ القول بأن القرآن مخلوق، وأن من لا يقول ذلك يدخل في عداد المُشَبِّهة، وما توافي سنة ٢١٢هـ حتىٰ يجعل المأمون من فكرة خلق القرآن عقيدة رسمية للدولة(١)، وبدأ من سنة ٢١٨هـ يمتحن القضاة والمحدثين في مسألة خلق القرآن ، ويعاقب كل من يقول بعكس ذلك(٢).

(٨) ـ وتولىٰ الخلافة بعد المأمون أخوه محمد بن هارون الرشيد بن المهدي ابن المنصور، أبو إسحاق، (الملقب بالمعتصم بالله)، وهو خليفة من أعاظم خلفاء هذه الدولة، بويع بالخلافة سنة ٢١٨ هـ يوم وفاة أخيه المأمون، وبعهد منه، وكان بطرسوس، وعاد إلىٰ بغداد بعد سبعة أسابيع (في السنة نفسها).

وكان أبيض أصهب حسن الجسم مربوعاً طويل اللحية ، قوي الساعد، يكسر زند الرجل بين إصبعيه، ولا تعمل في جسمه الأسنان، وكره التعليم في صغره، فنشأ ضعيف القراءة يكاد يكون أمّيا، وكان عسكريا بنشأته وميوله .

وأهم ما يميز عهد المعتصم اعتماده علىٰ الجنود الأتراك، وجلبهم من أقاليم ما وراء النهر عن طريق الشراء، والأسر والهدايا، فجعل جل جيشه منهم، وأسقط العرب من الدواوين، ولكنه استخدم قوماً من حوف مصر ، وحوف اليمن وسماهم المغاربة.

---

(١) . د. شوقي ضيف: تاريخ الأدب العرب . العصر العباسي الأول ، ص ٣٩.

(٢) . انظر: الطبري: تاريخ (٨/ ٦٣١ . ٦٣٩)، وابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط/١ دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م(٥/٥٧٢ . ٥٧٩).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بدأ نفوذ الأتراك في الدولة منذ عهد المعتصم الذي بنىٰ للجنود الأتراك مدينة (سامرّا) (سنة٢٢١هـ) حين ضاقت بغداد بهم، واتخذها حاضرة لملكه، وجعل قادته من الأتراك مثل الأفشين، وأنياخ، وقد أدت هذه السياسة إلىٰ ثورة العرب علىٰ المعتصم إلا أن المعتصم قضىٰ علىٰ الحركة في مهدها سنة ٢٢٣هـ .

وتحرك العلويون في عهد المعتصم في خراسان، ومنهم محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين بن علي، ولكنه أسره وسجنه سنة ٢١٩هـ، ثم فر من سجنه، كما تمكن المعتصم من القضاء علىٰ ثورة الزط نهائياً(١).

حكم المعتصم الدولة العباسية حكماً استبدادياً، مقروناً بشيء من العطف وحسن التدبير، وتميز بالشجاعة والإقدام، وشدة البأس والمهابة، أولع بالعمارة والزراعة وكرَّس وقته لتشييد القصور وتخطيط الحدائق والبساتين.

وسارت في عهده نهضة العلم والأدب طريقها الذي كانت تسير فيه، كما شهد عهده علىٰ الصعيد الخارجي المزيد من الحروب مع البيزنطيين، وأشهر معاركه فتح عمورية سنة ٢٢٣هـ، والتي خلدها أبو تمام بقصيدته الخالدة، ظل المعتصم في الخلافة إلىٰ أن توفي بسُرَّ مَنْ رَأَىٰ (سامرّاء) في ١٨ ربيع الأول سنة ٢٢٧هـ.

والعجيب أن أباه الرشيد كان أخرجه من الخلافة وولىٰ الأمين والمأمون والمؤتمن، فساق الله الخلافة إلىٰ المعتصم، وجعل الخلفاء إلىٰ آخر خليفة في الدولة العباسية من ولده، ولم يكن من نسل أولئك خليفة .

ومن المفارقات العجيبة أيضاً أنه ولد سنة ثمانين ومائة في الشهر الثامن، وهو ثامن الخلفاء، والثامن من ولد العباس، وعمره كان ثمانياً وأربعين سنة، ومات عن ثمانية بنين وثمان بنات، وملك ثمان سنين وثمانية أشهر(٢).

(٩) ـ وولي بعد المعتصم ابنه هارون بن محمد بن هارون بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الملقب بالواثق بالله (٢٢٧ ـ ٢٣٢هـ/ ٨٤١ ـ ٨٤٦م)، أمه أم ولد يقال لها قراطيس، وكان أبيض إلىٰ الصفرة، حسن الوجه جميل الطلعة جسيماً، في عينه اليمنىٰ نكتة بياض، واشتهر الواثق برجاحة العقل، وبحسن التصرف السياسي في عهد والده مما دفع أباه إلىٰ الاعتماد عليه في أثناء غيابه عن مقر الخلافة، ثم ولاّه عهده.

---

(١) . د. محمد عبد الحفيظ المناصير: الجيش في العصر العباسي الأول ص ٦٩.

(٢) . ابن الأثير : الكامل في التاريخ (٦ / ٥ – ٧٤) ، والطبري: تاريخ الرسل والملوك، (٨/ ٦٦٧) ، (٩/ ١١٩ ـ ١٢٣) ، والسيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٢٤٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أولع الواثق بالعلم والأدب، وكان شاعراً له شعر حسن، وأجزل العطاء للشعراء الذين زخر بهم عصره، وقد أفرد في قصره مجلساً للمناقشات الفكرية مقتدياً، في ذلك، بالمأمون وكان يقال له "المأمون الصغير"، وتميز عهد الواثق بالاستمرار في الاعتماد علىٰ الجنود الأتراك إلىٰ أن توج القائد أشناس سنة ٢٢٨هـ، كما أحسن الواثق إلىٰ بني عمه الطالبيين وبرّهم، وشهد عهده ثورة القبائل العربية خاصة القيسية في دمشق، وبنو سليم في الحجاز حوالي سنة ٢٣٠هـ فتمكن القائد بغا الكبير من القضاء علىٰ حركاتهم .

وتابع الواثق سياسة والده المعتصم وعمه المأمون في القول بخلق القرآن، وثار عليه أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي الذي ضرب الواثق عنقه(١).

"أما سياسة الواثق الخارجية فكان أبرزها فداء عدد كبير من أسرىٰ المسلمين لدىٰ البيزنطيين، وذلك حوالي سنة ٢٣١هـ ، إذ تم الفداء علىٰ نهر اللامس ، قرب طرسوس، واستمر الواثق في خلافته إلىٰ أن توفي(٢) بسامراء ٢٣٢هـ، وبوفاة الواثق بالله يكون قد بدأت نهاية عهد العصر العباسي الأول.

******

الموالي ودورهم السياسي في الدولة العباسية:

كان العرب في الجاهلية أمة بسيطة ساذجة تائهة بين الشعاب والجبال، أمة ليس لها حضارة، وليس لها مطمع في أن يكون لها حضارة، ولا مجرد حلم في أن ترث ملك كسرىٰ ولا قيصر في أي يوم من الأيام، حتىٰ جاء الإسلام واعتنقوه، "وآمنوا بأنه خير الأديان، وأن الناس حولهم في ضلال، وأنهم حماة الإسلام، وحملة الدين القويم، وأن عليهم دعوة الناس كافة، ليتخلوا عن دياناتهم السابقة، ويدخلوا فيه، وكان من بعد ذلك الجهاد، فظفروا بفارس ودكوا عرشها، وانتصروا علىٰ الروم، وهزموا جيشها، واستولوا علىٰ كثير مما في أيديها.

وعلىٰ الجملة فقد رأوا أن سيادة العالم كانت للفرس والروم، فانتقلت فجأة إليهم، وأن هؤلاء الفرس الذين كان العرب بالأمس يخشون بأسهم أصبحوا تحت حكمهم !

---

(١) . جلال الدين السيوطي: تاريخ الخلفاء، تحقيق: حمدي الدمرداش، ط/١ ، مكتبة نزار مصطفى الباز، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م ، ص ٢٤٨.

(٤) . د.محمد عبد الحفيظ المناصير: الجيش في العصر العباسي الأول، ص٧٠.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وهؤلاء الروم الذين كان العرب يتمنون أن يفتحوا لهم باب الشام ومصر ليتاجروا فيها قد هزموا، وفروا أمامهم إلىٰ عقر دارهم، كل هذا رفع من نفسية العرب، وغلا كثير منهم في ذلك فشعروا بأن الدم الذي يجري في عروقهم دم ممتاز، ليس من جنسه دم الفرس والروم وأشباههم، وتملكهم هذا الشعور بالسيادة والعظمة، فنظروا إلىٰ غيرهم من الأمم نظرة السيد إلىٰ المسود، وكان الحكم الأموي مؤسساً علىٰ هذا النظر"(١).

والحق أن العرب في هذا لم يطيعوا الإسلام في تعاليمه ؛ فالله تعالىٰ يقول: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾(٢)، ويقول النبي ﷺ : "لا فضل لعربي علىٰ عجميٍّ إلا بالتقوىٰ"(٣).

ويقول عمر: " لو كان سالم مولىٰ أبي حذيفة حيًّا لوليته"(٤).

كانت هذه تعاليم الإسلام التزم بها المسلمون في صدر الدعوة ثم ظهر التعصب للقبيلة، والتعصب للجنس العربي علىٰ ما عداه من بقية الأجناس في عهد بني أمية؛ ولهذا ظهرت النقائض في الشعر العربي كمظهر من مظاهر العصبية القبلية، وظهر احتقار الموالي.

و(الْمولىٰ) لغةً: الرب وَالْمَالِك، وكل من ولي أمراً أَو قَامَ بِهِ، والمولىٰ: الصاحب، والحليف، والنزيل، وَالْجَار، وَالشَّرِيك، والصهر، والقريب من الْعصبَة كالعم وَابْن الْعم وَنَحْو ذَلِك، والمُنْعِم والمُنْعَم عَلَيْهِ، وَالْمُعْتِق وَالْمُعتَق، وَالْعَبْد وَالتَّابع(٥).

والموالي هم العبيد أو الأسرىٰ الذين اعتنقوا الإسلام فأعتقت رقابهم، " ثم أطلقه بنو أمية علىٰ كل مسلم غير عربي، فإذا قالوا الموالي أرادوا المسلمين من الفرس وغيرهم الذين كانوا مجوساً أو ذميين واعتنقوا الإسلام، أو كان ممن لازم العرب أو التجئوا إليهم ، ويسمونهم الحمراء، فإذا قالوا الحمراء أرادوا الموالي، والحمراء في القاموس العجم، وهم كل من سوىٰ

---

(١) . أحمد أمين: ضحى الإسلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة ، مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٧م، (١/٣٩ . ٤٠).

(٢) . سورة الحجرات / ١٠.

(٣) . رواه أحمد في مسنده ح رقم (٢٣٤٨٩) ، والبيهقي في شعب الإيمان برقم (٤٧٧٤) ، وابن عساكر في معجم الشيوخ برقم (١٠٤٥).

(٤) . ابن جرير الطبري: تاريخ الرسل والملوك ، ط/٢ دار التراث ، بيروت ١٣٨٧هـ ، (٤/٢٢٧)، وابن الأثير : الكامل في التاريخ ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط/ ١ دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٩٧م، (٢/ ٤٤٠) .

(٥) . إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، دار الدعوة (٢/١٠٥٨).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

العرب، وأصبح الموالي في الإسلام طبقة خاصة من طبقات الهيئة الاجتماعية كان لها شأن عظيم في تاريخ الإسلام.

ويمكن اعتبارهم من قبيل العصبية القبلية لقول النبي ﷺ : " إن مولىٰ القوم منهم"(١)، وأهل الرجل عند العرب الموالي والذراري، ويثق الرجل بمولاه كما يثق بابنه، لأنه لم يعتقه إلا حبا فيه ، والمولىٰ يعد عتقه منة لمولاه عليه، فيترك نسبه إلىٰ أهله وينتسب إلىٰ مولاه، فيقال: فلان مولىٰ فلان ولا يقال: ابن فلان، أو ينتسب إلىٰ قبيلته فيقال مثلاً : ابن سريج مولىٰ بني نوفل ، ومحرز مولىٰ عبد الدار، وحكم الوادي مولىٰ الوليد بن عبد الملك، وابن عياد مولىٰ بني مخزوم، وقس عليه، ولذلك كانت رابطة المولىٰ بمولاه وثيقة، وخصوصاً من يعيش من الموالي في بيت مواليهم، ولكن الغالب أن يخرجوا لعمل يعملونه ، حتىٰ إذا انتشبت حرب اجتمعوا تحت لوائهم"(٢).

فطبقة الموالي ـ كما أسلفنا ـ كانت من العجم الذين "يعيشون مع العرب ويخالطونهم، ويرتبطون بهم برابطة الولاء ، وللولاء مظاهر شتىٰ : فقد يكون نتيجة للعتق ؛ إذ ينسب العتيق إلىٰ سيده الذي أعتقه، أو قبيلة من أعتقه، وقد يكون لإسلام أعجمي علىٰ يد عربي يعاهده علىٰ أن يكون مولىٰ له، وقد يكون ثمرة لإسلام الأعجمي مطلقاً ، سواء أكان عبداً لقربىٰ أم لا وسواء أسلم علىٰ يد عربي والاه أم لا، ولهذا سمي الأعاجم مواليا؛ لأن بلادهم فتحت عنوة بأيدي العرب، وكان للعرب استرقاقهم فإذا تركوهم أحراراً فكأنهم أعتقوهم، والموالي هم المعتَقون"(٣).

تملك العرب إذاً ـ بعد الفتوحات العظيمة ـ شعور بالسيادة، وظنوا أن العربي خلق ليسود، وخلق غيره ليخدم، ونظروا إلىٰ العناصر الأخرىٰ نظرة السيد إلىٰ المسود، وتتمثل نظرتهم في قول أحدهم عن الموالي: "يكسحون طرقنا، ويخرزون خفافنا، ويحوكون ثيابنا"(٤).

ولم يحتقروا الموالي لجنسيتهم فقط بل احتقروهم لمهنهم، فالعرب يحترفون السياسة والحرب، بينما يشتغل الموالي بالمهن اليدوية كالزراعة والصناعة(٥).

---

(٦) ـ رواه النسائي في سننه ح (٢٦١٢) ، وأحمد في مسنده (١٨٩٩٢) ، وابن حبان في صحيحه ح (٣٢٩٣) ، وابن زنجويه في الأموال (٨٩١)، وقال الألباني : صحيح.

(١) ـ جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي ، دار الهلال ، القاهرة ، د. ت. (٤/ ٥٨).

(٢) ـ أحمد عبد القادر عقل: صراع الحضارات وأثره في الشعر العربي في العصر العباسي الأول ، رسالة ماجستير بكلية الدراسات العليا بجامعة النجاح الوطنية في نابلس ، فلسطين ٢٠٠٣م، ص١٧.

(٣) ـ ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ط/١ دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٤هـ (٣ /٣٦٢).

(٤) ـ د. عبد العزيز الدوري : العصر العباسي الأول ، مرجع سابق، ص١٠.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بل إنهم إذا أشركوا الموالي معهم في الحروب جعلوهم مشاة في مقدمة الجيش ، ويكون الفرسان من العرب، فهذا المختار الثقفي يقول لإبراهيم بن الأشتر يوم خازر، وهو اليوم الذي قتل فيه عبيد الله بن زياد: "إن عامة جندك هؤلاء الحَمْرَاء (يريد الموالي)، وإن الحرب إن ضرّستهم هربوا، فاحمل العرب علىٰ متون الخيل، وأرجل الحمراء أمامهم"(١).

وروىٰ أبو الفرج الأصفهاني: "أن رجلاً من الموالي خطب بنتاً من أعراب بني سليم، وتزوجها، فركب محمد بن بشير الخارجي إلىٰ المدينة، ووواليها يومئذٍ إبراهيم بن هشام بن إسماعيل، فشكا إليه، فأرسل الوالي إلىٰ المولىٰ، ففرق بين المولىٰ وزوجته، وضربه مائتي سوط، وحلق رأسه ولحيته، وحاجبيه..!

فقال محمد بن بشير:

قَضَيْتَ بسُنَّةٍ وحكمْتَ عَدْلاً ولم ترِثِ الحكومة من بعيدِ

وفيها يقول:

وفي المائتين للمولىٰ نَكَالٌ وفي سلبِ الحواجبِ والخُدُودِ

إذا كافأتهم ببنات كسرىٰ فهل يجدُ الموالي من مَزيدِ؟

فأيُّ الحقِّ أنصَفُ للموالي منِ اصْهار العبيدِ إلىٰ العبيدِ(٢)

وأمر الحجاج أن لا يؤم الكوفة إلا عربي، ولما قبض علىٰ سعيد بن جبير، وكان قد خرج مع ابن الأشعث علىٰ الحجاج، قال له الحجاج: أما قدمت الكوفة وليس يؤمُّ بها إلا عربيّ ، فجعلتك إماماً ؟! قال: بلىٰ ، قال: أفما وليتك القضاء فضج أهل الكوفة، وقالوا لا يصلح القضاء إلا لعربيّ فاستقضيت أبا بردة بن أبي موسىٰ الأشعري، وأمرته ألاّ يقطع أمراً دونك؟! قال: بلىٰ، قال: أو ما جعلتك في سمّاري وكلهم من رؤوس العرب! قال: بلىٰ، قال: أو ما أعطيتك مائة ألف درهم لتفرّقها في أهل الحاجة ثم لم أسألك عن شيء منها! قال: بلىٰ، قال: فما أخرجك عليّ ؟ قال: بيعةٌ

---

(٥) . محمد بن يزيد المبرد: الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط/٣ دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٩٧م (٤٧/٢) .

(٦) . أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني (١٤/ ١٥٠). ، وأحمد أمين : ضحى الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة ، مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٧م، (١/ ٤١ . ٤٢) .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كانت لابن الأشعث في عنقي، فغضب الحجّاج، ثم قال: أفما كانت بيعة أمير المؤمنين بعد الملك في عنقك قبل؟ والله لأقتلنّك، يا حرسيّ، اضرب عنقه(١).

هكذا كانت نظرة الحكام إلىٰ الموالي في عهد بني أمية ، لقد كانت الأوساط السياسية ، وأوساط أشراف القبائل ، وأوساط البدو كانت تحقر الموالي ، لكن الأوساط العلمية والدينية ما كانت تتعصب لجنس ولا دم ، وإنما كانت تتعصب للدين والعلم ، فالعالم يَشْرُفُ بعلمه سواء كان مولىٰ أم عربياً ، ومن سادة التابعين من كانوا موالي ، والناس منحوهم من الإجلال ما منحوا العرب ، لا تفاضل بينهم إلا بالدين، والعلم ، فنجد الزهري، ومسروق بن الأجدع، وشريحاً ، وسعيد بن المسيب ، وقتادة من سادات التابعين وهم من العرب، كما نجد الحسن البصري، ومحمد بن سيرين، وسعيد بن جبير، وعطاء بن يسار، وربيعة الرأي، وابن جريج، من سادة التابعين وهم من الموالي، والناس من عرب وموالي يأخذون عنهم علىٰ السواء، وينتقلون من حلقة أحدهم إلىٰ حلقة الآخر ... ولم يستنكر الناس عمل الحجاج في قتله الآلاف من العرب والموالي كما استنكروا قتل سعيد بن جبير، وهو مولىٰ ، لعلمه ودينه(٢).

وبسبب من سياسة التسلط التي انتهجها بنو أمية ضد الموالي علىٰ اختلاف أجناسهم وقف الموالي مع كل ثورة كانت تخرج علىٰ بني أمية، حتىٰ وجدوا بغيتهم في الدعوة العباسية فأسرعوا في الانضمام إليها ومناصرتها بكل ما يملكون من طاقة رغبة في التخلص من الأمويين المجحفين، وتوقاً إلىٰ مستقبل أفضل وحياة جديدة تجعلهم والعرب سواء .

وبفضلهم نجحت الدعوة وقامت الدولة العباسية "وعلىٰ أثر قيام الدولة العباسية شعر الموالي والأعاجم - وبخاصة الفرس - بعظم الدور الذي لعبوه في إقامة هذه الدولة، وأحسوا بكيانهم وشخصيتهم وقوتهم إذا ما تجمعوا في وجه العرب، وهنا حدث تغير ضخم في ميزان القوىٰ السياسية التي كانت تعمل عملها في القرن الثاني، ذلك أن الموالي لم يعودوا كمًّا مهملاً في الحياة السياسية، ولم يصبحوا مضطرين إلىٰ اصطناع هذا الحزب أو ذاك للتعبير عن رأيهم، بل إنهم شعروا بكيانهم كحزب قوي يمكننا أن نطلق عليه "حزب الموالي" قام إلىٰ جوار الحزب العلوي والعباسي وغيرهما من الأحزاب السياسية التي وجدت في ذلك العصر .

ودليلنا علىٰ قيام هذا الحزب تلك الثورات المتتالية التي قام بها الموالي أنفسهم، بعد أن كانوا من قبل يشاركون في الثورات ضد الدولة فحسب، وكان من أثر قيام هذا الحزب السياسي ظهور حركة الشعوبية التي يتفاخر أصحابها بأصلهم العجمي ويدلون بأمجادهم علىٰ العرب، ولم

---

(١) . المبرد: الكامل في اللغة والأدب، مرجع سابق، (٢ / ٧٣) .

(٢) . أحمد أمين : ضحى الإسلام ، مرجع سابق، (١/ ٤٥ . ٤٦).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

تكن هذه الحركة في حقيقتها غير برنامج الحزب الذي دللنا علىٰ وجوده، وقد تطور هذا البرنامج؛ فبعد أن كان أساسه المطالبة بالتسوية بين العجم والعرب، أصبح تمجيداً للعجم وحضارتهم واحتقاراً للعرب وما كان في حياتهم القديمة من بداوة وسذاجة"(١).

"وكان نجاح الموالي في إقامة الدولة العباسية هو الحافز القوي الذي أوجد هذا الحزب المتكامل العناصر، والذي لم يكن يجرؤ علىٰ الظهور إبان الحكم الأموي، والحقيقة إن العباسيين قد حققوا للموالي كثيراً مما كانوا يتوقون إليه؛ فقد أصبحت سياسة الحكم لا تفرق بين العرب والفرس في خدمة الحكومة، وأصبحت الفرص متكافئة أمام الجميع في الجيش والإدارة علىٰ السواء، وأسندت بالفعل إلىٰ الموالي عدة مناصب هامة في قصر الخليفة وفي الجيش وفي إمارة الولايات الإسلامية .

ولكن هذا التطور الكبير في الحياة السياسية بالنسبة للموالي لم يزدهم إلا اعتزازاً بأنفسهم وشعوراً بقوتهم، وبدأ يغريهم بالعرب ليستلبوا منهم السيادة إلىٰ الأبد، ويسترجعوا سلطانهم القديم، وأحس الخلفاء العباسيون الأولون هذه الثورة في نفوس الأعاجم، وهذه الأماني الجديدة التي بدأت تجيش في نفوسهم، فأدركوا أن حكمهم سوف يتعرض لخطر ماحق من قبل هؤلاء الموالي والأعاجم، وخاصة أن أبا مسلم الخراساني قد اكتسب شعبية هائلة في قومه، وصيتاً بعيد المدىٰ بينهم، كما أن انتصاراته المتلاحقة أدخلت في روع الموالي والأعاجم جميعاً أنه ليس بشراً عادياً ولكن به جزءًا إلهيًّا جعل له هذا التأثير القوي، وحقق له الغلبة علىٰ خصوم كثيرين معاندين، وهذا هو السبب لإقدام المنصور علىٰ قتل أبي مسلم"(٢).

غير أن أتباع أبي مسلم في خراسان غضبوا حين علموا بمصيره، "ولم يلبث أن ظهر بينهم سنباذ، فقادهم معلناً أن أبا مسلم لم يمت، وإنما اختفىٰ وسيعود ليرفع الظلم، وينشر العدل، وتابعه كثيرون مكونين فرقة المُسلمية، أو الخرّمية، وقدم بهم إلىٰ الري فغلب عليها، والتقىٰ به المنصور بن جمهور العجلي في جيش كثيف، فقضىٰ عليه وعلىٰ ثورته، ولكنه لم يقض علىٰ عقيدة فرقته ، فقد أخذت تسري في نفوس كثير من الخراسانيين والإيرانيين مختلطة بالعقائد المزدكية"(٣).

وبعد تولي المهدي مقاليد الخلافة سنة ١٥٨هـ تحركت الخرمية في عهده حركتين، الأولىٰ بقيادة رجل من أهل مرو يدعىٰ حكيم، وهو من أتباع أبي مسلم، أعلن ثورته سنة ١٦١هـ، وقد اتخذ

---

(٣) . د. محمد مصطفة هدارة : اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، ٤٢ . ٤٣.

(١) . المرجع السابق ، ص ٤٣ . ٤٤.

(٢) . د. شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الأول، مرجع سابق، ص ٣٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

لوجهه قناعاً من ذهب ركبه عليه حتىٰ لا يُرىٰ، ولذلك اشتهر باسم المقنع الخراساني، وكان يقول بتناسخ الأرواح، فزعم أنه نبي وأنه التجسد الجديد للذات الإلهية بعد أبي مسلم .

وبايعه خلق عظيم أضلهم واستغواهم حتىٰ كانوا يسجدون إلىٰ ناحيته، ووثب بهم علىٰ بعض ما وراء النهر ، فوجه إليه المهدي القواد وعلىٰ رأسهم سعيد الحَرَسيّ ، فاعتصم منهم بقلعة من أعمال كش علىٰ مقربة من جرجان ، ولما يئس من المقاومة أضرم ناراً عظيمة أحرق بها كل ما في القلعة من دواب وثياب ومتاع وألقىٰ فيها بنفسه وأولاده ونسائه ، وبذلك خمدت حركنه.

أما الحركة الثانية فكانت في سنة ١٦٢هـ إذ ظهرت طائفة من الخرمية بجرجان تسمىٰ المحمِّرة لحمرة راياتها، وكان علىٰ رأسهم شخص يسمىٰ عبد القهار، فقتلوا وأفسدوا وعاثوا في الأرض ، فسار إليه من طبرستان عمر بن العلاء ممدوح بشار، وقتله ودمّر جنده.

ووصل نفوذ الفرس إلىٰ ذروته في عهد الخليفة هارون الرشيد؛ فقد سيطر البرامكة علىٰ كل شئون البلاد سيطرة شبه تامة والسبب في هذا النفوذ أن أسرة البرامكة ترجع في أصولها إلىٰ جدهم الأول برمك المجوسي، وكانت لها مساهمة كبيرة في قيام الدولة العباسية، مما مهد لها الطريق لتدخل البيت العباسي من أوسع أبوابه، فأصبح للبرامكة نفوذ عظيم فيه، وأصبح يحيىٰ بن خالد البرمكي مسئولاً عن تربية هارون الرشيد، أما زوجته فأصبحت مرضعته، فقام يحيىٰ بن خالد، وبتفويض من الرشيد، بأمر الوزارة، أما الفضل بن يحيىٰ بن خالد البرمكي، أخو هارون بالرضاعة، فقد وكل إليه تربية الأمين، الابن الثاني لهارون الرشيد.

لم يكد الأمين يبلغ الخامسة من عمره حتىٰ اجتهدت أمه زبيدة وأخواله في أن تؤول إليه ولاية العهد، لتكون الخلافة له من بعد أبيه، وبالرغم من أن الرشيد كان يتوسم النجابة والرجاحة في "عبد الله المأمون"، ويقول: "إن فيه حزم المنصور، ونسك المهدي، وعزة الهادي، ولو شئت أن أقول الرابعة مني لقلت" فإنه قدَّم محمدا بن زبيدة علىٰ أخيه الأكبر المأمون، مع علمه أن متبع هواه.

ولعل رغبة أمراء البيت لعباسي واجتماعهم علىٰ تولية الأمين كانت وراء نزول الرشيد علىٰ رأيهم، وتحقيق تلك الرغبة التي اجتمعوا عليها، وكانت حجتهم في ذلك أن الأمين هاشمي الأبوين، وأن ذلك لم يجتمع لغيره من خلفاء بني العباس، وكان يؤجج تلك الرغبة كرههم لـ"آل برمك" الذين استأثروا بالرشيد، ونالوا لديه حظوة ومكانة كبيرة.

استدعىٰ الرشيد الأمراء والقواد ورجال الحاشية، وطلب الفقهاء ليُشهدهم علىٰ قراره الخطير الذي عقد عليه العزم، وهو البيعة لابنه الثاني محمد الأمين، كان ذلك في عام ١٧٥هـ / ٧٩١م، وما إن تمت البيعة، حتىٰ ولاّه أبوه في الحال علىٰ بلاد الشام والعراق، وجعل ولايته تحت

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

إدارة مربيه الفضل بن يحيىٰ البرمكي، إلا أن البرامكة شعروا بأنهم أساءوا الاختيار، فبعد أن قوي عود الأمين، وأصبح شاباً يافعاً، بدأت أمه زبيدة بحملة ضد نفوذ البرامكة، وما صاروا إليه في البلاط من سلطان، عندها بدأ البرامكة يعيدون النظر في مسألة ولاية العهد، فاستخدموا نفوذهم، مرة أخرىٰ، واستغلوا قربهم من الرشيد، ومنزلتهم عنده، في إيجاد منافس للأمين وأمه زبيدة، ووجدوا بغيتهم في المأمون الأخ الأكبر ذي الأم الفارسية، واستطاع البرامكة إقناع الرشيد بتغيير عقد البيعة لتصبح للمأمون، كان ذلك في سنة ١٨٢هـ/ ٧٩٨م.

تعاظم نفوذ البرامكة، واحتدم الصراع علىٰ السلطة، فنجح معارضوهم في إقناع الرشيد بخطرهم، بعد أن بينوا له عجزه أمام استبداد البرامكة بالأمر من دونه، اقتنع هارون الرشيد، فقرر التخلص من البرامكة، والقضاء علىٰ نفوذهم، ولم يكن ذلك بالأمر الهين، فقد تغلغل البرامكة في كل أمور الدولة، وصار لهم كثير من الأنصار والأعوان، فاتبع الرشيد سياسة الكتمان، واستخدم عنصر المفاجأة، وفي ليلة السبت أول صفر من عام ١٨٧هـ = ٢٩ من يناير ٨٠٣ م، أمر رجاله بالقبض علىٰ البرامكة جميعاً، وأعلن ألا أمان لمن آواهم، وأخذ أموالهم وصادر دورهم وضياعهم، وفي ساعات قليلة، انتهت أسطورة البرامكة وزالت دولتهم، وتبددت سطوة تلك الأسرة التي انتهت إليها مقاليد الحكم وأمور الخلافة لفترة طويلة من الزمان، فكانت النهاية المأساوية التي اصطلح علىٰ تسميتها في التاريخ بـ«نكبة البرامكة»(١).

كانت هذه النكبة أبلغ رد من الخليفة هارون الرشيد علىٰ ازدياد نفوذ الفرس واستبدادهم بالأمور دونه، يقول ابن خلدون مبيناً سبب هذه النكبة: "وإنّما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم علىٰ الدّولة، واحتجابهم أموال الجباية حتّىٰ كان الرّشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه فغلبوه علىٰ أمره وشاركوه في سلطانه ولم يكن له معهم تصرّف في أمور ملكه فعظمت آثارهم وبعد صيتهم وعمّروا مراتب الدّولة وخططها بالرّؤساء من ولدهم وصنائعهم واحتازوها عمّن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم.

ويقال إنّه كان بدار الرّشيد من ولد يحيىٰ بن خالد خمسة وعشرون رئيسا من بين صاحب سيف، وصاحب قلم ، زاحموا فيها أهل الدّولة بالمناكب ، ودفعوهم عنها بالرّاح لمكان أبيهم يحيىٰ من كفالة هارون وليّ عهد وخليفة حتّىٰ شبّ في حجره، ودرج من عشّه، وغلب علىٰ أمره، وكان يدعوه يا أبت فتوجّه الإيثار من السّلطان إليهم، وعظمت الدّالّة منهم، وانبسط الجاه عندهم، وانصرفت نحوهم الوجوه ، وخضعت لهم الرّقاب، وقصرت عليهم الآمال، وتخطّت إليهم من أقصىٰ التخوم هدايا الملوك وتحف الأمراء، وتسرّبت إلىٰ خزائنهم في سبيل التّزلّف والاستمالة

(١) . طلال عبد الكريم العرب: نكبة البرامكة ، مقال بجريدة القبس الكويتية بتاريخ : ١٧ / ٦ / ٢٠١١م.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

أموال الجباية ، وأفاضوا في رجال الشّيعة وعظماء القرابة العطاء، وطوّقوهم المنن وكسبوا(١) من بيوتات الأشراف المعدم وفكّوا العاني(٢)، ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم، وأسنّوا لعفاتهم(٣) الجوائز والصّلات واستولوا علىٰ القرىٰ والضّياع من الضّواحي والأمصار في سائر الممالك حتّىٰ أسفّوا البطانة وأحقدوا الخاصّة وأغصّوا(٤) أهل الولاية فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد ودبّت إلىٰ مهادهم الوثير من الدّولة عقارب السّعاية حتّىٰ لقد كان بنو قحطبة أخوال جعفر من أعظم السّاعين عليهم"(٥).

وكان لتلك النكبة أكبر الأثر في إثارة شجون القومية الفارسية، فعمدت إلىٰ تشويه صورة الرشيد ووصفه بأبشع الصفات، وتصويره في صورة الحاكم الماجن المستهتر الذي لا همّ له إلا شرب الخمر ومجالسة الجواري، والإغراق في مجالس اللهو والمجون؛ حتىٰ طغت تلك الصورة الظالمة علىٰ ما عُرف عنه من شدة تقواه وحرصه علىٰ الجهاد والحج عامًا بعد عام، وأنه كان يحج ماشيًا ويصلي في كل يوم مائة ركعة.

وبعد موت هارون الرشيد احتدم الصراع من جديد بين العرب والفرس؛ إذ كان العرب يناصرون الأمين، والفرس يناصرون المأمون ابني الخليفة هارون الرشيد.

"كانت أم الأمين عربية هاشمية فهي زبيدة بنت جعفر بن المنصور ، بينما كانت أم المأمون أمَة فارسية تسمىٰ مراجل ، ومازال الحزب العربي ـ فيما يقال ـ يغوي الأمين بخلع أخيه وتولية ابنه موسىٰ ولاية العهد من بعده، حتىٰ استجاب له، وتردّدت المراسلات بينه وبين المأمون وأوشك أن يجيبه إلىٰ ما يريد من خلع نفسه ، ولكن الفضل بن سهل وزيره ردّه عن ذلك ونهض بأمره ، واستمال له الناس ، وضبط الثغور .

ولم يلبث الأمين أن أمر بقطع اسم المأمون من خطبة الجمعة، وصنع المأمون صنيعه بخراسان، وأخذا في إعداد الجيوش، وسارع الأمين فأنفذ علي بن عيسىٰ بن ماهان في جيش جرار لمنازلة المأمون وجنده والتقىٰ به في الري طاهر بن الحسين، فقتله ومزق جيشه تمزيقًا(٦).

---

(٢) . يتعدى فعل كسب بنفسه إلى مفعول ثان، وهو هنا بمعنى: كسب فلانا مالا أي أناله (قاموس) .

(٣) . العاني: الأسير.

(٤) . أسنوا الجوائز: أي أجزلوها، والعفاة جمع عاف، وهو طالب المعروف.

(٥) . ثقال كلمة غص للطعام، واستعملها هنا ابن خلدون للغيظ على التشبيه.

(٦) . عبد الرحمن بن خلدون : مقدمة كتاب ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق : خليل شحادة، ط/٢، دار الفكر ، بيروت ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م، ص٢٢.

(١) . المرجع السابق ، ص ٣٨ . ٣٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وأعلن طاهر بن الحسين خلع الأمين، ونادىٰ بالبيعة للمأمون بالخلافة؛ فأرسل الأمين جيشًا آخر قوامه عشرون ألف مقاتل، وجعل علىٰ رأسه "عبد الرحمن بن جبلة الأبنادي"، لكنه لقي هزيمة منكرة وقُتل الكثير من جنوده، وما لبث أن قُتل.

وأرسل الأمين جيشًا ثالثًا بقيادة "أحمد بن مزيد" علىٰ رأس أربعين ألف مقاتل من عرب العراق، ولكن طاهر بن الحسين استطاع أن يبث جواسيسه داخل ذلك الجيش فأشاعوا الفرقة بين قادته وجنوده حتىٰ اقتتلوا وانسحبوا عائدين قبل أن يلقوا خصومهم.

ولم يستطع الأمين أن يجهز جيشًا آخر لملاقاة أهل خراسان، بعد أن رفض الشاميون السير معه، وانضم عدد كبير من جنوده وأعوانه إلىٰ خصومه، وفر كثير منهم إلىٰ المدائن، وتدخل مكة والمدينة في طاعة المأمون ، ويحاصر قائداه طاهر بن الحسين، وهرثمة بن أعين بغداد لنحو خمسة عشر شهراً ويرميانها بالمجانيق فيكثر فيها الحرق والهدم وتفضي الحياة فيها إلىٰ هول هائل، ولا يجد الأمين أخيراً مفرًّا من الاستسلام ، فيسلم نفسه لأعدائه.

وتم القبض علىٰ الأمين ووضعه في السجن، وفي ليلة (٢٥ من المحرم ١٩٨ هـ = ٢٥ من سبتمبر ٨١٣م) دخل عليه جماعة من الفرس في محبسه، فقتلوه ومثّلوا بجثته، وانتقلت الخلافة إلىٰ أخيه المأمون بعد نحو خمسة أعوام من الصراع المرير والدامي بين الأخوين(١).

ثم جاء المعتصم بعد المأمون فاتجه صوب الترك، وتجنب الفرس ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلا ليبدأ من هنا عهد نفوذ الأتراك.

مما سبق يمكننا القول بأن موقعة "الزاب" الفاصلة في التاريخ سنة ١٣٢هـ لم تكن معركة بين الأمويين والعباسيين، بقدر ما كانت معركة قومية بين العرب والفرس، ورداً عملياً لمعركة القادسية.

ومن ثم قامت الدولة العباسية علىٰ أكتاف الفرس، وظلت حافظة لهم هذا الصنيع، ولهذا أفسحت لهم المجال، وأطلقت أيديهم في تصريف الأمور، "وكان أبو سلمة الخلال (الفارسي)

---

(٢) . انظر : إسماعيل بن كثير الدمشقي: البداية والنهاية ، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة- القاهرة (١٤٢٠ هـ = ١٩٩٩م)، و أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد - مكتبة الخانجي- القاهرة، المكتبة العربية- بغداد، مطبعة السعادة- القاهرة (١٣٤٩هـ = ١٩٣١م)، د. فاروق عمر فوزي: الخليفة المجاهد هارون الرشيد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد (١٤٠٩ هـ = ١٩٨٩م)، د. أحمد الشامي : الدولة الإسلامية في العصر العباسي الأول، مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة (١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦م.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أول وزير في الإسلام، فلما أطاح به السفاح نهض بالأمر من بعده طائفة من الوزراء والحجاب جلهم ـ بل كلهم ـ من نسل الأعاجم .

وإذ كان لهم بصر بشؤون الملك وتدبيره فقد ساسوا البلاد بحكمة وسداد ، وتجلت مواهبهم في شتىٰ الميادين، وكان من الممكن ـ والحال هذه ـ أن يظل لهم الأمر، غير أن مآربهم الخفية في إعادة الكسروية أخذت في الظهور، وبدت للعيان آنـًا بعد آن، مما جعل الخلفاء ـ وقد توجسوا منهم خيفة ـ يأخذونهم أخذ عزيز مقتدر ..؛ فالسفاح كما ذكرنا فتك بأبي سلمة، والمنصور أطاح بأبي مسلم، وبفضلهما خفقت أعلام المسودة علىٰ معاقل الأمويين، والمهدي نكّل بالزنادقة ـ أنصار المجوسية الفارسية ـ والرشيد بعد صبر طويل عصف بالبرامكة وكانوا أحب الناس إليه، وهكذا كانت الخلافة في أزهىٰ عصورها ـ علىٰ الرغم من نفوذ الفرس وفتنهم ـ تبطش حينـًا ، وتعفو أحيانـًا ، وهي لا تبطش إلا عن بينة ، ولا تعفو إلا لحكمة وعن مقدرة ، لهذا عرف العصر العباسي الأول بعصر "السيادة العربية" علىٰ الرغم من تزايد نفوذ الفرس"(١).

*****

الحركات والثورات ضد الدولة العباسية :

١ ـ حركات الخوارج:

يرجع تاريخ الخوارج إلىٰ أيام معركة صفّين بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ؛ حيث خرج جماعة من جيش علي بن أبي طالب عليه مطالبين برفض التحكيم الذي حدث بين الجيشين، ومنادين بأنه لا حكم إلا الله؛ ومن ثم رفضوا البيعة لمعاوية وكذلك البيعة لعلي بن أبي طالب، وأنشئوا حزبـًا معاديـًا للخلافة، فحاربوا الإمام عليـًا بعد أن كانوا قبلاً من أنصاره، ولهم مع الأمويين وقائع مشهورة، وقد كانوا من أشد الأخطار علىٰ دولة بني أمية حتىٰ قهرهم الحجاج بن يوسف، والمهلّب بن أبي صفرة، ورجالهما فضعف أمرهم وتشتتوا في أنحاء مختلفة، ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك إلا في خلافة العباسيين .

وكانت أول ثورة للخوارج في العصر العباسي ثورة خوارج عُمان الإباضيين بقيادة الجُلُنْديّ، وقد جرّد له السفاح جيشـًا جرّاراً بقيادة خازم بن خزيمة، فقضىٰ عليه.

وفي عهد الخليفة أبي جعفر المنصور ثار ملبّد بن حرملة الشيباني بالجزيرة فقضىٰ عليه خازم ابن خزيمة ، وثار الإباضية بتونس وقضىٰ عليهم يزيد بن حاتم المهلبي.

---

(١) . د. محمد نبيه حجاب : بلاغة الكتاب في العصر العباسي ، دراسة تحليلية نقدية لتطور الأساليب، مكتبة الطالب الجامعي رقم ٣١، ط/٢ ١٩٨٦م، ص ٧٥ . ٧٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وفي عهد المهدي ثار بخراسان في طائفة من الخوارج يوسف بن إبراهيم المعروف بالبرم، فتصدّىٰ له يزيد بن مزيد الشيباني، وأسره في جماعة من أصحابه، وبعث بهم جميعاً إلىٰ المهدي ، فأمر بقتلهم وصلبهم.

وفي عهد المأمون خرج مهدي بن علوان الحروري بأرض العراق وباءت ثورته بالفشل، علىٰ نحو ما باءت ثورة بلال الشاري ، ولا نسمع بعد ذلك عن ثورات للخوارج إلا ما كان من ثورة محمد بن عمرو الشيباني بديار ربيعة وقضاء أبي سعيد محمد بن يوسف الثغري عليه.

ويعلق الدكتور شوقي ضيف ـ رحمه الله ـ علىٰ هذه الثورات بقوله: "وعلىٰ هذا النحو كان الخوارج لا يلبثون ـ حين يثورون ـ أن يُقضىٰ عليهم، وفرق بعيد بين ثوراتهم في هذا العصر وثوراتهم في العصر الأموي ، فقد أخذت دعوتهم تضعف ضعفاً شديداً، ولعلها من أجل ذلك لم تترك أثراً واضحاً حينئذٍ في الحياة الأدبية إذ قلما نجد لهم شاعراً معروفاً"(١).

٢ ـ حركات الشيعة:

وهي إما ثورات قام بها آل البيت أنفسهم خروجاً علىٰ الخلافة القائمة، أو حركات هدَّامة مؤسسة علىٰ المبدأ العلوي، وقد بدأت الأولىٰ (ثورات الأئمة) منذ انتزع الأمويون الملك من آل البيت ، ومنها قيام الحسين إلىٰ الكوفة ومقتله في كربلاء، وما تبع ذلك من دعوات وثورات طيلة الحكم الأموي، كثورة المختار في العراق، ثم الثورة الخراسانية، وكانت علوية في أول الأمر ثم تحولت إلىٰ العباسيين.

ولما قام العباسيون وانفردوا بالملك دون العلويين رجع النزاع إلىٰ ما كان عليه بين الشيعة والخلفاء، فتحركت الشيعة حركات عدها العباسيون عصياناً، كخروج النفس الزكية في المدينة أيام المنصور، وهي أول ثورة للزيدية، لكن المنصور كتب إليه كتاباً يعرض عليه فيه الأمان له ولأهله، وأن يعطيه ألف ألف درهم، وينزل علىٰ أي بلد شاء، ولما لم تنجح المفاوضة أرسل المنصور إلىٰ النفس الزكية جيشاً بقيادة ابن أخيه عيسىٰ بن موسىٰ، فالتقىٰ به وبمن معه قرب المدينة، واحتدم القتال فانهزم الناس عن النفس الزكية ، وأحيط به فلم يستسلم ولم يلق السلاح، بل قاتل حتىٰ قتل، وقطع رأسه وحمل إلىٰ المنصور، وكان أخوه إبراهيم قد مضىٰ يدعو له في البصرة وكثرت جموعه فاستولىٰ عليها، وأذعنت له فارس، وعظم خطره، وعاد عيسىٰ بن موسىٰ من الحجاز، فوجهه المنصور إلىٰ إبراهيم فالتقىٰ به وبجموعه عند (باخَمْرا) بالقرب من الكوفة، وسرعان ما دارت علىٰ إبراهيم الدوائر فقتل ولاذت جموعه بالفرار، وأخذ كثير من العلويين فألقي بهم في غياهب السجون.

---

(٢) . د. شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي . العصر العباسي الأول، ص ٣٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

وإذا كان المنصور قضىٰ علىٰ هذه الثورة العنيفة للعلويين في أيامه فإنه لم يقض علىٰ التشيع، بل أخذ يزداد مع الأيام سراً وجهراً، وأخذت فرقه تتكاثر، وأهمها حينئذٍ الزيدية والإمامية، أما الزيدية فكان مقرها البصرة حيث التحمت بالاعتزال، وأما الإمامية فكان مقرها الكوفة، وبذلك ورثت ما كان فيها من تراث شيعي، وقد انقسمت بمرور الزمن إلىٰ فرق كثيرة، أهمها الإسماعيلية والإثنا عشرية.

وفي عصر الهادي خرج الحسين بن علي سليل الحسن بن علي بن أبي طالب، في مكة والحجاز فلقيه ومن معه جيش عباسي بالقرب من مكة في مكان يقال له (فخّ) وقاتل قتالاً عنيفاً حتىٰ قتل، وقتل معه كثيرون من أنصاره، وظلوا في العراء حتىٰ أكلتهم السباع والعقبان.

وفي زمن الرشيد خرج يحيىٰ بن عبد الله في خراسان، فتعقبه الرشيد حتىٰ طلب منه الأمان، فأجابه إلىٰ طلبه وقدم عليه، فدفعه إلىٰ جعفر بن يحيىٰ البرمكي وأمره بحبسه فحبسه ورق له فأطلقه دون إذن من الرشيد مما كان سبباً في نكبته ونكبة أسرته، ووقع يحيىٰ في يد الرشيد ثانية فسجنه حتىٰ مات، واعتقل الرشيد موسىٰ الكاظم بن جعفر الصادق الإمام السابع عند الشيعة الإثنىٰ عشرية ، وظل في السجن إلىٰ وفاته(١).

وفي بدء خلافة المأمون ـ وذلك قبل أن يقدم من خراسان إلىٰ بغداد ـ كثرت حركات الشيعة حتىٰ رأىٰ أن يعهد بالأمر بعده لعلي الرضا بن موسىٰ الكاظم الإمام الثامن في ترتيب الشيعة الإثنىٰ عشرية، وكان مثالاً للتقوىٰ والورع وكان المأمون يبجله ويعظمه، ولكن استياء العباسيين الذين هددوا المأمون بتنحيته وتولية عمه إبراهيم بن المهدي، وموت علي الرضا حالا دون ذلك، ثم كثر خروجهم في الحجاز واليمن والعراق وفارس وتتابعت دعاتهم، ومع أنهم لم يستطيعوا تقويض العرش العباسي إلا أنهم أحدثوا فيه اضطراباً شديداً كان من جملة الأسباب التي أدت إلىٰ انحلال الدولة فيما بعد(٢).

٣ـ حركة بابك الخرّمي (٢٠١هـ ـ ٢٢٢هـ):

هي أخطر حركة دينية في المظهر سياسية في الغاية عرفتها إيران منذ قيام الدولة العباسية، وتتميز عن الحركات السابقة بسعتها وبتنظيم دعايتها، وببراعة القيادة فيها، وبتوحيد خططها وباتصالها السياسي لغير الفرس علىٰ نطاق أوسع، ولكنها في أسسها تشبه الحركات التي سبقتها.

وكان عداء الخرمية للإسلام عداءً سياسياً؛ لأنه الدين الذي أذهب سلطانهم، ونقل الملك إلىٰ العرب، أما نظرتهم الدينية لغيرهم ففيها كثير من التسامح فيذكر البغدادي وجود مساجد للمسلمين في جبالهم.

(١) . د. شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، ط/١٦دار المعارف القاهرة ٢٠٠٤م، ص٢٨ . ٣٠.

(٢) . أنيس المقدسي: أمراء الشعر العربي في العصر العباسي،دار العلم للملايين ، بيروت، ١٩٨٩م، ص٢١ . ٢٢.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وتشير المصادر البيزنطية إلىٰ مفاوضات سرية بين بابك وبين البيزنطيين، ويظهر أنها كانت لضمان المساعدة وقت الضرورة، وفي سنة ٢١٦هـ حاربت فئة كبيرة من أصحاب بابك مع البيزنطيين، ولما هزمت فرقة من أتباع بابك سنة ٢١٨هـ هرب الناجون إلىٰ بلاد الروم، ولما ضاق الحال ببابك في سنيه الأخيرة أقنع إمبراطور البيزنطيين بالهجوم علىٰ الحدود الإسلامية ليخف عنه الضغط، ولما مزقت جيوشه وهرب أراد أن يذهب إلىٰ بلاد الروم،كما أن قسماً من جيشه التجأ إلىٰ الأراضي البيزنطية بعد هزيمته، كل هذا يدل علىٰ وجود علاقة قوية بين بابك والبيزنطيين(١).

كانت بلاد الفرس التي نشأ فيها بابك الخرمي كثيرة المعتقدات والبدع، سواء كان ذلك قبل الإسلام أم بعده، ولذلك ظهرت فيها الطوائف الدينية علىٰ اختلاف أشكالها ، ومنها طائفة الخُرَّمِيَّة التي أسسها مزدك في أيام قُباذ أبي كسرىٰ الأول المعروف بأنوشروان، وقد نشأت من طائفة الخرمية المزدكية طائفة الخرمية البابكية التي تنسب إلىٰ بابك مدّعي الألوهية، وقد عكّر صفو الدولة العباسية أيام المأمون وأخذ أمره يتفاقم إلىٰ أيام المعتصم(٢).

وفي عهد المعتصم تزايد قلق أهل بغداد من بابك الخُرَّمي ، ودخلت أذربيجان تحت حوزته، وأعانه ملك أرمينيّة، وإمبراطور الدولة البيزنطية، فانتشرت جيوشه، وأدخل الرعب في نفوس أهل البلاد الواقعة بين أذربيجان وإيران التي كانت تموج بالمذاهب المتطرفة .

ومن مبادئ الخرمية تحويل الملك من العرب إلىٰ الفرس والمجوس، ومن مبادئهم تأليه البشر، ومبدأ الرجعة التي قال بها غُلاة الشيعة، وكانوا يزعمون "أن الرسل كلهم علىٰ اختلاف شرائعهم وأديانهم يحصلون علىٰ روح واحدة، وأن الوحي لا ينقطع أبداً، وكل ذي دين مصيب عندهم، إذا كان راجي ثواب وخاشي عقاب، ولا يرون تهجينه والتخطي إليه بالمكروه ما لم يرم كيد مِلَّتهم، وخسف مذهبهم، ويعظمون أمر أبي مسلم الخراساني، ويلعنون أبا جعفر علىٰ قتله، ويكثرون الصلاة علىٰ مهدي بن فيروز؛ لأنه من ولد فاطمة بنت أبي مسلم، ولهم أئمة يرجعون إليهم في الأحكام ورسل يدورون بينهم، ويسمونهم (فريشتكان)، ولا يتبركون بشيء تبركهم بالخمور والأشربة، وأصل دينهم القول بالنور والظلمة، ومنهم من يقول بإباحة النساء علىٰ الرضا منهن، وإباحة كل ما يسلتذ النفس وينزع إليه الطبع، ما لم يعد علىٰ أحد بالضرر"(٣).

بدأ بابك حركته سنة ٢٠١هـ واستمر في نجاح مطرد حتىٰ سنة ٢١٨هـ وتمكن في هذه الفترة أن يرد جيوش المأمون وأن يهزم أربعة من قواده، وهم: يحيىٰ بن معاذ، وعيسىٰ بن محمد بن أبي خالد، ورزيق بن صدقة الأزدي، ومحمد بن حميد الطوسي الذي استشهد بعد صراع رهيب مع

---

(٣) . د. عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول ، دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي، ص ١٨٣.

(١) . د. منير سلطان: بديع التراكيب في شعر أبي تمام، ط/٣ منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٩٧م، ص ٥٤.

(٢) . المطهر بن طاهر المقدسي البلخي: البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، (٤/٣٠ . ٣١).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

بابك ، وقد ألهم استشهاد محمد بن حميد الطوسي أبا تمام شعراً من أجمل الشعر، يقول أبو تمام في رثاء محمد بن حميد :

فتىً مات بين الطعن والضرب ميتةً تقوم مقام النصر إذ فاته النصرُ

وما مات حتىٰ مات مضربُ سيفه من الضرب واعتلّت عليه القنا السُّمْرُ

وقد كان فوت الموت سهلاً فرده إليه الحفاظ المُرُّ والخلق الوعرُ

ونفسٌ تعافُ العارَ حتىٰ كأنه هو الكفرُ يوم الروع أو دونه الكفرُ

فأثبت في مستنقع الموت رجله وقال لها من تحت أخْمُصِكِ الحشرُ(١)

وكانت الظروف مواتية لبابك في تلك الفترة، فقد أنهكت قوات العباسيين بالحرب الأهلية، وكانوا مشغولين بالثورات في مصر وسورية والعراق، وبالحرب مع البيزنطيين، فكانت هذه الأوضاع عاملاً أساسيا في نجاح البابكية العسكري، ثم إن اضطراب الوضع في أذربيجان وعدم ولاء الولاة هناك ساعد البابكية؛ فقد خالف حاتم بن هرثمة بأذربيجان عندما سمع بموت أبيه (هرثمة بن أعين) وكاتب بابك والخرمية وهوّن أمر المسلمين عندهم، فشجع بابك علىٰ الإسراع في حركته.

وبمجيء المعتصم دخل النزاع مع البابكية مرحلة جديدة ، إذ هدأت البلاد، وركز الخليفة الجديد، وهو قائد محنك جهوده علىٰ حرب بابك وأرسل الفرقة تلو الأخرىٰ ضده، كما أن العباسيين اكتسبوا بعض الخبرة بأساليب بابك، فلا غرابة أن انعكست الآية؛ ففي سنة ٢١٨هـ تمكن إسحاق بن إبراهيم والي الجبال من تمزيق شمل الخرمية في همذان (مركزهم في تلك المنطقة) ، فقتل قسما منهم وهرب الباقون، فانحصرت ساحة القتال في أذربيجان معقل البابكية الأصلي.

ثم أرسل المعتصم سنة ٢٢٠هـ أعظم قواده الأفشين حيدر بن كاوس ضد بابك واهتم بتقويته وإرسال المؤن بانتظام إليه ... ورتب المعتصم البريد وزاد في كفايته ليتجنب فساد الطريق بالثلج حتىٰ صارت الرسائل تصل من عسكر الأفشين إلىٰ سامراء في أربعة أيام أو أقل، واستعمل الحمام لنقل الأخبار لأول مرة في هذه الحرب، كما كان المعتصم يشرف علىٰ سير المعارك من سامراء ويضع بعض الخطط بنفسه، حتىٰ كان الزحف العام علىٰ مدينة (البذّ) آخر معقل لبابك يوم الخميس ٩ رمضان سنة ٢٢٢هـ وفتحت المدينة ودخلها المسلمون، وجيء ببابك إلىٰ سامراء ،

(٣) . التبريزي: شرح ديوان أبي تمام ، تحقيق : راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٩٤م، ج٢ ص ٢١٨.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

وأنزل قصر الأفشين بالمطيرة ، وركب إليه المعتصم ، ودخل عليه متنكراً، ونظر إليه وتأمله وبابك لا يعرفه، وفي اليوم التالي قتل بابك وصلب(١).

وقد سجل أبو تمام هذه الأحداث في قصيدة يمدح فيها الأفشين ، فيقول:

بذَّ الجِلادُ البَذَّ فهو دفينُ ما إن به إلا الوحوش قطينُ

لم يُقرَ هذا السيفُ هذا الصبر في هيجاء إلا عَزَّ هذا الدينُ

قد كان عُذرةَ مغرب فافتضَّها بالسيف فحلُ المشرق الأفشينُ

ويقول فيها:

لاقاكَ بابكُ وهو يزأرُ فانثنىٰ وزئيره قد عاد وهو أنينُ

لاقىٰ شكائمَ منك معتصِمِيةً أهزلن جنب الكُفر وهو سمينُ

لما رأىٰ عَلَمَيْكَ ولَّىٰ هاربًا ولكفره طرفٌ عليه سَخِينُ(٢)

******

(١) . د.عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول، ص ١٨٤ . ١٨٦باختصار.

(٢) . التبريزي: شرح ديوان أبي تمام، تحقيق: راجي الأسمر ، ط/٢ دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٩٤م، (٢/ ١٦٠ . ١٦٣).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

الفصل الثاني

الحياة الاجتماعية

مكونات المجتمع في العصر العباسي الأول:

كان عصر الخلفاء الراشدين وكذلك عصر بني أمية مسرحًا لتفاعل المؤثرات والعوامل التي ظهرت آثارها واضحة جلية في تكوين المجتمع الإسلامي في العصر العباسي الأول، وأهم هذه العوامل والمؤثرات هجرة العرب من أرضهم بأعداد متزايدة واستقرارهم في مناطق جديدة، وسرعان ما نشأت في القرن الأول مجتمعات جديدة في هذه الأقاليم تتكون من خليط من العرب والأجناس الأصلية، وقد تمثل استقرار العرب في العراق ـ ذلك الإقليم الذي تدفق إليه المهاجرون لخصوبة أرضه وغناه ـ في ظاهرة بناء المدن وتمصير الأمصار، ليبدأ فيها المهاجرون حياة جديدة في بيئة جديدة بعيداً عن الحياة القبلية والبيئة الصحراوية.

وقد أدت سياسة الخليفة عثمان بن عفان ـ الذي اقترح أن ينقل إلىٰ الناس فيئهم حيث أقاموا من بلاد العرب، فلا يقيم في الأمصار إلا من كان له في الإقامة فيها أرب، ما عدا الجند بالطبع، فليس من إقامتهم في الأمصار بد ـ إلىٰ جانب كثرة القطائع من الأراضي التي ليس لها مالك كثرة ملحوظة،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أدىٰ هذان الأمران إلىٰ ظهور طبقة من العرب فاحشة الثراء أقبلت علىٰ شراء الأرض في الأقاليم ؛ لأن أرض الأقاليم أخصب تربة، وأكثر ثمرة، وأيسر استغلالاً من أرض الحجاز، وهكذا وجدت الإقطاعات الكبيرة الضخمة والضياع الواسعة العريضة، وقام فيها العاملون من الرقيق والموالي، فظهرت في الإسلام طبقة جديدة من الناس هي "البلوتقراطية" التي تمتاز ـ إلىٰ أرستقراطيتها التي تأتيها من المولد ـ بكثرة المال وضخامة الثراء وكثرة الأتباع أيضاً(١)، أما بقية عناصر المجتمع فكانت ترجع إلىٰ طبقتين: طبقة البائسين الذين يعملون في الأرض ويقومون علىٰ مرافق هؤلاء السادة ، وطبقة العامة من العرب، وهي الطبقة المتوسطة في هذا المجتمع الجديد(٢).

ويرىٰ أحد الباحثين(٣) أن المجتمع العباسي كان يتكون من مجتمعين : مجتمع الخاصة ، وهو مجتمع الطبقة الحاكمة من كبار موظفي الإدارة المركزية والقواد والقضاة والوزراء والكتاب والحجاب، والمجتمع الثاني هو مجتمع العامة والذي ينقسم بدوره إلىٰ طبقتين :

(١) ـ طبقة وسطىٰ: تشتمل علىٰ فئات من الناس أقل نسبيا في المستوىٰ الاجتماعي من الخاصة ، ومنهم المؤدبون، والوعاظ ، والشعراء ، والمغنون ، والتجار ، والأطباء.

(٢) ـ طبقة العامة: ومنهم الزراع والشطار والعيارون وأرباب الحرف والصناعات والباعة والخدم.

ويتميز مجتمع الخاصة بشيوع الترف والغلو في اصطناع الأبهة ومظاهر الملوكية بحكم التأثر بتقاليد الفرس القديمة والنزوع إلىٰ الرَّفه في الأطعمة والأشربة والأزياء والفرش والآنية والتأنق في الحياة والتماس المتعة في المساكن والمباني بإقامة القصور المنمقة الجدران الموزونة الأبعاد، وغرس الرياض والجنان والركون إلىٰ الدعة، وبمعنىٰ آخر تجاوز ضرورات العيش إلىٰ الرفه والكمالي(٤).

أما مجتمع العامة ، فالطبقة الأولىٰ منه ـ وهي التي سميناها الطبقة الوسطىٰ ـ كانت موضع احترام وتقدير الخاصة والعامة علىٰ السواء، ومنهم المؤدبون الذين تقربوا إلىٰ الخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة بعلمهم وثقافتهم، وكان الخاصة يعهدون إليهم بتأديب أبنائهم.

---

(١) . د. طه حسين: الفتنة الكبرى ، عثمان ، دار المعارف بمصر ١٩٥١م، ص ١٠٣ . ١٠٥.

(٢) د. محمد مصطفى هدارة: اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، ص ٥٣.

(٣) . د. السيد عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب . العصر العباسي الأول، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية . مصر ١٩٩٣م ، ج٣ ص ٢٩٥ . ٣٠٩.

(٤) . عبد الرحمن بن محمد بن خلدون: المقدمة ، طبعة بيروت ١٩٦١م ، ص ٢٩٥.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وكان المؤدبون بوجه عام من الشخصيات المرموقة في المجتمع العباسي، وكانوا يتقاضون رواتب كبيرة تختلف حسب الطبقة التي يشتغلون لديها، كما كانوا يحصلون علىٰ كثير من الهبات والعطايا.

ومن هذه الطبقة الأطباء والجراحون والكحالون والأسنانيون وأطباء النساء والمحاظي وأطباء المجانين، وقد اشتهر في هذا العصر عدد من الأطباء منهم جورجيوس بن جبرائيل الذي خدم المنصور، وكان المنصور يجزل له العطاء، وتألق بختيشوع بن جورجس في عهد الرشيد، وفاق أطباء العرب وعلىٰ رأسهم أبو قريش عيسىٰ، وعبد الله الطيفوري وغيرهما، ومن الأطباء المشهورين في ذلك العصر جبرائيل بن بختيشوع الذي قدرت ثروته التي كونها من خدماته للخلفاء والخاصة بنحو تسعين مليون درهم(١).

ومن هذه الطبقة أيضاً التجار الذين أثروا ثراء فاحشاً لكثرة ما كانت تدره تجارتهم عليهم من الأرباح إلىٰ حد أن بعضهم أقرض إبراهيم بن المهدي مالاً كثيراً عندما وثب علىٰ الخلافة ، وبطبيعة الحال كانوا ينعمون بحياتهم ويعيشون في قصور فخمة، ويقتنون الجواري والإماء، ولهذا أثروا في المجتمع العباسي تأثيراً عميقاً.

أما المغنون والشعراء فكانت لهم منزلة عليا في الدولة العباسية لولوع الخلفاء بمجالس الأدب والطرب، وحفل العصر العباسي الأول كذلك بعدد هائل من الشعراء الكبار الذين ضمنوا شعرهم الكثير من الموضوعات، واستحدثوا في الشعر العربي أغراضاً جديدة في المعاني والموضوعات والأساليب، من أشهرهم: أبو نواس الذي يعكس شعره صورة مجتمع الخاصة والعامة علىٰ السواء ، وبشار بن برد الذي أكثر من شعر الغزل والتشبيب بالنساء، وأبو العتاهية الذي عرف بشاعر الزهد والوعظ، وأبو تمام الذي كان نسيجاً وحده.

أما الطبقة الثانية من مجتمع العامة فكانت تشمل فئات وأخلاطاً غير منظمة من العامة في مقدمتهم أرباب الحرف والصناعات، أما الزراع فكانوا يمثلون السواد الأعظم من سكان القرىٰ، وكان معظم الزراع من الموالي الفرس أو من بقايا الزط أو من العبيد الزنج، وعمدت الدولة العباسية إلىٰ منع الزراع من الهجرة إلىٰ المدن خشية أن تتناقص الأيدي الزراعية العاملة في الريف ، واهتم الخلفاء العباسيون منذ أبي جعفر المنصور بنظام الري فحفروا القنوات وطهروا الترع ، وشجعوا بذلك علىٰ ازدهار الزراعة وتحسين حال الزراع(٢).

---

(١) . انظر: ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، تحقيق د. نزار رضا ، دار مكتبة الحياة بيروت ، ص ٢٠٠ ، وجمال الدين أبو الحسن القفطي: تاريخ الحكماء ، ط. ليبزج ١٩٠٣م، ص ١٤٣.

(٢) . د. السيد عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب . العصر العباسي الأول، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية . مصر ١٩٩٣م ، ج٣ ص ٣١٠ . ٣١٧، باختصار.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

امتزاج العرب بغيرهم من الأجناس الأخرىٰ:

لقد سهل الفتح للعرب "الانتشار والاستقرار في البلاد التي افتتحوها، ولا يعقل أن يحدث ذلك دون امتزاج أو احتكاك قوي بالأمم الأخرىٰ، ففي الشام كان الروم والسريان واليهود، وفي العراق الآراميون والفرس ، وفي مصر الأقباط، وسواهم في سوىٰ ذلك، وقد اتصل العرب بهذه الأمم اتصالاً وثيقاً واختمروا بثقافتهم وحياتهم الاجتماعية، وكان أكثر امتزاجهم بالفرس ، أولاً : لإسراع هؤلاء باعتناق الإسلام، وثانياً: لما كان لهم من التأثير السياسي بعد أن أصبحت بغداد عاصمة الخلافة.

يقول الأستاذ أنيس المقدسي: "وإذا تحريت ذلك من الوجهة اللغوية اتضح لك وجه الامتزاج ؛ فإن أكثر الألفاظ المقتبسة إما يونانية أو فارسية، علىٰ أن اليونانية راجعة بالأكثر إلىٰ حياة اليونان العلمية والفلسفية دلالة علىٰ أن الامتزاج كان علىٰ هذا السبيل، أما الألفاظ الفارسية فمعظمها اجتماعي، وقد تحرينا أكثر من مائة لفظة فارسية الأصل فوجدنا معظمها من باب المأكل والمشرب والملبس والمفرش والملهىٰ ومن الأدوات المنزلية والصناعية، وما إلىٰ ذلك، مما يدل علىٰ شدة تأثرهم بحياة الفرس الاجتماعية(١).

الامتزاج بالزواج:

لعل من أهم العوامل المؤثرة في الحياة الاجتماعية الامتزاج بالزواج وذلك عن طريق الزواج بالكتابيات الفارسيات وغيرهن من الأجناس الأخرىٰ، والامتزاج عن طريق التسرِّي بالجواري والإماء؛ إذ أحل الإسلام للشخص أن يتملك من الإماء والجواري ما شاء، وبينما قيَّد حريته إزاء الحرائر فحرّم عليه أن يتزوج منهن بأكثر من أربع أطلق حريته إزاء الجواري فلم يقيده بعدد منهن، وإن كان قد حرم عليه بيع من يستولدها وردّ إليها حريتها بعد وفاته، وجعل أولاده منها أحراراً منذ ولادتهم .

وكان الرجال بعامة يفضلونهن علىٰ الحرائر؛ ولذلك سببان: (الأول) أن الجمال في كثير من نساء هذه الأمم المفتوحة أوفر، والحسن أتم، قد صقلتهن الحضارة، وجلاهن النعيم، هذا إلىٰ ما حبتهن به طبيعة الإقليم، من بياض البشرة، وصفرة الشعر، وزرقة العيون، ونحو ذلك، (الثاني) ما أشار إليه الجاحظ من أن عادة التزوج بالحرائر كانت تتم غالباً عبر الخاطبة، فقد كانوا لا يرون من يريدون الاقتران بهن من الحرائر، أما الجواري فكن معروضات بدور النخاسة تحت أعينهم، فكانوا يختارونهن حسب مشيئتهم وهواهم، وصور ذلك الجاحظ فقال: " قال بعض من احتج للعلة التي من أجلها صار أكثر الإماء أحظىٰ عند الرجال من أكثر المَهِيرات أن الرجل قبل أن يملك الأمة قد

(١) . أنيس المقدسي: أمراء الشعر العربي في العصر العباسي، ط/١٧ دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٩م، ص٤١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

تأمل كل شيء منها وعرفه ما خلا حظوة الخلوة، فأقدم علىٰ ابتياعها بعد وقوعها بالموافقة، والحرة إنما يُستشار في جمالها النساء، والنساء لا يبصرن من جمال النساء وحاجات الرجال وموافقتهن لا قليلاً ولا كثيراً، والرجال بالنساء أبصر، وإنما تعرف المرأة ظاهر الصفة ، وأما الخصائص التي تقع بموافقة الرجال فإنها لا تعرف ذلك، وقد تحسن المرأة أن تقول كأن أنفها السيف، وكأن عينيها عين غزال، وكأن عنقها إبريق فضة، وكأن ساقها جُمَّارة، وكأن شعرها العناقيد، وكأن أطرافها المداري وما أشبه ذلك، وهناك أسباب أخر بها يكون الحب والبغض"(١).

وكانت هؤلاء الجواري والإماء من أجناس وثقافات وديانات وحضارات مختلفة، فأثَّرن آثاراً واسعة في أبنائهن ومحيطهن، وهي آثار امتدت إلىٰ قصر الخلافة، وعملت فيه عملاً بعيد الغور، فقد كان أكثر الخلفاء من أبنائهن، فالمنصور أمه حبشية، والهادي والرشيد أمهما (الخيزران) رومية، والمأمون أمه (مراجل) فارسية، وكانت أم المعتصم (ماردة) تركية، وكانت أم الواثق رومية وتسمىٰ (قراطيس) .

"وكانت كثيرات منهن يثقَّفن بفنون الآداب ، فكنّ يجمعن إلىٰ جمالهن عذوبة الحديث، فيملأن علىٰ الشعراء وغيرهم قلوبهم وعقولهم، بل كان منهن من يتقنّ نظم الشعر مثل عنان جارية الناطفي، وسكن جارية محمود الوراق، وقد عرض عليه بعض الطاهريين أن يشتريها منه بمائتي ألف درهم فأبىٰ التفريط فيها، لما كانت تسعر به قلبه من الحب المضطرم.

وكان منهن من يضفن إلىٰ ذلك إجادة الغناء فكن فتنة من فتن العصر علىٰ نحو ما كانت دنانير جارية البرامكة، ومتيّم جارية علي بن هشام أحد قواد المأمون، وعريب جارية الأمين والمأمون.

وكان للغناء في الناس لهذا العصر أثر أي أثر، فقد شغلوا به أي شغل ، وكأنه نعيمهم من دنياهم الذي لا يؤثرون سواه لما يبعث في نفوسهم من غبطة وابتهاج."(٢).

من هذا الاختلاط نشأ جيل جديد يحمل صفات حضارية وميزات خاصة، عرف هذا الجيل بجيل المولدين الذي خضع لقوانين الوراثة فكسب من آبائه وأمهاته صفات خاصة مميزة في أجسامهم ، وعقولهم ، وصناعاتهم، وذلك باختلاف أمهاتهم .

يقول الأستاذ/ أحمد أمين في ذلك: " إن شئت فانظر في كتاب الأغاني ، تجد أن أكثر من نبغ من المغنيات في الحجاز ، ثم في العراق، في العصر الأول العباسي من "مولدات المدينة" أو من

---

(١) . الجاحظ: رسائل الجاحظ ، تحقيق : عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٩٦٤م، ج٣ ص ١٥٧ . ١٥٨.

(٢) . د. شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي . العصر العباسي الأول ، ص ٥٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تلاميذهن ـ ومولدات المدينة : نساء نتجن من آباء عرب ، وأمهات من غير العرب ـ أو شئت فانظر إلىٰ كثير من العلماء والأدباء ، وتحرّ أجناس آبائهم، وأمهاتهم، تجدهم من المولدين...".

"وكما كان هناك توليد بين الأجسام، كان هناك توليد عقلي، فعقول الناس من الأمم المختلفة كان يتناوبها اللقاح، فالفارسي يحمل عقلاً فارسيا ثم يعتنق الإسلام ، ويتعلم اللغة العربية، فينشأ مزيج من العقلين تتولد منه أفكار جديدة ، ومعان جديدة ، واليوناني النصراني أو الرومي النصراني أو العراقي اليهودي يخالط العربي المسلم ويتبادلان الرأي والقصص والفكرة فينشأ من ذلك فكر جديد، وهكذا، ومن ثم كان الأدب العربي بمعناه الواسع الذي يشمل كل ثقافة ليس في الحقيقة أدبـًا عربيـًا، وإنما هو مزيج طبع بالطابع العربي الإسلامي فسمي أدبـًا عربيـًا"(١).

مظاهر الترف في العصر العباسي الأول:

لما فتح العرب العراق وإيران والشام ومصر، ورثوا ما في الأولىٰ والثانية من الحضارات الساسانية والكلدانية والآرامية وما في الثالثة والرابعة من حضارات بيزنطية وسامية قديمة ومصرية، وأخذوا يكونون من ذلك ومن تراثهم العربي الخالص حضارتهم الإسلامية، وكان طبيعيا أن تغلب علىٰ الأمويين بدمشق الحضارة البيزنطية، وما كان بالشام من عناصر سامية حضارية، حتىٰ إذا نقل العباسيون حاضرة الخلافة إلىٰ العراق غلبت عليهم الحضارة الساسانية وما كان به من عناصر كلدانية وآرامية، وهي تبدو واضحة في بناء بغداد إذ أقامها المنصور مستديرة علىٰ شاكلة طيسيفون المعروفة باسم المدائن حاضرة الساسانيين، وابتنىٰ فيها قصره المعروف بقصر الذهب علىٰ طراز قصورهم ذات الأواوين الفخمة (٢).

ولعلنا نستطيع القول بأن تأسيس بغداد كان نقلة جديدة لتطور المجتمع الإسلامي وإغراقه في الحضارة ومظاهرها المادية، وانغماسه أكثر فأكثر في أساليب الحياة الأجنبية عنه، تلك التي كانت تحياها الشعوب المتحضرة المغلوبة علىٰ أمرها، وحتىٰ تخطيط بغداد يظهر فيه الأثر الفارسي؛ "إذ فصل الخليفة عن الرعية ، وجعل له مقامـًا ساميـًا يصعب الوصول إليه، كما أن ضخامة القصر والإيوان تظهر روعة الملك، وفكرة استدارة المدينة وحصر بيوت السكان في أحياء منفصلة يمكن غلقها ليلاً وحراستها بصورة دقيقة يشير إلىٰ السلطة المطلقة المقتبسة من الفرس والتي تتعارض مع أرستقراطية العرب الأمويين، ومع الديمقراطية الإسلامية علىٰ حد سواء"(٣).

---

(١). أحمد أمين: ضحى الإسلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة ١٩٩٧م، ج١ ص ٣١ ، ٣٢.

(٢). د. شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي ـ العصر العباسي الأول، ص ٤٤.

(٣). د. عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول، ص ٧٧.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقد شاع في العصر العباسي التأنق في الفنون الحضرية، ويدخل تحتها تشييد المنازل، ونسج الثياب والمفروشات، وطهو الطعام، وبناء المراكب، وصنع الآلات الموسيقية، وما إلىٰ ذلك من أسباب الحضارة، وقد بلغت البلدان الإسلامية من ذلك في العصر العباسي مبلغاً عظيماً.

وصف إيوان قصر الأمين:

ذكر ابن المعتز أن الخليفة محمد الأمين بني له مجلس "لم تر العرب والعجم مثله، قد صور فيه كل التصاوير، وذُهِّب سقفه وحيطانه وأبوابه، وعُلِّقت علىٰ أبوابه ستور معصفرة مذهَّبة، وفرش بمثل ذلك الفرش، فلما فرغ من جميع أسبابه وعرف ذلك، اختار له يوماً، وتقدم بأن يؤمر الندماء والشعراء بالحضور غدوة ذلك اليوم ليصطحبوا معه فيه، فلم يتخلف أحد، وكان فيمن حضر أبو نواس، فدخلوا فرأوا أسا لم يروا مثله قط ولم يسمعوا به، من إيوان مشرف فائح فاسح، يسافر فيه البصر، وجعل كالبيضة بياضاً، ثم ذُهِّب بالإبريز المخالف بينه باللازورد، ذي أبواب عظام ، ومصاريع غلاظ، تتلألأ فيها مسامير الذهب، قد قمعت رءوسها بالجوهر النفيس، وقد فرش بفرش كأنها صبغ الدم، منقش بتصاوير الذهب وتماثيل العقبان، ونضد فيه العنبر الأشهب والكافور المصعد، وعجين المسك وصنوف الفاكهة ، والشمامات والتزايين، فدعوا وأثنوا عليه، وأخذوا مجالسهم علىٰ مراتبهم عنده، ومنزلتهم منه، ثم أقبل عليهم فقال: إني أحببت أن أفرغ متعة هذا المجلس معكم، وأصطبح فيه بكم، وقد ترون حسنه، فلا تنغصوني ذلك بالتكلف، ولا تكدروا سروري بالتحفظ، ولكن انبسطوا وتحدثوا وتبذلوا، فما العيش إلا في ذلك، فقالوا: يا أمير المؤمنين، بالطائر الميمون والكوكب السعدي والجد الصاعد والأمر العالي والظفر والفوز، ووفقت يا أمير المؤمنين، وفقت ولم تزل موفقاً، ثم لما طعموا أتي بالشراب كأنه الزعفران، أصفي من وصال المعشوق، وأطيب ريحاً من نسيم المحبوب، وقام سقاة كالبدور، بكئوس كالنجوم، فطافوا عليهم وعملت الستائر بمزاهرها فشربوا معه من صدر نهارهم إلىٰ آخره، في مذاكرة كقطع الرياض، ونشيد كالدر المفصل بالعقبان، وسماع يحيي النفوس ويزيد الأعمار، فلما كان آخر النهار دعا بعشرة آلاف دينار في صواني، فأمر فنثرت عليهم فانتهبوها، والشراب بعد يدور عليهم بالكبير والصغير، من الصرف والممزوج، وليس يمنع أحد منهم مما يريد، ولا يكره علىٰ ما يأباه، وكان جيد الشراب، فصبروا معه إلىٰ أن سكر فنام، ونام جميع من في المجلس عند ذلك إلا أبا نواس فإنه ثبت مكانه فشرب وحده، فلما كان السحر دنا من محمد فقال: يا أمير المؤمنين، قال: لبيك يا خير النداميٰ، فقال أبو نواس: يا سيد العالمين، أما ترىٰ رقة هذا النسيم، وطيب هذه الشمال، وبرد هذا السحر، وصحة هذا الهواء المعتدل والجو الصافي، وبهيج هذه الأنوار؟ فلما سمع محمد وصفه استوىٰ جالساً وقال: يا أبا نواس، ما بي للشرب موضع، ولا للسهر مكان، وقد بسطتني بمنثور وصفك فنشطني بمنظومة للشرب، فأنشأ يقول:

نبه نديمك قد نعس يسقيك كأساً في الغلس

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

صرفاً كأن شعاعها في كف شاربها قبس
تذر الفتىٰ وكأنما بلسانه منها خرس
يدعىٰ فيرفع رأسه فإذا استقل به نكس
يسقيكها ذو قرطق يلهي ويؤذي من حبس
خنث الجفون كأنه ظبي الرياض إذا نعس
أضحىٰ الإمام محمد للدين نوراً يقتبس
ورث الخلافة خمسة وبخير سادسهم سدس
تبكي البدور لضحكه والسيف يضحك إن عبس(١)

فارتاح المخلوع ودعا بالشراب فشرب معه(٢).

اللهو والمجون:

إن تطور المجتمع في منتصف القرن الثاني بعد قيام الدولة العباسية وإغراقه في مظاهر الحياة المادية يمكن أن يتصور في حياة الخلفاء العباسيين أنفسهم، فالأمين حين ولي الخلافة لم يكن هناك توازن في الحياة الاجتماعية كما كان الأمر في عهد الرشيد ، ولكن صارت الحياة إغراقاً في اللهو وانحرافاً عن كل شعائر الدين، لقد وجه الأمين إلىٰ جميع البلدان في طلب الملهين وضمهم إليه، وأجرىٰ لهم الأرزاق، ونافس في ابتياع فره الدواب، وأمر ببناء ميدان حول قصر أبي جعفر في بغداد للصوالجة واللعب، كما أمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلوته ولهوه ولعبه، في شتىٰ القصور التي يملكها، وكان يعيش للخمر المسكرة يشربها أرطالاً، وكأنما كان في قلبه جذوة من الغرام بها لا سبيل إلىٰ إطفائها إلا بشرابها متتابعاً، حتىٰ ليصل أحياناً مساءه بصباحه .

ومن الحق لو أن العصر العباسي لم يقبل ويقبل معه الخراسانيون من الشرق لما اتسعت موجة المجون، ولانحصرت في حيز ضيق، فقد أحسّ الفرس أن الحياة واتتهم وأخذوا يعبّون كئوس الخمر مترعة، وتهالك الشعراء عليها من حولهم حتىٰ أصبحت من أهم الموضوعات الجديدة في الشعر العباسي ، واشتهر فيها غير شاعر بخمرياته، علىٰ نحو ما هو معروف عن أبي نواس.

(١) . ديوان أبي نواس ، ط/ دار صادر ، بيروت ، د. ت. ص ٣٨٣.

(٢) . عبد الله بن المعتز: طبقات الشعراء، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، ط/٣ دار المعارف، ص ٢٠٩ . ٢١١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقد تفنن الشعراء في وصف الخمر ونشوتها وآثارها في الجسد والعقل، ووصف دنانها وكئوسها ومجالسها وندمائها وسقاتها، وكانوا عادة من النصارىٰ والمجوس واليهود، وكانوا يزينون رءوسهم بأكاليل الزهر كما يزينون قاعة الشراب بالرياحين، وفي ذلك يقول أبو نواس:

ودار ندامىٰ عطّلوها وأدلجوا بها أثرٌ منهم جديدٌ ودارسُ
مساحب من جرِّ الزِّقاق علىٰ الثرىٰ وأضغاث ريحانٍ جنيٌّ ويابسُ
حبستُ بها صحبي فجدَّدت عهدهم وإني علىٰ أمثال تلك لحابسُ
أقمنا بها يوماً ويوماً وثالثاً ويوماً له يومُ الترحُّل خامسُ
تُدارُ علينا الراحُ في عسجديَّة حبتها بألوان التصاوير فارسُ
قرارتها كسرىٰ وفي جنباتها مهىً تَدَّريها بالقِسِيِّ الفوارسُ
فللخمر ما زُرَّت عليه جيوبُها وللماء ما دارت عليه القلانسُ(١)

الشعوبية والزندقة:

بدأت الحركة الشعوبية في الفترة الأموية الأخيرة، واندفعت بقوة في العصر العباسي، وهي تمثل جانباً من محاولات شعوب غير عربية لضرب السلطان العربي عن طريق الفكر والعقيدة، فهي في اندفاعها تنكشف عن صراع ثقافي ديني واسع.

ولما كان سلطان العرب يستند إلىٰ الإسلام إذ إنه قام به واستقام به، فإن بعض الجماعات الخاضعة للسلطان العربي تدرجت في اندفاعها إلىٰ مهاجمة الإسلام بعدئذ، وقد ظهرت الحركة في بدايتها في إطار الإسلام، وبدت وكأنها تحمل روحاً إسلامية، حين دعت إلىٰ مساواة الشعوب الأخرىٰ بالعرب في الإدارة والمجتمع، استنادا إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(٢).

إلا أن هذه الحركة انكشفت أهدافها الحقيقية في العصر العباسي(٣).

تعريف الشعوبية:

جاء في المعجم الوسيط: "(الشعوبية) نَزعَة فِي الْعَصْر العباسي تنكر تَفْضِيل الْعَرَب علىٰ غَيرهم وتحاول الْحَط مِنْهُم وَأَصْحَاب هَذِه النزعة الْوَاحِد شعوبي(١).

---

(١). ديوان أبي نواس، دار صادر، بيروت، د. ت. ص ٣٦١.

(٢). سورة الحجرات / ١٣.

(٣). د. عبد العزيز الدوري: الجذور التاريخية للشعوبية، دار الطليعة، بيروت، ط/٣ ١٩٨١م، ص ٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقال القرطبي في تعريف الشعوبية: هي حركة «تبغض العرب وتفضل العجم»(٢)، وقال الزمخشري في أساس البلاغة: «وهم الذين يصغرون شأن العرب ولا يرون لهم فضلاً علىٰ غيرهم»(٣).

تاريخ الشعوبية:

بدأ الإسلام ينتشر وتتسع رقعته علىٰ يد العرب حتىٰ دخلت بلاد فارس في هذا الدين الذي أعلن مبدأ المساواة بين البشر، فلا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوىٰ، وهدأت بفضل الإسلام تلك النعرات القبلية بين العرب، وتعامل المسلمون العرب مع مواليهم من الجنسيات الأخرىٰ من منطلق الأخوة في الدين، وهكذا أصبح المؤمنون إخوة متحابين طوال عهد الرسول والخلفاء الراشدين من بعده، حتىٰ جاء العصر الأموي ذلك العصر الذي نشطت فيه النعرات القبلية من جديد، ورأينا خلاله النقائض الشعرية تستعر بين الشعراء الذين يفتخرون بأمجاد قبائلهم ويهجون القبائل الأخرىٰ التي ينتمي إليها غيرهم من الشعراء،كما أن الأمويين انحرفوا عن جادة الدين في معاملة الموالي، فانتهجوا سياسة تمييز العنصر العربي علىٰ غيره من العناصر الأخرىٰ، فاعتمدوا في فتوحاتهم وتوسعاتهم علىٰ سيوف العرب، واستبعدوا الأجناس الأخرىٰ من الجيش والوظائف ، وأرهقوا الموالي بكثرة الضرائب ـ باستثناء فترة حكم الخليفة عمر بن عبد العزيز وهي فترة قصيرة ـ فكانت هذه المعاملة القائمة علىٰ الإجحاف والازدراء سبباً في إثارة ضغائنهم علىٰ العرب، لاسيما الأمويين، فشاركوا الخوارج والشيعة في الثورة عليهم حتىٰ استطاعوا أن يقضوا علىٰ الدولة الأموية، ويعينوا علىٰ قيام الدولة العباسية التي دانت لهم بهذا الفضل فجعلوا ينفذون إلىٰ المناصب العليا في الدولة العباسية بحيث كان منهم أكثر القواد وأكثر الولاة ، وخاصة حين استولىٰ علىٰ أزمة الحكم البرامكة في عهد الرشيد، وبنو سهل في عهد المأمون.

" وكان هذا التحول الخطير في مقاليد الحكم ، وما أصبح للفرس من مكانة رفيعة في المجتمع العباسي سبباً في بروز نزعة الشعوبية نسبة إلىٰ الشعوب الأعجمية، وهي نزعة كانت تقوم علىٰ مفاخرة تلك الشعوب – وفي مقدمتها الشعب الفارسي – للعرب مفاخرة تستمد من حضارتهم، وما كان العرب فيه من بداوة وحياة خشنة غليظة، ... فتنقّصوا قدرهم، وصغّروا شأنهم، وكانوا طوائف مختلفة فمنهم رجال السياسة الذين يريدون أن يستأثروا دون العرب بالحكم والسلطان، ومنهم قوميون كانوا يستشعرون مشاعر قوميتهم ضد العرب الذين اجتاحوا ديارهم،

---

(١) . مجمع اللغة العربية بالقاهرة: المعجم الوسيط، دار الدعوة، (١/٤٨٤).

(٢) . القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، تحقيق : أحمد البر دوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ١٩٦٤ م، (١١/ ١٨٩).

(٣) . الزمخشري: أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٨ م، (١/ ٥٠٩).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقوّضوا دولهم، وهي مشاعر مازالت تحتدم في نفوس الفرس حتىٰ أحيوا لغتهم ودولتهم فيما بعد، ومنهم مجّان خلعاء أعجبتهم الحضارات الأجنبية وما اقترن بها من خمر ومجون واستمتاع بالحياة، وأشد من كل هؤلاء عنفاً وغيظاً من العرب الملاحدة الزنادقة الذين كانوا يبغضون الدين الحنيف، وكل ما اتصل به من عرب وعروبة، وفيهم يقول الجاحظ: " إن عامة من ارتاب بالإسلام إنما كان أول ذلك رأي الشعوبية والتمادي فيه وطول الجدال المؤدي إلىٰ الضلال، فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة وإذا أبغض تلك الجزيرة أحب من أبغض تلك الجزيرة، فلا تزال الحالات تنتقل به حتىٰ ينسلخ من الإسلام، إذ كانت العرب هي التي جاءت به، وهي السلف والقدوة"(١).

ومن هنا بدأ للشعوبية معنىٰ جديد في التاريخ يرمىٰ إلىٰ التعصب لغير العرب، واعتبارهم بتاريخهم العظيم أسمىٰ من العرب، وقاد يهود فارس هذا الاتجاه، يقول الباحث الفارسي ناصر بوربيرار: «كل الحركة الشعوبية هي من صنع اليهود، وقد صنعتها بقايا الساسانيين الذين هربوا إلىٰ خراسان بعد هزيمتهم أمام جيوش المسلمين، فالشعوبية لم تظهر من كل أنحاء إيران بل من منطقة واحدة هي خراسان، وهو المكان الذي يظهر فيه بنو العباس لمحاربة بني أمية» حيث يشير إلىٰ أن للمستوطنات اليهودية في تلك المنطقة نفوذاً قوياً، حيث كان لليهود دوراً كبيراً في تحريض الفرس ضد العرب عن طريق الشعوبية، ولذلك اختار العباسيون منطقة خراسان الكبرىٰ لتكون بداية ثورتهم (بقيادة أبي مسلم الخراساني) رغم أن هناك مسافة أكثر من ألفي كيلومتر تفصل خراسان عن الشام.

لقد كان العصر العباسي في مطلعه خاصة فترة رفع فيها الغطاء، وتكشفت الميول والاتجاهات التي كانت مستترة أو مكبوتة لتندفع بعنف وتطرف، وهذا طبيعي في الفترات التي تعقب الثورات، ووجدت الجماعات الشعوبية فرصتها حين اعتقدت أن الصرح العربي قد انهار تحت ضربات قوات أعجمية من الخراسانيين، بالدرجة الأولىٰ، كما أن العباسيين أرادوا إظهار المساواة الاجتماعية والسياسية بين شعوب الخلافة، وأرادوا تألف الشعوب غير العربية وخاصة الفرس، وسعوا لتكوين دولة إسلامية تتعاون فيها الشعوب المختلفة ، فأفسحوا المجال واسعاً أمامها لتظهر نشاطها، فكرياً وغير فكري، ويبدو أن العباسيين شجعوا الجماعات التي كانت تتظاهر بالدعوة إلىٰ المساواة ، وبينها مجموعات من غير العرب، تبين بوضوح أنها شعوبية النزعة.

وساعد علىٰ ذلك أن الدولة العباسية قامت بسيوف فارسية، وأن مفكري الفرس اهتموا بالتفوق في مجالات الأدب والشعر والتفسير والفكر، وذلك ضمن لهم التفوق في المجال السياسي

---

(١) . الجاحظ: الحيوان (٧/٢٢٠)، عن: د. شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، ص ٧٥ . ٧٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

والفكري، فأصبح الخلفاء يعترفون بفضلهم، وأصبح منهم العديد من الوزراء والأدباء والسفراء والمفسرين والمؤرخين.

وبدؤوا بحاضرهم وماضيهم يَعّدُون أنفسهم أسمىٰ من العرب، وهذا هو المعنىٰ الذي آل إليه معنىٰ الشعوبية فأصبح للشعوبية معنىٰ مزدوج هو الحطُّ من الجنس العربي، والنيل من الدين الإسلامي، ووسيلتها لذلك التعصب لرفع شأن غير العرب وبخاصة الفرس والتفاخر بأمجادهم، ورقىٰ حضارتهم، وما يتبع ذلك من تصغير شأن العرب والهجوم عليهم، ووصفهم بأحقر الأوصاف.

انتشار الشعوبية:

في بداية الأمر انتشرت الشعوبية بين المسلمين الفرس لأنهم أول من دخل الإسلام من غير العرب ثم ظهر شعوبيون هنود ثم أتراك ثم مولدي الأندلس (الأسبان المستعربون).

كانت النزعة الشعوبية واسعة وقوية بين الفرس لعدة أسباب منها: أنه في عصر الفتوحات الإسلامية كان الفرس أكثر تحضراً من العرب، وأكثر مدنية، فنمىٰ لديهم شعور بالاستعلاء يعمق نزعة التعصب لديهم بعد أن قام المسلمون ممثلون بالعرب بالسيطرة علىٰ بلادهم، كما أن الفرس قد دخلوا الإسلام بأعداد هائلة فتشكلت منهم أكثرية عددية بين الموالي الذين اضطهدهم الأمويون.

لقد كانت بداية الشعوبية والزنادقة بداية سرية في عهد الأمويين، ولم يظهر نشاطهم علىٰ أرض الواقع بصورة ملحوظة إلا في أيام المهدي، غير أن المعلومات عن الجيل الأول من هؤلاء تشير إلىٰ وجودهم منذ زمن المنصور، بل إن بعضهم من المخضرمين الذين عاشوا في أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي من أمثال: عمارة بن حمزة، وخلف الأحمر، ومطيع بن إياس، وابن المقفع ، كما أن طلائع النزعات الفارسية في العصر الأموي تتمثل في شعوبي كإسماعيل بن يسار، وفي زنديق كالجعد بن درهم.

فإسماعيل بن يسار من أوائل من أعلن شعوبيته في الفترة الأموية الأخيرة، حيث تظاهر بالولاء للزبيريين حين خرجوا علىٰ الأمويين، ثم يتقرب من هؤلاء ويدّعي المروانية، ويتظاهر بها، ثم يدعي أنه شاعر مضحك زيادة في التستر، ثم تنكشف شعوبيته حين ينظم مفتخراً بالفرس ، ويقول:

رب خالٍ متوّجٍ لي وعم ماجد مجتدىٰ كريم النصاب

إنما سمي الفوارس بالفر س مضاهاة رفعة الأنساب

فاتركي الفخر يا أمامُ علينا واتركي الجور وانطقي بالصواب

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

واسألي إن جهلتِ عنا وعنكم كيف كنا في سالف الأحقاب

إذ نربي بناتنا وتدسّون سفاهاً بناتكم في التراب(١)

ثم أعلن بجلاء عن نزعته الشعوبية في قصيدة أنشدها أمام هشام بن عبد الملك يفخر فيها بالعجم جاء فيها:

من مثل كسرىٰ وسابور الجنود معاً والهرمزان لفخر أو لتعظيم

أسد الكتائب يوم الروع إن زحفوا وهم أذلوا ملوك الترك والروم

يمشون في حلق الماذيّ سابغة مشي الضراغمة الأسد اللهاميم

هناك إن تسألي تنبي بأن لنا جرثومة قهرت عز الجراثيم(٢)

وقد أدت هذه النزعة إلىٰ التنكر له ومطاردته، جاء في تاريخ دمشق : " وكان ابن يسار مبتلىٰ بالعصبية للعجم والفخر بهم ، فكان لا يزال مضروباً محروماً مطروداً"(٣).

أما الجعد بن درهم فكان علىٰ صلة بالأمويين يؤدب مروان بن محمد ثم تظهر زندقته وتنكشف وجهته المضادة للإسلام فيلقىٰ حتفه(٤).

وقد تحدث كثير من الباحثين عن الأسباب التي أدت إلىٰ ظهور الشعوبية فرأىٰ بعضهم أن ذلك يرجع إلىٰ نظرة الإجحاف والاستعلاء التي نظر بها العرب إليهم إبان العصر الأموي ، وإقصائهم من الوظائف، وإرهاقهم بالضرائب، غير أن هناك باحثين آخرين وجدوا أن هذه الأسباب غير حقيقية أو بالأحرىٰ ليست الأسباب الرئيسة وراء ظهور الشعوبية أو الزندقة بدليل أن الموالي في عهد الأمويين تقلد كثير منهم المناصب والوظائف في الدواوين وغيرها، وكان منهم القضاة كسعيد بن جبير، وقواد الجيش كطارق بن زياد، ومقاتل بن حيان النبطي، وكان منهم الأمراء كيزيد بن أبي مسلم أمير إفريقيا، أما من الناحية الاجتماعية ونعني بها ناحية التزوج فإن كثيراً من العرب ولدوا لأمهات أعجميات، بل إن اثنين من الخلفاء الأمويين المتأخرين ـ أحدهما مروان الثاني ـ كانا من أبناء الأعجميات، أما بخصوص الضرائب فإن الأمويين لم يتجاوزوا الضرائب المعروفة الموروثة كهدايا النوروز والمهرجان، والضرائب علىٰ الصناعات والحرف، وهي ضرائب مألوفة

---

(١) . ابن عساكر: تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م، (٧١ / ٣٢٥).

(٢) . ابن عساكر: تاريخ دمشق ، (٧١/ ٣٣٤).

(٣) . نفس المصدر ونفس الصفحة.

(٤) . د. عبد العزيز الدوري: الجذور التاريخية للشعوبية ، ص ٢٤ . ٢٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

من قبل، أما من ناحية التميز والاحتقار للموالي من قبل العرب ففيه نظر لأن الموالي لم يكونوا علىٰ درجة واحدة ، فهناك كتاب الدواوين وهؤلاء يتمتعون بمنزلة اجتماعية حسنة ، وهناك التجار من الموالي ولهم مكانة طيبة في المجتمع ولديهم من النفوذ والتأثير الشيء الكثير(١).

ولو صح أن الموالي كانوا يضجون في الدولة الأموية من الظلم الشديد والإجحاف ، وأنهم كانوا يبغون المساواة والعدل لوجب أن يتلاشىٰ هذا التذمر وينتهي بعد قيام الدولة العباسية ، فقد أنصفتهم وسوّت بينهم وبين العرب ، وفتحت لهم الأبواب إلىٰ الإدارة والوزارة والجيش ، ولكن العكس هو الذي حدث ، فقد زاد شعورهم القومي وعداؤهم للعرب ، حتىٰ أخذوا يجهرون به بعد أن كانوا يكتمونه في العصر الأموي.

يقول الدكتور أحمد أمين: " يمكننا أن نستنتج من دراستنا للشعوبية النتائج الآتية:

(١) ـ أن دعاة الشعوبية بدءوا دعوتهم مستندين علىٰ تعاليم الإسلام نفسه ، فهو لا يفضل شعباً علىٰ شعب، والعقوبة أو المثوبة عنده إنما وضعت علىٰ الأعمال لا علىٰ الأجناس ، وقد يكون العبد الرقيق ، والنبطي الذليل، عند الله في أعلىٰ عليين، وسيده المكاثر بأهله وولده وماله في أسفل سافلين، ثم تدرجوا من ذلك إلىٰ تحقير العرب وشئونهم ، وبيان ميزة الأمم الأخرىٰ عليهم ، وساعدهم علىٰ ذلك ما كان للفرس من نفوذ ظاهر في الدولة العباسية.

(٢) ـ أن الشعوبية لم تكن عقيدة محدودة التعاليم، لها شعائر ظاهرة معينة بل هي نزعة أكثر منها عقيدة ؛ لذلك لا نستطيع أن نحصر معتنقيها ؛ فهم في كل بلد ، وفي كل قطر ، وفي كل جنس.

(٣) ـ مما ساعد علىٰ هذه النزعة الشعوبية أنها تساند النزعة الوطنية والعصبية الدينية، فالعرب أزالوا استقلال فارس ، وحكموا مصر والشام، والمغرب وأهلها ليسوا عرباً ، فاستتبع ذلك أن كثيراً من الفرس كانوا يحنون إلىٰ ملكهم واستقلالهم.

(٤) ـ أن الشعوبيين كانوا أصنافاً مختلفة ، منهم فرس، ومنهم نبط، ومنهم قبط، ومنهم أندلسيون، وقد صبغت شعوبية كل صنف من هؤلاء صبغة خاصة ، فالفرس صبغت صبغة وطنية تدعو إلىٰ الاستقلال، واتخذت في بعض الأحيان شكل زندقة وإلحاد، والنبط ظهرت في شكل عصبية للأرض وزراعتها، وتفضيل معيشة الحرث والزرع علىٰ الصحراء ومعيشتها، والقبط ثاروا ثورات مختلفة علىٰ العرب ، وأرادوا طردهم من بلادهم ، وكان آخر ثورة كبيرة في عهد المأمون،

(١) . الجذور التاريخية للشعوبية ، ص ١٥ ـ ١٧ ، بتصرف.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فلما هزموا لجئوا إلىٰ "كيد الإسلام وأهله بإعمال الحيلة، واستعمال المكر، وتمكنوا من النكاية بوضع أيديهم في كتاب الخَراج"(١).

(٥) ـ يذهب ابن قتيبة إلىٰ أن الذين اعتنقوا الشعوبية سفلة الناس وغوغائهم ، فيقول: "ولم أر في هذه الشعوبية أرسخ عداوة ، ولا أشد نصباً للعرب من السفِلة ، والحشوة، وأوباش النبط، وأبناء أكَرَةِ القرىٰ(٢)، فأما أشراف العجم ، وذوو الأخطار منهم ، وأهل الديانة فيعرفون مالهم وما عليهم ، ويرون الشرف نسباً ثابتاً ".

والحق أن الشعوبية لم تكن في السفلة وحدهم، وهؤلاء السفلة لم يكونوا الآخذين بزمامها، وإنما كان معهم كثير من الطبقة المتعلمة الراقية، وإن لم يرق نسبها إلىٰ الملوك والأشراف، وهؤلاء هم الذين كان لهم الأثر الشعوبي في الأدب والعلم ، ومن وراء هؤلاء وهؤلاء طبقة بلغت أعلىٰ المناصب في الدولة ، فكانوا يمدونهم سرا بجاههم وبمالهم ؛ فقد ألّف علّان الشعوبي كتاباً في مثالب العرب فأجازه طاهر بن الحسين عليه بثلاثين ألفاً.

وإذ كان هؤلاء العقلاء الماكرون هم رؤساء هذه الدعوة كانت حربهم علمية أدبية دينية ، أكثر منها ثورات ظاهرة (٣).

الشعوبية في الأدب والشعر:

اتخذت الحركة الشعوبية من الآداب وسيلة لزرع بذور العنصرية والكراهية في نفوس أبناء أمتها تجاه العرب خاصة والإسلام عامة وكان الشعر أحد أهم فروع الآداب المستخدمة في هذا الإطار لكونه الأكثر التصاقا في عقول القراء والمستمعين والأسهل حفظا في الذاكرة، ومن أشهر الشعراء الذين تغنوا بالشعوبية في بدايات العصر العباسي بشار بن برد، وأبو نواس، ومطيع بن إياس، وأبان اللاحقي، ووالبة بن الحباب، هؤلاء الشعراء وغيرهم شنوا حملة ضد العرب من ناحية، وافتخروا بالفرس وأمجادهم من ناحية أخرىٰ.

ولعل أخطر دعاة الشعوبية في العصر العباسي الأول بشار بن برد، الذي كان "من أشدهم حقداً علىٰ العرب، وأطولهم افتخاراً بالفرس والخراسانيين، وأوضحهم تصويراً لأمانيهم الاستقلالية، وأبينهم تعبيراً عن أفكارهم القومية، ولم يقف في شعوبيته عند التعصب لبني قومه

---

(١) . أحمد بن علي المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط/١ دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٨هـ، (١/١٥١).

(٢) . الأكَرَة: جمع أكّار وهو الحرّاث.

(٣) . د. أحمد أمين: ضحى الإسلام، مرجع سابق، ص ٧٥ ـ ٨١ ، بتصرف واختصار.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وحضارتهم بل كان يقوم بتثقيف الموالي وتوعيتهم، بعثاً لشخصياتهم وتنشيطاً لكيانهم ودعوتهم للتمسك بتراثهم"(١).

يقول بشار مفتخراً بقومه ، ومحاولاً الغض من العرب :

هل من رسولٍ مخبرٍ عني جميع العربِ
بأنني ذو حسبٍ عالٍ علىٰ ذي الحسبِ
جدي الذي أسمو به كسرىٰ ، وساسان أبي
وقيصرَ خالي إذا عددت يوماً نسبي

وهذه القصيدة تصور ضراوة حقده العنيف علىٰ العرب ، وقد مضىٰ فيها يقارن بين بداوتهم الجافية وحضارة آبائه اللينة من الفرس والروم، وفي الحق أن شعوبيته كانت صارخة ، إذ كان زنديقاً وعدواً للعرب، ودينهم الحنيف، عداوة ترسب في ضميره وفؤاده.

ثم يتقدم بشار في طريق الشعوبية خطوة جديدة واسعة فيعلن ثورة عارمة ضد الجنس العربي، فيقول مخاطباً أحد الأعراب متخذاً منه رمزاً للجنس العربي كله:

سأخبر فاخر الأعراب عني وعنه حين تأذن بالفخارِ
تفاخر يا ابن راعية وراعٍ بني الأحرار حسبك من خسارِ
وكنت إذا ظمئت إلىٰ قداحٍ شركت الكلب في ولغ الإطارِ
تريغ بخطبة كسر الموالي وينسيك المكارمَ صيدُ فارِ
مُقامك بيننا دنس علينا فليتك غائب في حر نار
وفخرك بين خنزير وكلبٍ علىٰ مثلي من الحدث الكبارِ(٢)

وإذا تركنا بشاراً إلىٰ الجيل التالي المعاصر للبرامكة في زمان الرشيد ، وجدنا هذه الشعوبية تشتد ، إذ ازداد تأثر الشعراء بالحضارة الفارسية المادية ، ودفعهم ذلك إلىٰ التمرد علىٰ التقاليد العربية والإسلامية، فخرجوا علىٰ عادات العرب الاجتماعية ونظم الإسلام وقوانينه، ولعل أبا نواس خير من يمثل هذا الجيل ، وأغلب الظن أن ثورته لم تكن ثورة جنسية ، بل كانت ثورة حضارية من نوع خاص، ثورة الحضارة الفارسية وكل ما اتصل بها من خمر ومجون علىٰ العرب وحياتهم الإسلامية

---

(١) . أحمد عبد القادر محمود عقل: صراع الحضارات وأثره في الشعر العربي في العصر العباسي الأول (القرن الثاني الهجري)، رسالة ماجستير بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح في نابلس ، فلسطين ٢٠٠٣، ص ٧١.

(٢) . ديوان بشار بن برد ، تحقيق: محمد مهدي ناصر الدين، ط/١ ١٩٩٣م، ص ٤٨٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

، وهو يثور في ضجيج وعجيج ، وصياح وهجوم حتىٰ علىٰ الشعر وتقاليده ، علىٰ نحو ما نرىٰ في قوله:

عاج الشقي علىٰ رسم يسائله وعُجْتُ أسأل عن خمَّارة البلدِ
يبكي علىٰ طَلَل الماضين من أسدٍ لا درّ درُّك قل لي: من بنو أسدِ؟
ومن تميمٌ ومن قيسٌ ولفُّهما؟ ليس الأعاريب عند الله من أحَدِ(١)

ومن بين الشعراء الذين نادوا بالشعوبية الشاعر العباسي ديك الجن الذي يقول في إحدىٰ قصائده:

إني ببابك لا ودّي يقربني ولا أبي شافع عندي ولا نسبي
إن كان عُرفُك مذخوراً لذي سببٍ فاضمم يديك علىٰ حر أخي سبب
أو كنت وافقته يوماً علىٰ نسب فاضمم يديك فإني لست بالعربي
إني امرؤ بازلٌ في ذروتي شرفٌ لقيصرٍ ولكسرىٰ محتدي وأبي(٢)

"ومن المحقق أن رجال الفرس البارزين من أمثال البرامكة وآل سهل وآل طاهر بن الحسين كانوا يذكون نار الشعوبية فيمن حولهم من الفرس ، وقد اختلف الناطقون بها بين عالم وأديب وشاعر ، نذكر منهم : أبا عبيدة اللغوي الإخباري المشهور وأصله من يهود فارس ، وقد صب عنايته علىٰ تسجيل مثالب العرب ، وبلغ من فساد طويته أن طعن في بعض أنساب الرسول محمد ﷺ وليس من شك في أن عنايته بتلك المثالب هي التي دفعته إلىٰ شرح نقائض جرير والفرزدق لما تحمله من وقود جزل لهذه الشعوبية"(٣).

ومن الكتاب والأدباء الذين اعتنقوا الشعوبية : علان الشعوبي وكان راوية عارفاً بالأنساب والمثالب، ألف كتاب (الميدان في المثالب) أظهر فيه مثالب العرب، وكان سعيد بن حميد بن البختكان شديد العصبية علىٰ العرب وله من الكتب كتاب (فضل العجم علىٰ العرب وافتخارها)، وأكثر الجهمي من المثالب، وتناول جلة الناس، وكان سهل بن هارون شعوبي المذهب شديد العصبية علىٰ العرب وله في ذلك كتب كثيرة.

الزندقة :

---

(١) . د. شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ط/١١ دار المعارف ، القاهرة، ص ٩٩.

(٢) . ديوان ديك الجن ، تحقيق: د. أحمد مطلوب، وعبد الله الجبوري، دار الثقافة ، بيروت – لبنان ، ص ١٥٦.

(٣) . د. شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الأول، ص ٧٦ . ٧٧.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

مفهوم الزندقة وبداية نشأتها:

يختلف الباحثون في أصل كلمة الزندقة اختلافاً كبيراً ، فمن قائل : إنه إغريقي، ومن قائل إنه آرامي ، ومن قائل إنه فارسي معرب عن "زنديك" ، والرأي الأخير هو الصحيح، فإن الكلمة كانت تطلق بمعناها الأصلي علىٰ المؤمن المخلص من أتباع ماني، ولما كان الزرادشتية يعدون المانوية ملحدين خارجين علىٰ الزرادشتية ، فقد أطلقت الكلمة عندهم علىٰ كل ملحد لا يؤمن بالدين الحق ، وفي ذلك يقول براون شارحاً له ومدللاً عليه: " كلمة زنديق صفة فارسية معناها متبع الزند ـ أي الشروح القديمة للأفستا وهو كتاب زرادشت ـ المفضل له علىٰ النص المقدس، وقد سمي المانوية زنادقة لميلهم إلىٰ تأويل الكتب المقدسة للديانات الأخرىٰ وشرحها حسب آرائهم وأهوائهم"(١).

" ولكن يجب أن نلاحظ أن الزنادقة لم يكونوا جميعاً مانوية ، وأن الاسم تدرج معناه فشمل جميع أتباع الديانات الفارسية الذين يظهرون الإسلام ، ثم صار يشمل الملحدين أو المتشككين في الدين"(٢).

نستخلص مما سبق أن "كلمة الزندقة ليست عربية إنما هي تعريب لمصطلح إيراني كان يطلقه الفرس علىٰ صنيع من يؤولون "الأفستا" كتاب داعيتهم زرادشت تأويلاً ينحرف عن ظاهر نصوصه ، ومن أجل ذلك نعتوا به دعوة ماني ومن فُتنوا بها من الفرس ، وأخذ مدلول الكلمة يتسع في العصر العباسي ليشمل كل من استظهر نحلة من نحل المجوس ، واتسعت أكثر من ذلك فشملت كل إلحاد بالدين الحنيف وكل مجاهرة بالفسق والإثم.

ومعروف أن جمهور الفرس قبل الإسلام كانوا مجوساً علىٰ دين زرادشت الذي ظهر في ديارهم حوالي منتصف القرن السابع قبل الميلاد ، وما وضعه لهم من تعاليم ضمّنها كتابه (الأفستا) وفيه زعم أن للعالم إلهين هما "أهورامزد" إله النور خالق كل خير، و "أهرمن" إله الظلمة خالق كل شر، وأن وراء الحياة الدنيا حياة أخرىٰ يكون فيها حساب الشخص علىٰ أعماله فإما النعيم وإما الجحيم، وأن النار مقدسة طاهرة، مما جعل الإيرانيين يقيمون لها المعابد في كل مكان ، وظهر عندهم في القرن الثالث الميلادي داعٍ يسمىٰ ماني مزج في تعاليمه بين الزرادشتية والبوذية والنصرانية ، فأبقىٰ من الأولىٰ علىٰ عقيدة إلهي النور والظلمة واستباحة الزواج بالبنات والأخوات، وأخذ من الثانية عقيدة التناسخ وتحريم ذبح الحيوان والطيور ، وأخذ من الثالثة الزهد والنسك، وفرض علىٰ

(١) . د. حسين عطوان: الزندقة والشعوبية في العصر العباسي الأول، دار الجيل ، بيروت ، ص ١٢.

(٢) . د. عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول، دار الطليعة ، بيروت، ص ٨٨.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أصحابه صلوات وأدعية كثيرة، وفي أواخر القرن الخامس للميلاد يظهر في إيران داعٍ جديد هو مزدك، وكان ثنوياً يؤمن بإلهي النور والظلمة وتقديس النار، وقد مضىٰ يدعو دعوة صارخة إلىٰ العكوف علىٰ اللذات والشهوات والإمعان فيها ، وأحل النساء وأباح الأموال وجعلها شركة للناس ، وكان له ـ كما كان لماني ـ أتباع كثيرون"(١).

الزندقة في الدولة الإسلامية:

منذ قامت الدولة العباسية بدأت فعاليات واسعة للتبشير بالديانة المانوية بصورة مستترة ، عمل أصحابها مستندين إلىٰ مبدأين أساسيين فيها، أولهما: التأويل الذي يمكن من تفسير النصوص الدينية لأصحاب الديانات الأخرىٰ وخاصة الإسلام تفسيرات تخرجها إلىٰ مدلولات ومفاهيم مانوية، وثانيهما المزج الداخلي أو الأخذ من الديانات والمذاهب الأخرىٰ وصهر ذلك في البوتقة المانوية لتعزيزها ولكسب الآخرين إليها.

ولما كانت الديانات الفارسية القديمة أقوىٰ مثل للذات الفارسية المجوسية ، فإن الدعوة إليها تنطوي علىٰ وعي فارسي بين المجوس، وعلىٰ جهد لمكافحة الإسلام وحملته وخاصة العرب، وقد استغل المانوية بعض الشبه الظاهر بين بعض طقوسهم والشعائر الإسلامية كالصلاة والوضوء من جهة ليستروا مانويتهم، كما تظاهروا بالرجوع إلىٰ العقل وإلىٰ التفسير العقلي للإسلام ليخفوا حقيقتهم ويبثوا آراءهم ، ولذا نجد اسم الزندقة ـ أو الانحراف عن الإسلام ـ يغلب عليهم.

وهو في الأساس يرون في هدم الإسلام من الداخل السبيل لتحقيق أهدافهم ، ويوضح السيد المرتضىٰ أسلوب الزنادقة ويقول: " فقد نشأ جماعة ممن يتستر بإظهار الإسلام ، ويحقن بإظهار شعاره والدخول في جملة أهله ، دمه وماله، زنادقة ملحدون، وبلية هؤلاء علىٰ الإسلام وأهله أعظم وأغلظ، لأنهم يوغلون في الدين، ويموهون علىٰ المستضعفين، بجأش رابط ، ورأي جامع، فعل من قد أمن الوحشة ، ووثق بالأنسة، بما يظهره من لباس الدين هو منه علىٰ الحقيقة عارٍ"(٢).

لقد كان العراق بحكم موقعه وظروفه المختلفة الميدان الأول الذي ظهرت فيه حركة الزندقة منذ نهاية القرن الأول وأوائل القرن الثاني ، يقول في ذلك طه حسين مبيناً نوع زندقة القرن الثاني وأصلها: " إن وجدت ذكراً للزندقة والزنادقة وللعبث والعابثين آخر أيام بني أمية ، فإنك واجد مع هذا أن هذه الزندقة وهذا العبث والمجون إنما حملت كلها من العراق إلىٰ الشام بأمر الوليد بن يزيد من مجان بني أمية، الزندقة إذن عراقية لأنها فارسية، وقد نجد شيئاً غير قليل من تأثير اليونان

(١) . د. شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الأول، ص ٧٩ ـ ٨٠.

(٢) . أمالي السيد المرتضى ج١ ص ١٢٧ ـ ١٢٨، نقلاً عن د. عبد العزيز الدوري : الجذور التاريخية للشعوبية، ص ٥٧ ـ ٥٨.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وفلسفتهم في زندقة هؤلاء الزنادقة وإباحة هؤلاء الشعراء ولكن هذا التأثير عرضي لا جوهري؛ فهؤلاء الشعراء والزنادقة كانوا يتخذون من الفلسفة اليونانية حلية يزينون بها شعرهم وزندقتهم، ولكنهم لم يتعمقوا قط في الفلسفة اليونانية، وزندقة القرن الثاني للهجرة ضرب من السخط علىٰ العرب وعاداتهم وأخلاقهم ومحافظتهم ودينهم بنوع خاص، ومن الكلف بحياة الفرس وعاداتهم ولذاتهم وحضارتهم وما ذاع فيهم من عقيدة دينية... والزندقة الأدبية كانت في عصر بني أمية ضعيفة مترددة متسترة لا يكاد الناس يظهرون الميل إليها، فلما اجترأ خليفة من خلفاء بني أمية علىٰ أن يجهر بالفجور ق٥ويت واستطاعت أن تظهر، ثم انتصر الفرس فانتصرت معهم"(١).

ومن الواضح أن الشعوبية وقرينتها الزندقة لم تكن حركة طبقة اجتماعية معينة لأنها تعبر عن وعي شعب أو أكثر، ولأن هذا الوعي تمثل في صور مختلفة بين الجماعات المختلفة، ولأنه ظهر في إطار ثقافي وديني بين تلك الفئات التي لها المؤهلات الفكرية أو الاستعداد الذهني اللازم، وكل محاولة لإكسابها صفة طبقية أو لحصرها في فئة اجتماعية معينة إنما يناقض طبيعتها وشمولها.

الدوافع وراء انتشار الزندقة:

(١) ـ الدافع الأول ديني، والطائفة التي خضعت له تؤمن بالزندقة إيماناً صحيحاً صادراً عن رغبة دينية صادقة.

(٢) ـ الدافع الثاني سياسي، والطائفة التي خضعت له وجدت في الزندقة تراثاً قومياً خلفه الآباء، فيجب الحرص عليه للنعرة القومية، والنزعة الشعوبية.

(٣) ـ الدافع الثالث يمكن أن نسميه بالدافع الحضاري أو الفكري، والطائفة التي خضعت له، اتخذت الزندقة وسيلة من وسائل العبث الفكري التي يلجأ إليها الشكاك دائماً، يرومون من ورائها العبث بعقائد الناس، فهي إذن حالة نفسية عنيفة تتملكهم فتدفعهم إلىٰ ما هو أشبه باللهو الفكري والمجون الشكي منه إلىٰ أي شيء آخر(٢).

(٤) ـ الدافع الرابع دافع اجتماعي والطائفة التي خضعت له، اتخذت الزندقة وسيلة من وسائل التظرف وحسن المنادمة، وسمة علىٰ الرقي الثقافي والاجتماعي بحيث يمكننا أن نسمي هذا النوع من الزندقة "الزندقة الاجتماعية" كما يمكننا أن نسمي النوع الأول "الزندقة الدينية" والنوع الثاني "الزندقة السياسية" والثالث "الزندقة الفكرية"(٣).

موقف الدولة من الزنادقة:

---

(١). د. طه حسين: حديث الأربعاء، ط/ ١٤ دار المعارف، مصر، (٢/ ١٦٠ ـ ١٦٢) باختصار.

(٢). عبد الرحمن بدوي: من تاريخ الإلحاد في الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٤٥م، ص ٣٣.

(٣). د. محمد مصطفى هدارة: اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقفت الدول العباسية موقفاً مشرفاً من هذه الفئة المفسدة في الأرض، ونصبوا لها حرب اللسان، إلىٰ جانب حرب السنان، فكانوا ينشرون المناظرات لبيان حقيقتهم والتحذير منهم، وإرجاع من يثوب منهم إلىٰ رشده، والذي تثبت عليه تهمة الزندقة، فإن القتل هو خير ما يعالج به.

لقد تنبه الخليفة المهدي لانتشار هذه الملل المجوسية المارقة في أمصار العراق، ورأىٰ فيها خطراً علىٰ الدولة الإسلامية، فأمر باتخاذ ديوان خاص لتعقب من يعتنقها من المسلمين، ونصب لهم حرباً لا هوادة فيها ولا لين ، فكل من تثبت عليه زندقته قُدِّم وقوداً لتلك الحرب التي ظلت قائمة إلىٰ عهد ابنه الرشيد، يقول المسعودي: " أمعن المهدي في قتل الملحدين والمداهنين في الدين لظهورهم في أيامه وإعلانهم باعتقاداتهم في خلافته لما انتشر من كتب ماني وابن ديصان ومرقيون مما نقله عبد الله بن المقفع وغيره وترجمه من الفارسية والفهلوية إلىٰ العربية وما صنف من ذلك ابن أبي العوجاء وحماد عجرد ويحيىٰ بن زياد ومطيع بن إياس من تأييد المذاهب المانية والديصانية والمرقيونية فكثرت بذلك الزنادقة وظهرت آراؤهم في الناس"(١).

واشتد الهادي مثل أبيه في طلب الزنادقة حين ولي الخلافة لسنة ١٦٩هـ وقتل منهم جماعة من بينهم أحد أبناء عمه داود بن علي ويعقوب بن الفضل من سلالة الحارث بن عبد المطلب ، وسرعان ما خلفه هارون الرشيد لسنة ١٧٠هـ فسار فيهم نفس السيرة ، وممن تعقبهم يزيد بن الفيض ، ويونس بن أبي فروة وكان قد ألف كتاباً في مثالب العرب وعيوب الإسلام - بزعمه - وصار به إلىٰ ملك الروم فأغدق عليه مالاً كثيراً ، وطلب الرشيد أيضاً علي بن الخليل الشاعر لما ذاع من زندقته ، غير أنه تبرّأ منها فأطلقه.

وكان المأمون إذا سمع بزنديق أو زنادقة أمر بحملهم إليه وأحضرهم مجالسه حيث المتكلمون ودفعهم جميعاً إلىٰ المناظرة، لعلهم يقنعونهم ويردونهم إلىٰ الإسلام ومحجته المستقيمة، وكان يناظرهم بنفسه أحياناً، فإذا لم يكفوا عن غوايتهم أمر بقتلهم، وفي عهد المعتصم ثبتت الزندقة علىٰ الأفشين قائد جيش الخليفة فزج به الخليفة في غياهب السجن حتىٰ مات وصُلب بعد موته.

أثر الشعوبية والزندقة في الشعر:

دفعت مثل هذه التوجهات الفكرية بحركة الشعر إلىٰ الازدهار، وبروز ظاهرة الشعراء الشعوبيون، والزنادقة، الذين نافحوا عن فكرتهم، وفي الطرف الآخر كان الشعراء يفندون شعرهم، ويردون عليهم، مما أثرىٰ الحركة الشعرية، ويضاف إليه أيضا ما أضيف إلىٰ الظواهر الاجتماعية

(١) . المسعودي ، (٤ / ٢٤٢)، نقلاً عن د. شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الأول ، ص ٨١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

السابقة التي استفادت من ثقافة العصر وتحضره في توليد المعاني، ودقة التصوير، وابتكار الأخيلة، والصور الشعرية، والتفنن في استخدام اللغة، فيما يناسب المعنىٰ والمقال.

الزهد في العصر العباسي الأول:

إن حديثنا السابق عن الزندقة والمجون ليس معناه أن المجتمع العباسي كان مجتمعاً منحلا أسلم نفسه للإلحاد والشهوات ، فالإلحاد والزندقة إنما شاعا في طبقة محدودة من الناس كان جمهورها من الفرس ، وكانت موجة المجون أكثر حدة ، ولكنها لم تكن عامة في المجتمع ، بل كانت خاصة بالمترفين ومن حولهم من الشعراء والمغنين، أما عامة الشعب فإنها لم تكن تعرف زندقة ولا مجوناً، بل كانت مسلمة حسنة الإسلام تهتدي بأضوائه وتجري علىٰ سننه، ولم تكن مترفة ولا ثرية، بل كانت تعيش علىٰ الكفاف، وكثير منهم يعيش في البؤس والضنك والضيق وقلوبه تتقطع حسرات علىٰ ما تحظىٰ به الطبقة المترفة من أسباب النعيم.

وإذا كانت حانات الكرخ ودور النخاسة والمقينين به اكتظت بالجواري والإماء والقيان والمغنين، فإن مساجد بغداد كانت عامرة بالعُبّاد والنُّسَّاك وأهل التقوىٰ والصلاح، وكان في كل ركن منها حلقة لواعظ يذكِّر بالله واليوم الآخر وما ينتظر الصالحين من النعيم المقيم، والعاصين من العذاب والجحيم، وكان من الوعّاظ من يقتحم قصر الخلافة ليعظ الخلفاء علىٰ نحو ما هو معروف عن عمرو بن عبيد في وعظه للمنصور، وصالح بن عبد الجليل في وعظه للمهدي، وابن السماك في وعظه لهارون الرشيد(١).

مفهوم الزهد وأسباب ظهوره:

الزهد في اللغة يعني قلة الشيء، وجاء في لسان العرب: الزُّهد والزَّهادة فِي الدُّنْيَا وَلَا يُقَالُ الزُّهد إِلَّا في الدين خَاصَّةً، والزُّهد: ضِدُّ الرَّغْبَةِ وَالْحِرْصِ عَلَىٰ الدُّنْيَا، وَالزَّهَادَةُ فِي الأَشياء كُلِّهَا: ضِدُّ الرَّغْبَةِ، وَفِي حَدِيثِ النَّبِيِّ، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَفضل النَّاسِ مُؤْمِنٌ مُزْهِدٌ ؛ المُزْهِد: الْقَلِيلُ الشَّيْءِ وإِنما سُمِّيَ مُزْهِداً لأَن مَا عِنْدَهُ مِنْ قِلَّتِهِ يُزْهَدُ فِيهِ، وَشَيْءٌ زَهيد: قَلِيلٌ؛ قَالَ الأَعشىٰ يَمْدَحُ قَوْمًا بِحُسْنِ مُجَاوَرَتِهِمْ جَارَةً لَهُمْ:

فَلَنْ يَطْلُبُوا سِرَّهَا للغِنَىٰ ... وَلَنْ يَتْرُكُوهَا لإِزْهَادِها

يَقُولُ: لَنْ يَتْرُكُوهَا لِقِلَّةِ مَالِهَا وَهُوَ الإِزهاد(٢).

ويقول الخليل:" الزُّهْدُ في الدّينِ خاصَةً، والزَّهادةُ في الأشياء كلّها"(١).

---

(١) . د. شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي – العصر العباسي الأول، ص ٨٣ . ٨٤.

(٢) . ابن منظور: لسان العرب ، دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ، (٣ / ١٩٦ . ١٩٧).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وترجع أسباب الزهد ودوافعه في العصر العباسي الأول إلىٰ الدوافع الآتية:

أولاً: الدافع الديني: وهذا الدافع يتمثل في أولئك الذين اتقوا الله واستشعروا تفاهة هذه الحياة الدنيا فلم تشغلهم زخارفها وزينتها ، وعكفوا علىٰ أنفسهم يطهرونها من أدران الحياة المادية، ويصفونها من شوائبها ، متطلعين إلىٰ ري ظمئهم لله عن طريق التجربة الروحية الصافية ، لا عن طريق الاستدلال العقلي والبحث المنطقي المعقد.

ثانياً: الدافع السياسي: مما لاشك فيه أن نشأة الأحزاب السياسية وتطاحنها المرير كان من الأسباب التي دفعت عدداً من الناس إلىٰ التماس النجاة بعيداً عن هذا الصراع السياسي ، فلم يجدوا موئلاً خيراً من الدين يلوذون به ويقصرون أنفسهم عليه، ثم كان لظهور الدولة العباسية التي ترتكز علىٰ فكرة دينية أثر كبير في انتعاش الحركة المذهبية وظهور العقائد والنحل المختلفة ، وهنا شهد القرن الثاني صراعاً من نوع آخر دفع عدداً من المتقين إلىٰ الاعتزال بعيداً عنه، محافظة منهم علىٰ عناصر إيمانهم.

ثالثاً: الدافع الاجتماعي: لقد كان للتطور الاجتماعي في العصر العباسي الأول أثر واضح وخطير في شيوع تيار الزهد وتطوره، فشيوع تيار اللهو والمجون والزندقة ووجود فوارق واضحة بين الطبقات الاجتماعية في ذلك العصر ، كان لابد أن يوجد حركة عكسية مضادة تعكف علىٰ تقوىٰ الله وتقصر نفسها علىٰ العبادة ، وتحتقر المال وزخرف الدنيا وزينتها.

رابعاً: الدافع الاقتصادي: لم يكن الوضع الاقتصادي في العصر العباسي الأول بعيداً عن التأثير في حركة الزهد ؛ فالفروق الواضحة بين الطبقات الاجتماعية أوجدت طبقة فقيرة بائسة لم نكن تستطيع شيئاً إلا أن تقنع بالكفاف من الرزق معتصمة بتقوىٰ الله ، وربما كان سوء توزيع الثروة أوضح في البصرة منه في أي مكان آخر ، وهذا هو السر في كثرة الزهاد بها(٢).

خامساً: الدافع الحضاري: هو تسرب فكري متعمد من قبل زعماء التيارات الفكرية الفاسدة مثل المانوية، وكذلك هو تأثر بالعقائد المجاورة اجتماعياً مثل النصرانية، حيث يوجد لهم اختلاط مع المسلمين، ولا بد من أثر لهذا الاختلاط.

ويعتبر الزهد هو المرحلة الأولىٰ، في التعامل مع شؤون الدنيا، ثم إذا تقدمنا قليلاً، كان لدينا التنسّك، إلىٰ أن نصل إلىٰ مرحلة التصوف، الذي يزهد فيه المرء في الحياة علىٰ جميع المستويات، فلا يشبع شيئاً من رغباته، وإن كانت من الضروريات، وإن منهم من يشرب الماء العكر، مبالغة في حرمان نفسه.

---

(١) . الخليل بن أحمد الفراهيدي:كتاب العين، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، (١٢/٤).

(٢) . د. محمد مصطفى هدارة: اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، ص ٢٨٦ . ٢٨٩، بتصرف.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

وليس لهذا الحرمان المبالغ فيه أصلٌ في ديننا، فقد قال تعالىٰ في محكم تنزيله: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾(١).

وقد حاول جولدتسيهر، الربط بين مقدمات نزعة التصوّف الإسلامي، وبين التعاليم الأفلاطونية، وما فيها من مذهب الفيض ووحدة الوجود، وبين البوذية الهندية، وإنني أوافق الدكتور شوقي ضيف بحكمه علىٰ جولدتسيهر بالمبالغة، بل وأضيف بأن هذا يدعم فكرة أن ظهور نزعة الزهد التي تطورت إلىٰ التصوف، هو تسرّب متعمّد يهدف إلىٰ زعزعة العقيدة الإسلامية في نفوس أبنائها؛ حيث أن وجود قواسم مشتركة بين نزعة التصوف التي ظهرت وهذه التعاليم سيؤثر في النفس الإنسانية لتقبل من تلك التعاليم المخالفة، ما يفسد العقيدة، بحجة، أن القواسم المشتركة تبرر ذلك، وهذا ما أقف أمامه موقف المعارض؛ لأن من أراد الخوض في هذا الغمار، يجب أن يكون معبأً تعبئةً ثقافيةً عقديةً لا سبيل إلىٰ اختراقها، من أي قوة كانت.

أقسام الزهد في العصر العباسي:

كان الزهد علىٰ ثلاثة أوجه:

(١) ـ زهد ديني صحيح، يخلص فيه المرء دينه لله تعالىٰ.

(٢) ـ زهد مال إليه نفر من الناس بسبب الحرمان، وعدم توفر الأمور التي زهدوا فيها.

(٣) ـ زهد مانوي مارق، وهذا الذي يمكن ربطه بالبوذية.

نماذج من شعر الزهد:

يقول أبو نواس:

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرةً ... فلقد علمتُ بأن عفوك أعظمُ

إن كان لا يرجوك إلا محسنٌ ... فبمن يلوذ ويستجير المجرم

أدعوك ربي كما أمرت تضرّعاً ... فإذا رددت يدي فمن ذا يرحم

ما لي إليك وسيلة إلا الرجا ... وجميل عفوك ثم أني مسلم(٢)

ويقول أبو العتاهية:

إلهي لا تعذبني فإني ... مقرٌّ بالذي قد كان مني

وما لي حيلة إلا رجائي ... وعفوك إن عفوت وحسن ظني

---

(١). سورة الأعراف / ٣٢.

(٢). ديوان أبي نواس ، ص ٥٨٧.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

فكم من زلة لي في البرايا وأنت عليّ ذو فضـلٍ ومنٍّ
إذا فكرت في ندمي عليها عضضت أناملي وقرعت سنّي
يظنّ الناس بي خيراً وإنّي لشرّ الناس إن لم تعفُ عنّـي
أُجَنُّ بزهرة الدنيا جنونـاً وأفني العمر فيها بالتمنـي(١)

أثر الزهد في الشعر:

كان للزهد آثارٌ واضحة في الشعر، منها:

١- اهتم الناس بشعر الزهد وخاصة العامة منهم.

٢- كان القصاص والوعاظ يكثرون من إنشاد أبيات الشعر في ثنايا خطبهم وقصصهم، وهذا حفزهم علىٰ نظمه، كما نجد ذلك عند ابن المبارك.

٣- كما أن ذلك حفز كثيراً من الشعراء المجان، ليستثمروا مادة الوعظ التي تأتي علىٰ لسان الوعاظ، وينظموها شعراً بعد أن يثوبوا إلىٰ ربهم، فجاؤا بصور شعرية، ومعانٍ دقيقة، أثْرَت أسلوبهم.

******

(١). ديوان أبي العتاهية ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٨٦م، ص ٤٢٥.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

الفصل الثالث

الحياة الاقتصادية

ليس من شك في أن الحياة الاقتصادية في أية دولة تؤثر تأثيراً عميقـًا في كيانها وفي نواحي الحياة فيها ، فلها تأثير إذن في اتجاهات الشعر لأنه مظهر من مظاهر هذه الحياة.

إن الاقتصاد يحدد وجهات الناس في الحياة، ويهيىء لهـم سبل التفـاؤل أو التشـاؤم ، ويشيع فيهم السعادة أو الشقاء، إنه يدعوهم إلىٰ الإيمان أو يؤدي بهم إلىٰ الجحود والنكران، فإذا قال قائل:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إن المال ميزان الشعوب لم يخطئ ولم يتزيد؛ فالأمم في كل أدوار التاريخ تقاس بما وصلت إليه حالتها الاقتصادية، وما بلغه متوسط دخل الأفراد فيها، فلا غرابة إذن في اهتمامنا بهذه الناحية وبحث قواها المؤثرة في اتجاهات الشعر في القرن الثاني.

والمتتبع لظواهر الاقتصاد في ذلك العصر يرىٰ أن الطابع المهيمن هو "أسلوب الإنتاج الإقطاعي المتداخل مع بقايا العبودية المنحلة والقطاع التجاري المتنامي إلىٰ جانب نمو الصناعات الحرفية المتطورة نسبياً، فالإقطاع إذن كان يلعب الدور الأكبر في ذلك العصر، لا لكونه يحكم زمام الأمور بواسطة فئة تحافظ علىٰ مصالحه بل لأن الدولة نفسها كانت هي المالك الأكبر والمستثمر الأول للأراضي المتمثلة في قطائع الخليفة وأهله وأعوانه من وزراء وقواد وجميع رجالات الدولة(١).

ويلاحظ من يتصدىٰ لدراسة الحياة الاقتصادية في العصر العباسي مدىٰ اهتمام العباسيين بالزراعة وتطوير وسائلها ، واستصلاح مساحات شاسعة من الأراضي الجديدة مما أدىٰ إلىٰ الرواج الاقتصادي الذي كان له الأثر البالغ في الحياة المترفة الجديدة لا سيما في قصور الخلفاء وكبار رجال الدولة، فقد نشطوا في حفر الترع والمصارف وإقامة الجسور والقناطر ، وكانت الأراضي الواقعة بين نهري دجلة والفرات من أخصب بقاع الدولة العباسية وكانت الحكومة تشرف علىٰ إدارتها إشرافاً مباشراً ، وتعمل علىٰ تحسين زراعتها وتنمية مواردها، وامتدت في هذه الأراضي شبكة من الترع والمصارف حتىٰ أصبحت قوية الخصب، تكثر بها المزارع والبساتين، وكانت تعرف بأرض السواد لكثرة ما بها من الشجر والزرع والخضرة.

وقد عني خلفاء العصر العباسي الأول بالزراعة وفلاحة البساتين التي قامت علىٰ دراسة علمية بفضل انتشار المدارس الزراعية التي كان لها الأثر الكبير في إنارة عقول المسلمين، فتوسعوا في البحث النظري ودرسوا أنواع النباتات وصلاحية التربة لزراعتها، واستعملوا الأسمدة المختلفة لأنواع النبات.

وكذلك عني الخلفاء العباسيون بشئون الزراع وعملوا علىٰ تخفيض الضرائب عليهم؛ فألغىٰ أبو جعفر المنصور الضريبة النقدية التي كانت تفرض علىٰ الحنطة والشوفان، وأحل محلها نظام "المقاسمة" وهو دفع الضرائب نوعاً بنسبة خاصة من المحصول، علىٰ أن النظام النقدي القديم ظل علىٰ النخيل والفواكه وأشباهها.

---

(١) . طاهر حجار خرفان: الاتجاه الشعبي في شعر العصر العباسي الأول، رسالة ماجستير بكلية الآداب جامعة دمشق، ١٩٨١م، ص ٢٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقد أقطع أبو جعفر المنصور بعض أعيان دولته قطائع من الأرض ببغداد يعمرونها ويسكنونها ويحصلون على غلتها مكافأة لهم على ما قدموه من الخدمات الجليلة، وسرعان ما عمرت هذه القطائع واتسع نطاقها وازدحمت بالسكان، وأصبحت كل قطيعة منها تعرف باسم الرجل أو الطائفة التي تسكنها(١).

وإلى جانب الحرف اليدوية التي تطورت كثيراً في العصر العباسي الأول نجد صناعات متطورة منتظمة نسبياً في مصانع منتشرة على امتداد الإمبراطورية الإسلامية شرقاً وغرباً (٢)، فقد برزت صناعة السكر في فارس، وظهر الزجاج في سورية وفلسطين، كما أنتج الملون منه في بغداد والبصرة، وطور العرب صناعة الورق التي أخذوها عن الصينيين فظهرت بأشكال مختلفة كالورق الحريري، وورق الكتابة ، والورق المقوى ...إلخ، وازدهرت صناعة الروائح والعطور وهي تتطلب معارف كيميائية دقيقة، وتفننوا أيضاً في صناعة الذهب كما استخرجوا الفضة والنحاس والحديد والمرمر والملح والكبريت ، والقار والنفط.

وكان ببغداد عدد كبير من دور الصناعة ، وكان بها آلاف المعامل الخاصة بصنع الزجاج والخزف، وكان لكل حرفة سوق خاصة كسوق الحدادين، وسوق النجارين، وسوق البزازين، وقد أسس المنصور أسواق الكرخ في الجهة الجنوبية بين الصراة ونهر عيسى لتكون مركزاً للصناعة والتجارة.

واشتهرت بغداد بالصياغة التي نبغ فيها الفرس، وبلغت صناعتهم شأواً بعيداً في الدقة والجمال حتى إنهم كانوا يرصّعون الزجاج بالجواهر، ويكتبون عليه بالذهب المجسم، ويصنعون للملوك أقداحاً تبهر الأبصار، وكانوا يتخذون على الجامات (الكؤوس) صوراً، مما يأخذ بالألباب ويستوقف الأنظار(٣).

ويمكن تقسيم الصناعات التي اشتهرت في العصر العباسي الأول إلى المجموعات التالية:

(١) ـ الصناعات المعدنية: وكانت تتركز في دمشق والموصل؛ ففي دمشق صنعت الأسلحة، وفي الموصل صنعت الأدوات النحاسية.

(٢) ـ الصناعات النسيجية: حيث اشتهرت الأنسجة الحريرية المشجرة في الشام وفارس والأنسجة الكتانية في مصر وفارس كذلك، والأقمشة القطنية في العراق وخراسان.

---

(١) . د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، ط/ ١٤ مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٩٦م، ج ٢ ص ٢٤٩ ـ ٢٥١، بتصرف يسير.

(٢) . طيب تيزيني: مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط، ط/١ دار دمشق ، دمشق ١٩٧١م، ص ١٨١.

(٣) . جميل نخلة المدور: حضارة الإسلام في دار السلام ، القاهرة ١٩٣٣م، ص ٢٥.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

(٣) ـ الصناعات الغذائية: فقد صنع الزيت وماء الورد في الشام وفارس زيادة علىٰ صناعة العطور.

(٤) ـ الصناعات المختلفة: فقد اشتهر الزجاج والصابون المصنعان في الشام والبصرة، والخزف والفخار في مصر وفارس، والجلود والسروج في الشام ومصر، وكذلك صناعة القوارب والمراكب(١).

ولم تقتصر عناية الخلفاء علىٰ الزراعة والصناعة وحدهما، بل اهتموا كذلك بتسهيل سبل التجارة فأقاموا الآبار في طرق القوافل، وأنشئوا المنائر في الثغور، وبنوا الأساطيل لحماية السواحل من إغارات لصوص البحار، وكان لذلك أثر بعيد في نشاط التجارة الخارجية والداخلية، وأصبحت قوافل المسلمين تجوب البلاد وسفنهم تشق عباب البحار.

وقد شجع خلفاء العصر العباسي الأول التجارة تشجيعاً غير مباشر بما أدخلوا من مظاهر الترف إلىٰ بلاطهم ، وذلك بتمهيد الطرق وتأسيس مدينة بغداد التي ساعد موقعها علىٰ أن تصبح سوقاً تجارية من الطراز الأول، وكانت دمشق مركزاً هاما للقوافل الآتية من آسيا الصغرىٰ أو من أقاليم الفرات إلىٰ بلاد العرب ومصر ، وأصبح الفرات ودجلة شريانين تجاريين هامين في داخل بلاد الدولة العباسية(٢).

أضف إلىٰ ذلك تلك الموارد التي كانت تتدفق من خلال الضرائب ، والخراج ، والصدقات، "ولا ننسىٰ في هذا الجانب أثر ذوي النعمة من المحسنين ، قيل إن رسول ملك الروم قدم إلىٰ بغداد في خلافة أبي جعفر المنصور فرأىٰ علىٰ الجسر الزمنىٰ والسؤَّال، ولام أبا جعفر أن لا يكون كفاهم مؤونتهم وعيالهم، فقيل له إن الأموال لا تسعهم، فلما بلغ الخبر أبا جعفر قال: إن الأموال واسعة، ولكني أحب أن يشترك ذوو النعمة في ثواب السؤال والزمنىٰ"(٣).

وبعد هذه الإطلالة الموجزة يمكننا القول بأن النهضة الزراعية والتجارية والصناعية التي سبق الإشارة إليها "كانت من بين أسباب الثروة التي أحرزتها الدولة الإسلامية أيام العباسيين ، كما كانت من أسباب وعوامل الرقي الفكري والنهضة العلمية بمظاهرها وفروعها المختلفة، وقد أسهمت في إشاعة عناصر الرخاء والطمأنينة بين طبقات الشعب علىٰ اختلافها، فكان الأغنياء يقيمون القصور الرائعة التي كانت وما تزال مثاراً للخيال ودلالة علىٰ الترف علىٰ أذهان الناس ممن

---

(١) . أنور الرفاعي: الإسلام في حضارته ونظمه ، دار الفكر ١٩٧٣م، ص ٣٠٢ . ٣٠٣، وانظر: طاهر حجار خرفان: الاتجاه الشعبي في شعر العصر العباسي الأول، ص ٢٧ .

(٢) . د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ص ٢٥٥.

(٣) . د. محمد ضيف الله بطاينة: الحياة الاقتصادية في العصور الإسلامية الأولى، دار الكندي ، الأردن ، د. ت. ص ٢٣٢.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يقرؤون ألف ليلة وليلة وما أشبه، ويصف لنا المؤرخون قصوراً تبدو كالأساطير والأحلام كقصر محمد بن سليمان الهاشمي الذي بناه علىٰ شاطئ أحد الأنهار، واتخذ في جناته المها والغزلان والنعام وأنواع السباع والطيور المغردة، وكغيره من القصور التي كانت حوائطها مكسوة بالوشي والديباج ورقائق الذهب والأحجار النفيسة، والتي كانت مجالسها فتنة للناظرين بما فيها من فرش فاخر ومتاع ثمين.

وكان الفقراء ومتوسطو الحال يحيون حياة كريمة ليس فيها ذل الفاقة والعوز، وذلك نظراً لرخص أثمان السلع الضرورية وتوفر أنواع المآكل، فكانت أسواق بغداد عامرة بالمتاجر والبضائع، غير أن هذه الأثمان أخذت في التزايد شيئاً فشيئاً دون أن تزاد قيمة العطاء مما أحدث في النهاية اضطراباً اقتصادياً في مجتمع القرن الثاني ظهر أثره في عهد الأمين حين تكشفت بغداد عن جانبها الفقير البائس.

وهكذا لم يدم ذلك الرخاء الذي بدأ مع قيام الدولة العباسية، ومما ساعد علىٰ انقضائه إسراف الخلفاء العباسيين في إنفاق المال إسرافاً بلغ حد الخيال حتىٰ إن بعضهم كان إذا أعجب بالشاعر أو المغني وطرب له حكّمه في أخذ ما يشاء من الأموال وأعطاه رقعة بذلك إلىٰ خازن بيت المال.

لهذا بدأ الانهيار الاقتصادي قبيل انتهاء القرن الثاني بقليل ومما عجل به وقوع الفتنة بين الأمين والمأمون؛ "ذلك أن حصار جيوش المأمون لبغداد أصاب اقتصادها إصابة خطيرة لم تبرأ منها بعد ذلك قط، ولقي سكانها أشد العنت والإجهاد؛ إذ انقطع وصول المؤن إليها، وغلت أسعار ما بقي من السلع لدىٰ التجار.

وقد كانت هذه المأساة الدامية سبباً في ظهور قصائد شعبية رائعة التصوير تفيض بالحزن والألم، وتصف كل ما اكتنف الحياة في بغداد من غلاء الأسعار وهول الحرب، وصولة الفقراء البائسين وشذاذ الآفاق"(١)، إلىٰ غير ذلك مما عرف بأدب الصعاليك.

وخلاصة القول: إن الحياة الاقتصادية في العصر العباسي الأول "لم تكن سليمة كل السلامة، ولا مستقيمة كل الاستقامة، بل كانت مضطربة بعض الاضطراب، مختلة شيئاً من الاختلال بحيث لم تحقق الخير للناس علىٰ اختلاف طبقاتهم، ولا وفرت لهم الحياة الكريمة علىٰ تباين منازلهم، وإنما حظي فيها نفر قليل من الناس هم الخلفاء وأبناء البيت العباسي، والوزراء والعمال، وكبار رجال الدولة، ومن كان يتصل بهم، ويخلص في خدمتهم، ولم يكن مصدر الاضطراب والاختلال يرجع إلىٰ قصور النظام المالي وفساده، وإنما كان يرجع إلىٰ الأخطاء التي

(١). د. محمد مصطفى هدارة: اتجاهات الشعر العربي في العصر العباسي الأول، ص ١١٩ - ١٢٠.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ارتكبت في تطبيقه وتنفيذه، وإلىٰ توزيع الأموال في وجوه متعددة لا تتعلق بالمنفعة العامة، ولا تعود بالفائدة علىٰ الأمة، لأن ما كان يرد إلىٰ بيت المال من أموال الصدقات والخراج كان مبالغ ضخمة تقدر بملايين الدنانير كان متوسطها في كل عام ثلاثمائة وستين ألف ألف درهم كما كانت تزيد في بعض الأعوام عن خمسمائة ألف ألف درهم.

وللاختلال الاقتصادي في العصر العباسي الأول مظاهر كثيرة ، منها: العنف في جباية الخراج، ومنها زيادة الخراج ، ومنها خيانة العمال وارتشاؤهم، ومنها عزل الخلفاء لبعض وزرائهم واستصفائهم الأموال الطائلة منهم ، ومنها إنفاق الأموال في سُبُلٍ لا تفيد الأمة كتجنيد الجيوش للقضاء علىٰ المتمردين الثائرين، والإغداق علىٰ القادة وجنودهم إغداقاً فياضاً لكي يظلوا أوفياء لهم، منفذين لأوامرهم، وكإجراء الأعطيات علىٰ بعض الأمصار وخاصة الحجاز، لا لأنه أصل الإسلام، ولا لأن أهله لهم الفضل في تقبل الإسلام والعمل علىٰ نشره فحسب، بل لأن أهله كانوا أيضاً مصدر شغب علىٰ البيت العباسي(١).

ومن أسباب هذا الخلل الاقتصادي أيضاً تلك الحروب التي استمرت مع البيزنطيين طيلة عهد خلفاء العباسيين الأوائل ، "ومع أن المسلمين حققوا في هذا الوجه انتصارات رائعة علىٰ البيزنطيين فإن النتائج لم تكن حاسمة، وظل تفوق أحد الجانبين علىٰ الآخر في مد وجزر تبعاً للأوضاع الداخلية لكل جانب، وكانت الأموال التي أنفقها المسلمون في تغطية نفقات الجيوش الموجهة إلىٰ الجبهة البيزنطية أكثر من الغنائم التي حصلوا عليها من البيزنطيين في أغلب الأحيان، وأدت الحروب بين الجانبين إلىٰ وقوع الكثير من الأسرىٰ من الجانبين، الأمر الذي استدعىٰ فداء الأسرىٰ وفكاكهم من الأعداء"(٢).

هذا ولابد من الإشارة إلىٰ الذين تأخر ركبهم في مجال السبق والمنافسة إلىٰ الثراء والجاه، وأقعدهم الكسل وحب الراحة عن العمل، فاتخذوا العيارة والشطارة سلماً إلىٰ قطف ثمار غيرهم، واستطابوا أيام الفتن يخوضونها إلىٰ استلاب أموال الآخرين، فإن كانوا بحجة علىٰ العجز فليس إلا علىٰ أنفسهم، وإن كانوا بمثال علىٰ الضعف فليس إلا علىٰ الاتكالية التي لا تنهض بالمجتمعات(٣).

******

(١). د. حسين عطوان: الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول، دار الجيل، بيروت ١٩٩٧م، ص ١٢ ـ ١٣.

(٢). د. محمد ضيف الله بطاينة: الحياة الاقتصادية في العصور الإسلامية الأولى، دار الكندي ، الأردن ، د. ت. ص ٢١٥.

(٣). المرجع السابق ص ٣٣٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

الفصل الرابع

الحياة العقلية والأدبية

اعتمدت الدولة العباسية علي شعوب البلاد المفتوحة، وكانت هذه الشعوب عريقة في حضارتها، فهناك الحضارة الساسانية التي سادت العراق وفارس، وكانت تحتفظ بتراث أسيوي خاص ساهمت في تكوينه الحضارتان الصينية والهندية بنصيب وافر، وهناك الحضارة البيزنطية التي

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

سادت في الأقطار المطلة علىٰ حوض البحر المتوسط، وهي حضارة ذات أصول يونانية شرقية، لأن البيزنطيين والرومان من قبلهم، كانوا تلاميذ لليونان، وكانت الإسكندرية وحران والرها ونصيبين وإنطاكية من أهم مراكز الثقافة اليونانية الرومانية.

فالعرب رغم تراثهم العريق القديم الذي تمثل في حضارات معين وسبأ وحمير في بلاد اليمن، وحضارة الحجاز التي اشتهرت بنشاطها التجاري والديني، إلا أنهم وجدوا في البلاد التي فتحوها حضارات متطورة راقية، لها إدارات حكومية منظمة، ونظم اقتصادية متفوقة في الزراعة وأعمال الري والصناعة، وفي ميادين العلوم العقلية والتجريبية كالرياضيات والفلك والفيزياء، فاغترفوا منها بما يتفق مع تقاليدهم وعقيدتهم.

كما أن تلك الشعوب المتباينة في الجنس واللغة والثقافة، لم تكد تدخل في نطاق الثقافة العربية حتىٰ أخذت عناصرها المختلفة تمتزج بالعنصر العربي امتزاجاً قوياً، فإذا بنا إزاء حضارة تتألف من أجناس وعناصر مختلفة، فمضت هذه الأجناس تنصهر في الوعاء العربي حتىٰ غدت كأنها جنس واحد.

نعم لقد تميّز العصر العباسي باختلاط كبير بين الأمم المفتوحة وامتزاجها في السكن والمصاهرة وفي الحياة الاجتماعية والمهن والحرف.. الخ، بحيث غدت أحياء المدن الكبرىٰ تعجّ بالعرب والهنود والأحباش والفرس والترك والأكراد والأروام والأرمن وغيرهم، وبحيث أصبح العربي خالص الدم في بغداد (عاصمة العباسيين) نادراً، فالكثرة الكثيرة من أبناء العرب كانت أمهاتهم من السنديات أو الفارسيات أو الحبشيات أو التركيات، وكذلك الشأن في الخلفاء أنفسهم.

وكان وراء هذا الامتزاج الدموي بين العناصر والشعوب والأقوام المختلفة امتزاج روحي عن طريق الولاء الذي شرعه الإسلام، والسياسة الحكيمة، التي قامت علىٰ التسامح والاحترام المتبادل، فتحول الولاء إلىٰ الكيان الواحد إلىٰ رابطة تشبه رابطة الدم، فالشخص يكون فارسياً أو هندياً أو رومياً أو حبشياً ويكون عربي الولاء، بل إن الرقيق كانوا بمجرد تحريرهم يصبحون موالي لأصحابهم ويُنسبون إلىٰ القبائل العربية مثلهم مثل أبنائها الأصليين.

وهذا الرقيق إنما كان قلة قليلة بالقياس إلىٰ أحرار الموالي الذين كانت تتكون منهم الشعوب المفتوحة، وقد دخل أكثرهم الإسلام، وامتزجوا بأهله من العرب ونعموا بما يكفل للناس من عدل ومساواة، وحتىٰ من لم يعتنق الإسلام من الموالي (من المجوس الصابئة والنصارىٰ غير العرب) أخذ يندمج في المحيط العربي بفضل ما شرعه الإسلام لهم من حقوق اجتماعية وحرية دينية، وبذلك فتحت بينهم وبين المسلمين أبواب التعاون الوثيق -علىٰ مصاريعها- في شؤون الحياة كلها، وحقاً دخل جمهورهم الضخم في الإسلام ولكن دون ضغط أو إكراه أو عنف.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وبذلك استطاع الخلفاء العباسيون -بسياستهم المتسامحة، المنفتحة- أن يحدثوا امتزاجاً قوياً بالعناصر والأقوام والشعوب والجماعات المختلفة التي كانت تتألف منها الدولة، وهو امتزاج لم يبلغوه بامتلاك الأرض المفتوحة، إنما بلغوه باحترام الاختلاف والتنوع والتعدد (١).

وهكذا نرىٰ أن الدولة العباسية باعتمادها علىٰ هذه الشعوب، عملت علىٰ مزجها وصهرها في البوتقة الإسلامية، وهذا الاتحاد هو السر في تلك النهضة العلمية العجيبة التي امتدت من قيام الدولة العباسية إلىٰ نهاية القرن الرابع الهجري، فإن كان للدولة العربية الإسلامية في صدر الإسلام، فضل الفتوح والانتشار والاتصال بالحضارات القديمة مما أدىٰ إلىٰ ظهور المنابت الأولىٰ للحضارة الإسلامية في أواخر عهدها، فإن للدولة العباسية فضل رعاية هذه المنابت الحضارية والعمل علىٰ تنميتها وازدهارها، فالمسلمون نقلوا وترجموا وعربوا هذا التراث القديم إلىٰ لغتهم العربية حتىٰ إذا ما استوعبوا ما نقلوه، أخذوا ينتجون ويبدعون ويضيفون، حتىٰ قدموا للعالم ما عرف بالحضارة العربية الإسلامية، وهي الحضارة التي توفرت لها تلك المزايا الثلاث التي لا تتوفر إلا في الحضارات الكبرىٰ وهي: الامتياز، والأصالة، والإسهام في تطور البشرية.

لهذا أجمع العلماء علي أن الحضارة الإسلامية تحتل مكانة رفيعة بين الحضارات الكبرىٰ التي ظهرت في تاريخ البشرية، كما أنها من أطول الحضارات العالمية عمراً، وأعظمها أثراً في الحضارة العالمية.

وتبدأ هذه النهضة الحضارية في العراق بعد أن أسس الخليفة العباسي "أبو جعفر المنصور" مدينة بغداد (١٤٥- ١٤٩ هـ) وجعلها عاصمة لدولته، ومقراً للخلافة العباسية صاحبة السلطان الشرعي علىٰ جميع الأقطار الإسلامية، فهي لم تكن مثل الفسطاط أو دمشق أو قرطبة، عاصمة قطر بعينه، بل كانت عاصمة العالم الإسلامي كله؛ ولهذا صارت مدينة دولية، واكتسبت صفة عالمية، وسكنتها عناصر من مختلف الأجناس، والملل والنحل، إسلامية وغير إسلامية، فهناك الفرس والهنود والسريان والروم والصينيون وغيرهم.

كما أن العصر العباسي الأول يمتاز عن غيره من العصور بأن من تولىٰ فيه عرش بغداد كان من الخلفاء العلماء، فرغبوا في العلم وإجلال العلماء والأدباء، وسهلوا نزوحهم إليهم، وأجروا الأرزاق عليهم، وبالغوا في إكرامهم وقربوهم وجالسوهم وآكلوهم وحادثوهم، وعولوا علىٰ آرائهم، فلم يبق ذو قريحة أو علم أو أدب إلا يمم دار السلام ونال جائزة أو هدية أو راتباً .

ولا يزهو العلم إلا في ظل أمير يتعهده ، ويأخذ بأيدي أهله ، والناس كما يكون ملوكهم ، وخلفاء العصر العباسي الأول من أكثر الملوك رغبة في العلم؛ فالمنصور كان من أحسن رواة

---

(١) . د. شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الأول، ص ٨٩ . ٩٠.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحديث، وله ذوق عظيم في الشعر ينتقد الشعراء ويعرف المنحول والمسروق، وكذلك ابنه المهدي فقد كان ينتقد الشعراء لكثرة تشبيبهم قبل المديح، وكان يكره الغزل، أما الرشيد فكان أكثرهم رغبة في العلم والعلماء حافظاً للشعر ناقداً للشعراء، وهو مشهور بتقديم الشعراء والأدباء، وابنه المأمون أشهر من أن يذكر بعلمه وفضله، وذكروا له مؤلفات حسنة قد ضاعت، وناهيك بأبناء الخلفاء والأمراء ، فقد اشتغل كثير منهم بالأدب كإبراهيم بن المهدي أول نابغ من بني العباس في الترسل والشعر والموسيقىٰ، ومن الأمراء أبو دلف العجلي الذي كان أديبا وشاعراً وألف في سياسة الملوك والسلاح والصيد، وكان عبد الله بن طاهر شاعراً مترسلاً بليغاً، وكذلك ابنه طاهر.

وكان للوزراء الفرس تأثير كبير في تلك النهضة، والفرس أهل مدنية قديمة، وكانوا يومئذٍ في نهضة علمية بدأت من زمن كسرىٰ أنوشروان، وكان البرامكة علىٰ الخصوص يحبون العلم والعلماء، ويبذلون الأموال في تقريبهم وشحذ قرائحهم، فوقف الأدباء والشعراء علىٰ أبوابهم كما وقفوا بباب الرشيد، وكانت لهم أياد بيضاء في ترجمة العلم القديم إلىٰ العربية (١).

وليس من شك في أن هذا التشجيع كان من أهم الأسباب في ازدهار الحركة العلمية والفكرية، إذ كان من يبزغ نجمه في الحلقات لا يلبث أن يستدعىٰ إلىٰ مقر الخلافة أو دار الولاية أو دور الوزراء، فإذا العطايا تنهال عليه وإذا الرواتب تفرض له شهرياً.

في هذا المناخ الثقافي المؤاتي أخذ كثير من الأفراد يعنون باقتناء المكتبات، وكانوا يوظفون فيها بعض الورّاقين للنسخ، من ذلك مكتبة إسحق بن سليمان العبّاسي، وكانت تمتلئ بالكتب والأسفاط والرقاق والقماطير والدفاتر والمساطر والمحابر، وأضخم منها وأعظم مكتبة يحيىٰ بن خالد البرمكي، إذ قيل إنه لم يكن في مكتبته كتاب إلاّ وله ثلاث نسخ(٢)، وربما فاق هذه المكتبة عظماً وضخامة مكتبة الواقدي المؤرّخ المشهور (المتوفىٰ سنة ٢٠٧هـ/ ٧٨٦م)، وكانت تشتمل علىٰ ستمائة صندوق مملوءة بالكتب(٣)، وكان له مملوكان يكتبان ليلاً ونهاراً(٤)، الأمر الذي يدلّ دلالة أكيدة علىٰ الأهمية القصوىٰ، التي كان يولاها العلم والمعرفة والاطلاع علىٰ تجارب الأمم والثقافات الأخرىٰ.

وكان مجلس المأمون ساحة واسعة للجدال والمناظرة والاطلاع علىٰ ثقافات الأمم وآدابها ومعارفها، وكان مثقفاً ثقافة واسعة عميقة بالعلوم الدينية واللغوية والفلسفية وعلوم الأوائل والشعوب الأخرىٰ، فحوّل مجالسه في دار الخلافة ببغداد إلىٰ ندوات علمية تتناول كل فروع

---

(١). جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ، دار الهلال ، القاهرة ، د. ت. ج٢ ص ١٩ . ٢٠.

(٢). الجاحظ: الحيوان، (٦٠/١).

(٣). ياقوت الحموي: معجم الأدباء ٢٨١/١٨.

(٤). ابن النديم: الفهرست ص١٤٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المعرفة، وفي ذلك يقول يحيىٰ بن أكثم: "أمرني المأمون أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من بغداد، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلاً وأحضرتهم وجلس لهم المأمون فسأل عن مسائل وأفاض في فنون الحديث والعلم"(١).

ويمضي ابن أكثم فيقول: إنه لما انتهىٰ ذلك المجلس طلب إليّ المأمون أنْ أنّوع مجالسه بحيث تكون لكل طائفة من العلماء مجلس، ويعرض طيفور في كتابه "بغداد" كثيراً من هذه المجالس وما طرح فيها من موضوعات مختلفة للجدل والمناظرة، ويصوّر المسعودي ما عاد علىٰ الحركة العلمية من هذه الندوات التي غدت كأنها مجمع علمي كبير، فيقول: "قرّب المأمون إليه كثيراً من الجدليين والنظّارين كأبي الهذيل العلاف وأبي إسحق إبراهيم بن سيار النظام وغيرهما، ممّن وافقهم وخالفهم، وألزم مجالسه الفقهاء وأهل المعرفة من الأدباء وأقدمهم من الأمصار، وأجرىٰ عليهم الأرزاق (الرواتب)، فرغب الناس في صنعة النظر وتعلمّوا البحث والجدل، ووضع كل فريق منهم كتباً ينصر فيها مذهبه ويؤيّد بها قوله"(٢).

وقد كُفلت الحرية الفكرية في هذه المجالس والندوات أو المجامع إلىٰ أبعد حدود ممكنة، بحيث كان كل رأي يعرض للمناقشة العقلية الخالصة، بما في ذلك آراء الزنادقة، كما يذكر الجاحظ، فكلّ شيء يناقش في حرية، وكلّ شيء يعرض علىٰ بساط البحث والجدل.

أما دراسات العلوم اللغوية والنحوية، فقد شهدت العراق فيها ثورة واسعة ضخمة علىٰ أيدي علماء البصرة والكوفة الذين حققوا إنجازات وابتكارات علمية في هذا المجال للحفاظ علىٰ كلام العرب وتقويم اللسان العربي، بعد أن فشا اللحن في كلام المسلمين، نتيجة لاختلاطهم بالأعاجم في البلاد المفتوحة، لهذا قام هؤلاء العلماء بجمع وتدوين ألفاظ اللغة العربية وأشعارها من منابعها الصافية في نجد بقلب الجزيرة العربية، كذلك وضعوا قواعد نحوية للغة العربية، وابتكروا النقط والشكل علىٰ الحروف لمعرفة نطق الكلمات نطقاً سليماً، ولا سيما القرآن الكريم، حتىٰ لا يتعرض للتحريف.

هذا إلىٰ جانب تصنيف المعاجم اللغوية، ووضع علم العروض لمعرفة أوزان الشعر وأحكامه وبحوره، ومن أشهر الرواد الذين حققوا هذه الابتكارات العلمية مع بداية العصر العباسي العالم البصري العربي، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥ هـ/ ٧٩١م) "، وتلميذه وشيخ

---

(١) . طيفور(أحمد بن أبي طاهر): تاريخ بغداد، ص٤٥.

(٢) . المسعودي: مروج الذهب ٤/٢٤٥.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

البصريين بعده العالم الفارسي "أبو بشر عمرو بن عثمان الملقب بسيبويه (ت ١٧٧ هـ/ ٧٩٣ م) ".

ولم تلبث العاصمة بغداد أن شاركت في هذه النهضة العلمية، حيث انتقل إليها عدد من علماء الكوفة والبصرة أمثال "أبي حنيفة"، و"المفضل الضبي"، و "الكسائي"، و"الفراء"، و "ابن السكيت "، بحيث صارت بغداد مسرحاً لمناظرات علمية حامية الوطيس بين أشهر علماء العصر.

وإذا انتقلنا إلىٰ عالم الفنون والعمارة نجد أن العباسيين لم يكونوا أقل اهتماما من الأمويين في مجال التشييد والتعمير، ففي العمارة بنىٰ أبو جعفر المنصور علىٰ نهر دجلة عاصمته بغداد (١٤٥- ١٤٩ هـ) علىٰ شكل دائري، وهو اتجاه جديد في بناء المدن الإسلامية، لأن معظم المدن الإسلامية، كانت إما مستطيلة كالفسطاط، أو مربعة كالقاهرة، أو بيضاوية كصنعاء، ولعل السبب في ذلك يرجع إلىٰ أن هذه المدن نشأت بجوار مرتفعات حالت دون استدارتها، ولعل الخليفة "المنصور" تأثر بهندسة بعض العواصم القديمة مثل مدينة الحضر جنوب غرب الموصل، ومثل مدينة همذان مثلاً، المهم هنا أن خطة المدينة المدورة بغداد، تعتبر ظاهرة جديدة في الفن المعماري الإسلامي، هذا إلىٰ جانب المدن الأخرىٰ التي شيدها العباسيون مثل مدينة سامراء وما حوته من مساجد وقصور خلافية فخمة.

أما فن التصوير، أي رسم الإنسان والحيوان، فبالرغم من أن بعض علماء المسلمين الأولين، اعتبروه مكروهاً إلا أنهم لم يفتوا بتحريمه، والظاهر أن خلفاء بني أمية وبني العباس قد ترخصوا في ذلك؛ إذ توجد صور آدمية متقنة علىٰ جدران قصورهم التي اكتشفت آثارها منذ عهد قريب في شرق الأردن وسامراء،كذلك ورد في كلام المؤرخين أن الخليفة "الأمين " كان لديه قوارب لنزهته في دجلة علىٰ هيئة الأسد والنسر والدلفين، وأن قصر "المقتدر بالله " اشتمل علىٰ تماثيل متحركة لفرسان بخيلها تتقدم وتتأخر كما في الحرب، هذا إلىٰ جانب قبة القصر الخلافي في بغداد التي أقيم في أعلاها علىٰ عهد "المنصور" تمثال لفارس بيده رمح يتحرك في اتجاه الريح، كذلك وصلت إلينا كتب عربية موضحة بالصور الجميلة التي رسمها المصورون المسلمون مثل " الواسطي" وغيره في مقامات "الحريري " وكتاب "كليلة ودمنة".

كذلك ازدهرت الموسيقىٰ وتطورت آلاتها ولا سيما في مدينة بغداد التي صار لها مركز الصدارة والشهرة في هذا الفن، ومن أشهر المغنين والمغنيات في العصر العباسي الأول: "قمر البغدادية" و" إبراهيم الموصلي "، وابنه "إسحاق " وتلميذه "أبو الحسن علي بن نافع "

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

الملقب "بزرياب " الذي هاجر إلىٰ المغرب والأندلس وحمل معه إلىٰ هناك الموسيقىٰ الشرقية التي ما زال تأثيرها باقياً في الموسيقىٰ التي تعرف إلىٰ اليوم في المغرب والجزائر وتونس باسم "الموسيقىٰ الأندلسية"، كذلك برع في دراسة الموسيقىٰ من الناحيتين النظرية والعملية عدد من كبار العلماء وعلية القوم أمثال "الكندي" و"الفارابي" والخليفة "الواثق العباسي"، وكل هذا يدل علىٰ أن الحضارة المزدهرة التي اختصت بها بغداد، قد غذت الروح الإسلامية في مختلف الأقطار غذاء تاماً(١).

أما الأدب، فقد تطور هو الآخر في العصر العباسي تطوراً كبيراً، ونهج الشعراء فيه مناهج جديدة في المعاني والموضوعات والأساليب والأخيلة، وغير ذلك من فنون الشعر المختلفة التي تناسب ما انتشر في العصر العباسي من حضارة وترف ولا سيما في رصافة بغداد أو بغداد الشرقية، ومن أشهر هؤلاء الشعراء "أبو نواس" الذي ذاعت قصائده في الخمر والغزل والصيد.. الخ، و" أبو تمام الطائي" المشهور بنزعته العقلية والفلسفية في الشعر، وتلميذه "أبو عبادة البحتري" صاحب المدائح الخالدة، و"ابن الرومي" المعروف بطول نفسه وغزارة شعره، و" أبو العتاهية" الذي اشتهر بالحكمة والغزل الرقيق، و"المتنبي" الذي اشتهر بالفخر، و"أبو العلاء المعري" شاعر الحكمة، وغيرهم كثيرون.

ويكفي أن نشير إلىٰ ما قاله الخليفة الشاعر "عبد الله بن المعتز" (ت ٢٩٦ هـ) في كتابه "طبقات الشعراء" من أن عدد شعراء الدولة العباسية في أواخر القرن الثالث الهجري فقط بلغ أكثر من مائة وثلاثين شاعراً، هذا إلىٰ جانب الشاعرات والأديبات من النساء اللائي لعبن دوراً هاماً في الحياة الأدبية وفي الأحداث المهمة في المجتمع الإسلامي مثل "رابعة بنت إسماعيل العدوية" التي سلكت طريق الزهد والتصوف والأميرة "علية بنت المهدي" التي وصفها "الحصري" بأنها "لطيفة المعنىٰ، رقيقة الشعر، حسنة مجارىٰ الكلام، ولها ألحان حسان"(٢)، ومثل الأميرة "العباسة بنت المهدي " التي لعب الخيال دوراً كبيراً في القصص التي أحاطت بها، إذ تروىٰ لها

---

(١) . د.خلف محمد جراد: التفاعل الثقافي والحضاري في العصر العباسي مقال بمجلة التراث العربي-مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب-دمشق العدد ٨٠.

(٢) . الحصري: زهر الآداب وثمر الألباب، دار الجيل بيروت (٤٣/١).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أشعار تدل علىٰ ذكاء وحسن تأت للموضوع الذي تقصد إليه، ومثل "عابدة الجهنية" التي قال عنها الصفدي أنها "أديبة شاعرة فصيحة فاضلة "(١).

****

الشعر في العصر العباسي الأول:

لا شك أن الشعر في العصر العباسي الأول قد تأثر بكل ألوان الترف وأشكال الحضارة، وكانت آثار الحضارة في الشعر علىٰ شاكلتين: " الأولىٰ يلتقي فيها الشعر بسائر مظاهر النشاط الاجتماعي في حياة المجتمع البغدادي وأظهر ما فيها تخلص الشعر من طبيعة البداوة إلىٰ حد كبير ، تلك التي لم تكن تعنىٰ إلا بالتعبير الفصيح عن أغراضها ومشاعرها، وأصبح الشعر في بغداد حضريـًا إلىٰ حد كبير يعنىٰ بمظاهر الحضارة من رقة في الطبع وأناقة في المظهر وتناسق بين الأجزاء، وصارت الصناعة وإعمال الفن في الشعر، والعناية بالإخراج الفني عنصراً من أهم عناصر الشعر، بل صار أهم عنصر فيه عند من تشربوا روح الحضارة واندمجوا فيها وأصبحوا جزءاً منها.

علىٰ أن هذا التأثر بالحضارة لم يؤت ثماره دفعة واحدة وإنما بدأ عند بعض الشعراء ثورة علىٰ القديم ثورة جامحة تريد أن ينسلخ منه الشعر جملة واحدة فيعرض عن المعاني الموروثة التي يتناقلها الشعراء تقليداً للأسلاف من دون أن يحسوا بها وأن يشعروا بها، ولم يقيض لتلك الثورة الجامحة أن تحقق ما تريد ولكنها لفتت الشعراء إلىٰ الحياة الحضرية الجديدة، وجذبتهم إليها شيئـًا فشيئـًا، فكان أن أقبلوا عليها يستمدون منها أغراضهم ومعانيهم، ثم أخذ الشعر يمثل الحضارة شيئـًا فشيئـًا، ويأخذ منها ما يلائمه ويقتبس ما يوافقه من الوجهة الفنية، وهو يحتفظ في الوقت نفسه بما يجد أن لا مناص من الاحتفاظ به من القديم، حتىٰ أصبح الشعر يحمل طابع الحضارة في الذوق وفي المظهر والصورة، وأخذ الشعراء يتلمسون من مظاهر الأناقة في الشعر القديم ما يتخذونه أساسـًا لتجميل الشعر والإبداع فيه، وهكذا كان البديع هو الثمرة الحقيقية التي أنتجتها الحضارة في الشعر(٢).

---

(١) . صلاح الدين الصفدي: الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠م ، (٣١٤/١٦).

(٢) . أحمد عبد الستار الجواري: الشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ط/ ٢ المجمع العلمي العراقي ، بغداد ١٩٩١م، ص ١٨٥.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقد ساعد علىٰ هذا التحول أن الشعراء في هذا العصر قد وجدوا "من الخلفاء والأمراء مؤازراً ، ومن الحضارة والطبيعة ناصراً ، ومن القريحة والسليقة مؤاتاة، فجالوا في الشعر جولة لم تتوفر أسبابها لأسلافهم، ونقلوه من البوادي المجدبة والأخبية المُطَنَّبة إلىٰ الرياض الناضرة، والقصور الشاهقة، والمناظر المونقة، علىٰ يد زعيم المولدين بشار.

ولقد عرضت للشعر عوارض أثرت في أسلوبه ومعانيه وأغراضه وأوزانه، فأما التأثير في أسلوبه ، فبهجر الكلمات الغريبة(١)، وعذوبة التركيب ووضوحه، واستحداث البديع والاستكثار منه، وترك الابتداء بذكر الأطلال إلىٰ وصف القصور والخمور والغزل، والإغراق في المدح والهجاء، والإكثار من التشبيه والاستعارة، والحرص علىٰ التناسب بين أجزاء القصيدة، ومراعاة الترتيب في التركيب.

وأما في معانيه فبتوليد المعاني الحضرية، واقتباس الأفكار الفلسفية؛ إذ أكثر شعراء هذا العصر وِلْدان جنسيَّتَيْن، ورضَّاع لغتين وأدبين، وربائب حضارتين مختلفتين، ولهذا اللقاح من الأثر في الفكر والعقل ما يعلل لك وفرة المعاني الجديدة في شعر بشار وأبي نواس وأبي العتاهية وابن الرومي.

ثم نقل العرب علوم اليونان وغيرهم فكان لهذا النقل فضل علىٰ الشعر في معانيه لا في فنونه؛ لأنهم لم يترجموا إلا كتب العلم والحكمة ، ولم يحفلوا بشعر اليونان وقصصهم ، ولا بشعر اللاتين وخطبهم؛ تعصباً لأدبهم ، وإيثاراً لشعرهم ، فلم تؤثر الترجمة في الشعر إلا بما دخله من الخواطر الفلسفية والسياسية والآراء العلمية في شعر أبي تمام والمتنبي وأبي العلاء وأضرابهم.

وأما في أغراضه فبالمبالغة في نعت الخمر ومجالسها، ووصف الرياض والصيد، وغزل المذكر، والمجون ، والوعظ والزهد، والأخلاق، والفلسفة، وضبط العلوم كالنحو وغيره.

وأما في أوزانه فبالإكثار من النظم في البحور القصيرة، وابتداع أوزان أخرىٰ، كالمستطيل والممتد وهما عكس الطويل والمديد، والموشح والزجل، والدوبيت والمواليا، وكذلك في القافية كالمُسَمَّط والمُزدَوَج"(٢).

يقول الدكتور طه حسين : "تطورت الحياة السياسية والاجتماعية والأدبية في العصر العباسي الأول تطوراً ملحوظاً خسرت فيه الأخلاق، وربح الأدب؛ فلم يعرف العرب عصراً كثر فيه المجون ، وأتقن الشعر التصرف في فنونه وألوانه ، كهذا العصر ، ثم كان من كثرة المجون ، أو

---

(١) . لم يهجر أبو تمام الكلمات الغريبة بل كان يتعمد الإتيان بها ليعطي لتراكيبه ثقلاً وغموضاً حتى يتميز عن شعراء عصره، وقد ساعده على ذلك مخزونه الزاخر من التراث القديم، بالإضافة إلى ما أدخله من مصطلحات حديثة.

(٢) . أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي ، دار نهضة مصر ، القاهرة ص٢٥١ . ٢٥٢.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

بعبارة أصح ، كان من فساد الخلق في ذلك العصر والعصور التي تلته ، أن ظهر فن جديد من الغزل لم يكن معروفاً في الجاهلية ، ولا في صدر الإسلام ، ولا في أيام بني أمية ، وإنما هو أثر من آثار الحضارة العباسية ، هو أثر أنشأته هذه الحضارة الفارسية عندما خالطت العرب، أو عندما انتقل العرب إليها ، فاستقر سلطانهم في بغداد ، وهذا الفن الجديد هو (الغزل بالغلمان)(١).

******

(١) . د. طه حسين: حديث الأربعاء، ط/ ١٤ دار المعارف ، مصر (٢/ ٣٢).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

الباب الثاني

حياة أبي تمام

الفصل الأول

اسمه ونسبه

اسمه ونسبه: هُوَ أبو تمام حبيب بْن أوس بْن الحارث بْن قيس بْن الأشج بْن يَحْيَىٰ ابْن مزينا بْن سهم بْن ملحان بْن مَرْوَان بْن دفافة بْن مر بْن سَعْد بْن كاهل بْن عَمْرو بْن عدي بْن عَمْرو بْن الحارث بْن طيء، (وَاسمه جلهم) بْن أدد بْن زيد بْن يشجب بْن عريب بْن زيد بْن كهلان بْن سبأ بْن يشجب بْن يعرب بْن قحطان(١).

وقد اختلف المؤرّخون اختلافاً بيّناً في أصل أبي تمّام ؛ فأبو الفرج الأصفهاني والصولي يذكران أنّ أبا تمّام من نفس طيء صلبية، واسمه حبيب بن أوس ، وكذلك يفعل ابن خلكان ويعدّد

---

(١) . الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، تحقيق: د. بشار عواد معروف ، دار الغرب الإسلامي –بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢ م، (١٥٧/٩)، وانظر ترجمته في: وفيات الأعيان (١٥٣/١)، وتهذيب التاريخ الكبير (١٨/٤)، وطبقات الشعراء لابن المعتز ٢٨٣، والأغاني (دار الكتب) (١٦/ ٣٨٣)، والموشح للمرزباني (٣٠٣)، وشذرات الذهب (٧٢/٢)، ومرآة الجنان (١٠٢/٢)، والموازنة بين الطائيين للآمدي، وأخبار أبي تمام للصولي، وهبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام للبديعي، ومن حديث الشعر والنثر لطه حسين، والفن ومذاهبه في الشعر العربي لشوقي ضيف٢١٩، وأبو تمام حياته وحياة شعره للبهبيتي، وأبو تمام شاعر الخليفة المعتصم بالله لعمر فروخ، وغيرها.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

جدوده حتىٰ يصل به إلىٰ طيء ثم إلىٰ قحطان، وذهب قوم آخرون إلىٰ أنّ أبا تمّام لم يكن عربيّـًا من طيء ، وإنّما كان أبوه نصرانيّـًا اسمه تدوس العطّار، ثم انقلبت تدوس إلىٰ أوس حتّىٰ توافق التّسمية العربيّة الّتي تجعل نسبه ينتهي إلىٰ طيء .

وأول من شكك في نسب أبي تمام هو مخلّد بن بكار الموصلي إذ هجاه بقصيدة يقول فيها:

أنت عندي عربيٌّ الأَصْلِ ما فيكَ كلامُ
عربيٌّ عربيٌّ أَجَإِيٌّ ما تُرامُ
شَعْر فَخْذَيْكَ وساقَيْكَ خُزَامَي وثُمَامُ
وضلُوعُ الشِّلوْ مِنْ صَدْ رِكَ نبعٌ وبَشَامُ
وَقَذَىٰ عينيْكَ صَمْغٌ وَنَواصِيكَ ثَغَامُ
لو تحركْتَ كذا لانْـ ـجَفَلَتْ منكَ نَعامُ
وظِبَاءٌ مُخْصِبَاتٌ ويَرَابِيعُ عِظَامُ
أَنَا ما ذنْبي إِنْ خَا لفَنَي فيكَ الأَنَامُ؟
وَأَتَتْ مِنكَ سَجايَا نَبَطِيَّاتٌ لِئَامُ
وَقَفَا يَحْلِفُ أَنْ مَا عَرَّقَتْ فِيكَ الكِرَامُ
ثُمَّ قَالُوا: جَاسِمِيٌّ مِنْ بَنِي الأَنْبَاطِ خَامُ
كَذَبُوا، مَا أَنْتَ إلاَّ عَرَبِيٌّ مَا تُضَامُ
بَيْتُهُ مَا بَينَ سَلْمَىٰ وَحَوَالَيْهِ سِلاَمُ
وَلَهُ مِنْ إِرْثِ آبا ءٍ قِسِيٌّ وَسِهَامُ
وَنَخِيلٌ بَاسِقَاتٌ قَدْ دَنَا مِنْهَا صِرَامُ
أَنْتَ عِنْدِي عَرَبِيٌّ عَرَبِيٌّ وَالسَّلاَمُ(١)

وقال في قصيدة أخرىٰ :

انْظُرْ إِلَيْهِ وَإِلَىٰ خُبْثِهِ كيفَ تَطَايا وَهْوَ مَنْشُورُ
ثُمَّ عَلَىٰ طَاقٍ شَخِيتِ الْقُوَىٰ نِسْبَتُهُ وَاللُّؤْمُ مَضْفُورُ

(١) . أبو بكر الصولي: أخبار أبي تمام ، تحقيق: خليل محمود عساكر وزميليه ، ط/٣ دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٨٠م، ص ٢٣٥ . ٢٣٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

وَيْلكَ، مَنْ دَلاَّكَ في نِسْبَةٍ قَلْبُكَ مِنْهَا الدَّهْرَ مَذْعُورُ
لَوْ ذُكِرَتْ طَاءٌ عَلَىٰ فَرْسَخٍ أَظْلَمَ في نَاظِرِكَ النُّورُ(١)

وقال الصولي: وجدت في كتبي:وقال الوليد يهجو أبا تمام، وهي قصيدة اخترت منها:

دَعِ الهِجَاءَ فإِنَّ اللهَ حَرَّمَهُ وَاقْصِدْ إِلَىٰ الَحقِّ إنَّ الحَقَّ مُتَّسِع
وَاذْكُرْ حَبيبَ بْنَ أَوْشُونَا وَدِعْوَتَهُ فإنّ طَيّـاً إذَا سُبُّوا بِه جزَعُوا
إنْ يَقْبَلُوكَ أَبَا النُّقْصَانِ يَحْتَقِبُوا عَاراً وتَخفِضُ منهُمْ كلَّ مَا رَفَعُوا
لَوْ أَنَّ عَبْدَ مَنَافٍ في أَرُومِتِهِمْ تَقَبَّلُوكَ لَمَا ضَرُّوا وَلاَ نَفَعُوا
وَإِنْ نَفَوكَ كما يَنفُونَ كَلْبَهُمُ عَنِ الصَّمِيمِ أَصَابُوا الحَقَّ وَانْتَفَعُوا
إِنْ يَرْقَعُوا بِكَ خَرْقاً في أَدِيمِهِمِ قالَ العِبَادُ جَمِيعـاً: بِئْسَما رَقَعُوا
مِرْبَاعُ قَوْمكَ نَاقُوسٌ وَشَمْعَلَةٌ فَاذْكُرْ مَرَابِيعَهُمْ فِيهَا إِذَا ارْتَبَعُوا
ولَوْ تُنَاطُ بِطَيٍ كُلُّ مُخْزِيَةٍ لكُنْتَ أَخْزىَ لَهمْ منْهَا إذا اجتْمَعُوا
إِنِّي هَجَوتُكَ عَنْ عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ بِأَنَّ شِعْرَكَ قَدْ أَوْدَىٰ بِهِ الفَزَعُ
إنّ القُرُومَ إِذَا أَبْدَتْ شَقَاشِقَهَا لِلْهَدْرِ لَمْ يَدْنُ منْ أَعْطَانِهَا الْهُبَعُ(٢)

ولعل هذه الأبيات التي أوردناها كانت سبباً في تشكك بعض النقاد والمؤرخين القدامىٰ في اسم أبي تمام ونسبه، وقد تبعهم في هذا بعض المستشرقين الذين حلا لهم أن يثبتوا يونانيته، وسار علىٰ نهجهم بعض الأدباء والنقاد العرب المحدثين.

يقول أحد الباحثين: "حاول كثير من المستشرقين التشكيك في أصالة الحضارة الإسلامية، وجعلها عالة علىٰ" المعجزة اليونانية"، وقلّما يخلو كتاب يؤرِّخ للفكر الإسلامي العربي من الإشارة إلىٰ حضور الثقافة اليونانية فيه، وذهبتْ فئة من الباحثين تمثَّلتْ روح الاستشراق، إلىٰ أن التجديد في الأدب العربي؛ كان بتأثير من الثقافة اليونانية التي اخترقت الثقافة الإسلامية العربية،

(١) . الصولي: أخبار أبي تمام ، ص٢٣٦.
(٢) . أخبار أبي تمام ، ص ٢٤٢ . ٢٤٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

ووقع الاختيار علىٰ أبي تمام باعتباره أكبر محطة للتجديد في الأدب العربي، وتمّ ربطُ عبقريته بالعبقرية اليونانية"(١).

وقد تولّىٰ مرجليوث تحرير (مادّة أبي تمام) في "دائرة المعارف الإسلامية"(٢) ولمّا وجد أبا بكر الصولي في كتابه (أخبار أبي تمام) ينقل خبراً فحواه أن أبا تمام"هو حبيب بن تدوس النصراني، فغُيِّرَ فصار أَوْسـًا"(٣)؛ اعتبر مرجليوث إن اسم تدوس اسما مختصراً عن ثيودسيوس؛ أي أنه يوناني الأصل، وذلك بإرجاع اللفظ إلىٰ أصله؛ اعتمادا علىٰ التشابه في مبنىٰ الاسميْن، وخضوعا للمنهج الفيلولوجي، ومن هنا أوحىٰ مرجليوث للقارئ العربي بأن أبا تمام يونانيّ الأصل.

وبالرغم من أن المستشرق الألماني كارل بروكلمان (١٩٥٦م) ذكر أن اسم تدوس يشيع بين النصارىٰ السريان؛ إلاّ أن د. طه حسين تمسّك بتأويل مرجليوث للاسم، فاعتبر أبا تمام يونانيَّ الأصل.

أما د. عمر فروخ الذي سبق له أن ألف كتابا بعنوان (أبو تمام) سنة ١٩٣٥م، ففي سنة ١٩٦٤م ظهر له كتاب بعنوان (أبو تمام شاعر الخليفة المعتصم بالله)، تبين له فيه أن رأس الأسرة التي خرج منها أبو تمام كان "رجلاً نصرانيـًا اسمه (تدوس) العطار ، ولهذا الاسم قراءات مختلفة: تدوس ، تدرس، ندوس إلخ، لعل أقربها إلىٰ الصواب ثدّوس (ثاذوس) المجزوءة من ثيودوسيوس

---

(١) . عباس أرحيلة : أبو تمام ومسألة التأثير اليوناني ، مقال منشور بمجلة المنهل السعودية، جمادى ١ – ٢، ١٤١٦ / أكتوبر – نوفمبر ١٩٩٥، ص٤٤ – ٥١.

(٢) . دائرة المعارف الإسلامية بالإنجليزية Encyclopedia of Islam موسوعة أكاديمية تعنى بكل ما يتّصل بالحضارة الإسلامية ، سواء من الناحية الدينية أو الثقافية أو العلمية أو الأدبية أو السياسية أو الجغرافية على امتداد العصور، بما في ذلك العصر السابق للإسلام، ولا تتناول الموسوعة مقالاتها من وجهة نظر إسلامية وإنما تتبنى منهجاً علمانياً كما أن بعض كتابها كان ينكر بصراحة أصل سماوية الدين الإسلامي، ولهذا اتهمهم بعض المسلمين بأنهم يفتقدون النزاهة والموضوعية في تناول أمهات القضايا الإسلامية، خصوصاً ما يمتّ إلى أصوله العقائدية بصلة، وأنهم في طريقة تناولهم لها يهدفون إلى زرع الشكّ بصحة سماوية الدين الإسلامي، وصحة نزول الوحي الإلهي فيه على النبي محمد، وقد ذكر ستيفن همفري Stephen Humphreys أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة كاليفورنيا – سانتا باربارا في كتابه "التاريخ الإسلامي: إطار البحث" Islamic History: A Framework for Inquiry ما يلي: "دائرة المعارف الإسلامية مؤلفة بالكامل من قبل باحثين أوروبيين و هي لا تعبر إلا عن النظرة و المفهوم الأوروبي للحضارة الإسلامية، وتتناقض هذه المفاهيم و تختلف اختلافا كبيرا عن المفاهيم التي يؤمن بها و يتبعها المسلمون أنفسهم، و ما ذكر في هذه الموسوعة لا يتوافق مع التعاليم و المبادئ الإسلامية للمراجع الإسلامية كالأزهر بل يتناقض معها"، وقد ظهر كثير من الكتب التي تبين أخطاءها ومثال على ذلك كتاب دائرة المعارف الإسلامية – أضاليل و أكاذيب للدكتور إبراهيم عوض. و هذا الكتاب صدر عام ١٩٩٨.

(٣) . أبو بكر الصولي: أخبار أبي تمام، ص٢٤٦ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

اليونانية في الأغلب ، ويبدو أن ثدوس هذا كان من الجالية الرومية (اليونانية البيزنطية) التي كانت في الشام (سورية) قبل الفتح الإسلامي، أو أنه جاء إلىٰ الشام بعد ذلك"(١).

ورأىٰ الباحث أن الثقافات الأجنبية عرفت ازدهاراً علىٰ عهد أبي تمام، "وكان أظهرُ هذه الثقافات في شعر أبي تمام الثقافة اليونانية، ولا عجَب، فقد كانت الزي الشائع بعد المأمون (...) ولعل هذه الثقافة كانت أقرب إلىٰ عقلية أبي تمام ربما لصلة نسبه بالروم، وهو لم يتحرر من بيئته اليونانية إلا يوم أسلم دون أفراد أسرته"(٢).

والباحث بهذا يُزكّي ظن مرجليوث، ود. طه حسين، ويجعل عبقرية أبي تمام تنحدر من أصله اليوناني!

لقد اعتقد د. طه حسين "أن تأثير الهيلّينيّة في الأدب العربي إنما بلغ غايتَه علىٰ أيدي الشعراء والكتاب الذين كانوا من أصل أعجمي، وكانوا قد تأثروا بالآداب اليونانية تأثراً ما، فأصبحوا يستمدون وحيَ قرائحهم من الآداب اليونانية؛ إمّا مباشرة بالأخذ عن الأصول اليونانية أو من طريق غير مباشر؛ بالاطلاع علىٰ ما نُقِلَ إلىٰ اللغة العربية من التآليف اليونانية المختلفة، ولنُمثِّلْ لذلك بأبي تمام، وإن مَن ينظر في شعره مع ذلك يَجِدْه مباينـًا مُباينةً واضحةً للشعر العربي المعروف لذلك العهد (...). وهو شعرٌ نلحظُ الأثر اليونانيَّ ماثلا فيه من غير مِراء"(٣).

ويرىٰ د. طه حسين أن الجَهْبَذَة بالفصاحة العربية أُخِذَتْ أصولُها من البيان اليوناني! إلا أنه لم يُحدِّد لنا تلك الأصول اليونانية التي استمدَّ منها الكتاب والشعراء العباسيون! ولم يُشر إلىٰ تلك التآليف اليونانية المختلفة التي أَلْهمتْ القرائح العربية!

وفي كتابه "من حديث الشعر والنثر" الذي نشره سنة ١٩٣٦م، عاد إلىٰ يونانية أبي تمام، وإلىٰ اجتهاد مرجليوث في (دائرة المعارف الإسلامية)، فقرر مرة أخرىٰ أن أبا تمام يونانيُّ الأصل، وأن أباه ثيودوس كان نصرانيـًا يبيع الخمر في دمشق، وأن ابنه نشأ في حجره نشأة نصرانية(٤)، ولما رجع د. طه حسين إلىٰ المصادر العربية، وجد أبا الفرج الأصفهاني (نحو ٣٦٢ هـ) صاحب "كتاب الأغاني" يعتبر أبا تمام عربيـًا صليبة من طيء، وليس منها بالولاء.

---

(١) . عمر فروخ: أبو تمام شاعر الخليفة المعتصم بالله دراسة تحليلية، بيروت ١٩٦٤م، ص ٢٢.

(٢) . المرجع السابق ، ص ٤٧.

(٣) . تمهيد في البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر (مقدمة نقد النثر المنسوب خطأ إلى قدامة بن جعفر، حققه: د. طه حسين وعبد الحميد العبادي– ط٢ المكتبة العلمية، بيروت ١٩٨٠، ص٨ – ٩.

(٤) . د. طه حسين: من حديث الشعر والنثر، ط١، دار المعارف، القاهرة ١٩٣٦، ص٩٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وخوفاً من أن تنهار أطروحة يونانية أبي تمام، راح د. طه حسين ينفي عن أبي تمام عروبَتَه؛ متشبثاً بحجة يراها لا تخلو من قوة؛ وهي أن "النسب الذي بينه وبين طيء لا يعدو إلا عشرة رجال فقط، علىٰ أنه ينبغي أن يكون بينه وبين طيء ستة عشر رجلا لا عشرة رجال فقط، فهؤلاء الستة قد سقطوا، ومن الغريب أن يسقطوا؛ لأن الحرص علىٰ الأنساب في عصره كان شديداً جدا"(١).

وهكذا ألهمه هذا الخبر الذي ساقه ابن خلكان(٦٨١هـ) في "وفيات الأعيان" أن نسَبَه في طيء، قد صُنع، وأن الذي صنعه قد تعجَّلَ صنعتَه، ولم يكن علىٰ علم باختراع الأنساب"(٢).

بهذا الحرص علىٰ توافر ستة عشر رجلا في النسب، لا عشرة فقط؛ أراد د. طه أن يجعل أبا تمام ربيب الهلّينيّة، ينشأ في حجر ثيودوس اليوناني نشأة نصرانيةً حتىٰ تكون عبقريته استمدّتْ وجودها من أصله اليوناني! ويبدو أن الإبداع مرتبط في ذهن د. طه حسين باليونان! وكأن الإبداع لا يمكن أن يصدر عن عربي من طيء!

وقد ربط د. طه حسين شاعرية أبي تمام ببغداد ليقترب به من العقلانية، ويؤكِّد أصله اليوناني بصفاته العقلية والنفسية، إن الحاجة إلىٰ العقل عند أبي تمام يُوهم أن مصدرَ ذلك يرجع إلىٰ أصله اليوناني، وأن مبايَنةَ شعره للشعر العربي، واختلافه عن سابقيه ومعاصريه في تصوره للشعر، وميله إلىٰ المعاني الفلسفية، من أهم الأمور التي جعلت د. طه حسين يعتبر أبا تمام نموذجاً للتأثير اليوناني.

أما الدكتور (شوقي ضيف) فقد حاول أن يتخلّص من يونانية أبي تمام في كتابه (الفن ومذاهبه في الشعر العربي) – وهو البحث الذي أنجزه تحت إشراف د. طه حسين – بقوله:"وإذا صحّ ما تزعمُه (دائرة المعارف الإسلامية) من أن اسم أبيه ثيودسيوس، تَسَرَّب إلىٰ نفوسنا ضربٌ من الظن بأنه يوناني"(٣).

ولاحظ أن ثقافته كما تُطلبُ في الفلسفة وعلم الكلام والنحو، تُطلب أيضا في التاريخ والفقه وأبحاث العقائد والنحل المختلفة علىٰ نحو ما نرىٰ في شعره(٤).

---

(١). من حديث الشعر والنثر، ص ٩٤.

(٢). المرجع السابق ، نفس الصفحة.

(٣). د. شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي – ط٣، ص١٤٧

(٤). المرجع السابق ، ص ١٤٨.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وما أن تحرّر د. شوقي ضيف من ذلك "الظن" حتىٰ قال إن نصرانية أبيه لا تنفي عن أبي تمام عروبتَه وطائيتَه؛ إذ كانت النصرانية شائعة في طيء، وتأكّد لديه في كتابه (العصر العباسي الأول)، أن "جمهور من ترجموا له من الثِّقات يذهبون إلىٰ أنه طائي صلبية، ويشهد لذلك فخرُه المضطرم بطيء، وأنه اختار منها أكثر ممدوحيه، ونوّه تنويهاً عظيماً بمن سجلوا لها في عصره أمجاداً حربية، مما يدل علىٰ أنه طائيّ عريقٌ وعربيّ أصيل"(١).

وهكذا رفض د. شوقي ضيف أن يكون أبو تمام يوناني الأصل، ومن هنا رفض ظن د. طه حسين الذي بناه علىٰ ظن مرجليوث.

ويحاول الأب "لويس شيخو" إثبات نصرانية أبي تمام فيقول: "رأيت أن الدكتور " رمضان ديك" أعلن في نسخة من حماسة أبي تمام أن أبا تمام كان نصرانياً، وفي قوله هذا نظر:

أولاً: اتفق مَن ذكر والد أبي تمام كالصولي والآمدي أنه كان نصرانياً فلا بد أن ابنه حبيباً ولد ونشأ علىٰ دينه ، ومن هذا القبيل يجوز القول أن أبا تمام كان نصرانياً.

ثانياً: لنا في اسمه حبيب وهو من الأسامي الشائعة بين النصارىٰ ، النادرة بين المسلمين ما يدل علىٰ نصرانيته.

ثالثاً: وليس في نسبته إلىٰ طيء ما ينفي نصرانيته ، فقد أثبتنا في كتابنا (النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية) شيوع النصرانية في قبيلة طيّ وثبات قسم كبير من بطونها علىٰ نصرانيتهم حتىٰ بعد الإسلام بزمن طويل .

رابعاً : وفي مزاولته في حداثته الحياكة والسقاية ما يدل علىٰ خموله بسبب دينه.

خامساً: ثم ليس لنا كلام صريح لأحد رواة ترجمته ما يدل علىٰ جحوده دينه النصراني.

ثم يتوصل من خلال هذه المقدمات إلىٰ النتيجة التي يرتضيها والتي بذل الجهد من أجل إثباتها فيقول: " هذا ما يحملنا علىٰ القول بنصرانية أبي تمام".

غير أن الأب "لويس" حينما اصطدم ببعض النصوص الشعرية التي تدل بما لا يدع مجالاً للشك علىٰ إسلام أبي تمام وقف متحيراً لكنه لم يعدم حجة في طمس نور هذه الحقيقة ، فيقول في خبث: "علىٰ أن في ديوانه عدة أبيات تشعر بأنه يدين بالإسلام فحيناً يحلف بالبيت الحرام ، ويقول إنه حج إليه ، وحيناً آخر يذكر نبي العرب ودين الإسلام كأنهما نبيه ودينه ، وإذا ذكر الروم نبذهم بالشرك والكفر، ويعظم القرآن ، وهذا كله لمما يثبت إسلامه، فلا نرىٰ تطبيقاً بين الأمرين إلا أن

(١). د. شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول – ط١٦ دار المعارف، القاهرة ٢٠٠٤م، ص٢٦٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

نقول أنه لما أصاب حظوة عند الخلفاء وعند وجوه الأمراء وكبار الدولة عدل عن دينه إلىٰ الإسلام مجاملة أو طمعاً بحطام الدنيا"(١).

وهكذا جنح فريق من المستشرقين والباحثين العرب نحو التشكيك في عروبة أبي تمام ، بل في إسلامه أيضاً ، مستندين إلىٰ جملة ألقاها الصولي في كتابه "أخبار أبي تمام" أو إلىٰ ظن زعمه مرجليوث، أو إلىٰ افتراض وهمي افترضه بعضهم في أن نسبه غير مكتمل إذ سقط منه ستة أسماء، غير أن فريقاً من الباحثين دافع دفاعاً مستميتاً عن عروبة أبي تمام وعن إسلامه، ومنهم الدكتور "نجيب محمد البهبيتي" الذي أنكر أن يكون أبو تمام يوناني الأصل، ويرىٰ أنه عربي صريح، وإذا كان أبوه نصرانياً فإن هذه النصرانية لا تتعارض مع طائيته، وهو يعتذر عن ذلك بقوله : "فقد رأينا من قبل كيف كانت النصرانية في طيء، وكيف بقيت فيهم بعد الإسلام"(٢)، وأخيراً بعد أن يجادل البهبيتي في عشر صفحات كبيرة عن نصرانية أبي تمام وطائيته يعود فينكر أن يكون أبو تمام أو والده نصرانيين، ويقول: "ودعك من نصرانية أبيه، فما كانت إلا من افتراء خصوم أبي تمام"(٣).

وكذلك دافع د. مصطفىٰ الشكعة عن عروبة أبي تمام قائلاً: "وذهب الذين باعدوا بينه وبين نسبه الطّائي إلىٰ أنّ أباه كان خمّاراً بدمشق ، ولكنّ دليلاً واحداً علىٰ عدم (طائيّة) أبي تمّام لم يرتفع إلىٰ درجة كافية من الإقناع، والمسألة في واقعها قد وجدت ارتياحاً في خاطر بعض المستشرقين الذين يحلو لهم أن يباعدوا بين كلّ نابغة فذ وبين عروبته ، علىٰ أنّ مجتمع الطّائيّين وبخاصّة الأعلام منهم قد أوسعوا له من صدورهم ووضعوه في صدر مجالسهم، وأظهروا الرّضىٰ لقرابته إليهم ، ثم زاد العلماء علىٰ ذلك بأن قالوا : خرج من قبيلة طيء ثلاثة ، وكلّ واحد منهم مجيد في بابه ، حاتم في جوده ، وداود بن نصير الطّائي في زهده ، وأبو تمّام في شعره.

علىٰ أنّ أبا تمّام كان يهتمّ بالأدب والعلم أكثر من اهتمامه بالنّسب ولعلّ ذلك من الوضوح بمكان في أبياته التي يهجو بها عبّاس بن لهيعة حين يقول

بني لهيعة ما بالي وبالُكم ... وفي البلاد مناديح ومضطرب

لحاجة بيَ فيكم ليس يُشبهُها ... إلا لحاجتكم في أنّكم عرب

كذبتُمُ ليس ينبو من له حسب ... ومن له نسب عمّن له أدبُ

---

(١). لويس شيخو: شعراء النصرانية بعد الإسلام ـ القسم الثالث، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت ١٩٢٦م، ص ٢٥٨.

(٢). أبو تمام الطائي: حياته وحياة شعره ، القاهرة ١٩٤٥م، ص ٢٩.

(٣). المرجع نفسه، ص ٦٢.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لقد كان أبو تمّام بحكم ثقافته الواسعة يرىٰ أنّ رباط الثقافة في جوهره ربّما فاق رباط القبيلة والأسرة ، إنّ أحداً من الذين مدحهم أو كان علىٰ صلة به لم ينكر نسبته في طيء وأوّلهم المعتصم نفسه ، فلقد علّق المعتصم علىٰ ـ ضعفه في العربيّة ـ علىٰ شعر أبي تمّام موجّهاً خطابه إلىٰ القاضي ابن أبي دؤاد قائلاً : الطّائي بالبصريّين أشبه منه بالشّاميّين.

وكان الشعر والأدب ظاهرة طبيعية في أسرة أبي تمّام فقد كان له أخ اسمه سهم، وكان سهم هذا شاعراً وإن لم ترق شاعريّته إلىٰ مقام شاعريّة أخيه، فمن شعر سهم قوله:

ونازعته شيئاً إليّ مبغضاً فلما رأىٰ وجدي به صار يعشقُه

فدعه ولا تحزن علىٰ فائز به فإن جديدات الليالي ستخلقُه

إن أسرة تخرج شاعرين أخوين في وقت واحد يصعب من وجهة نظر الكثيرين أن تكون نبطية ، ولكن حرص أبي تمام علىٰ وشائج الثقافة وجعلها نسباً يربطه بالناس أكثر من رباط القبيلة قد شجّع الطاعنين في نسبه علىٰ السير في طعنهم هذا شوطاً بعيداً(١).

وخلاصة القول فإن أبا تمام هجاه أحد معاصريه فجعله نَبَطِيّاً، واعتبره جل الباحثين عربياً، وجعله المستشرق الألماني سريانياً، وأرجعه مرجليوث إلىٰ أصل يوناني، وتلقف د. طه حسين هذا فقرر يونانيته، وغايته أن يُثبت بذلك حضور الهيلينية في الأدب العربي، وأن يربط ظاهرة التجديد في الأدب العربي بتأثير الثقافة اليونانية.

عروبة أبي تمام:

ينطلق المشككون في عروبة أبي تمام من عدة نقاط تتلخص فيما يلي:

١ ـ الاستناد إلىٰ الخبر الذي أورده الصولي (وقال قوم: هو حبيب بن تَدوس النصراني، فَغُيِّر فصُيِّر أوساً)(٢).

٢ ـ الاستناد إلىٰ أبيات مخلد بن بكار الموصلي والتي يهجو فيها أبا تمام، ويطعن في نسبه.

٣ ـ اعتماد سلسلة النسب الواردة في كتاب "وفيات الأعيان" لابن خلكان ، وهي سلسلة ناقصة، سقط منها سبعة أسماء.

---

(١) . د. مصطفى الشكعة: الشعر والشعراء في العصر العباسي، ط/٦ دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٦م، ص ٦٣٢ . ٦٣٣.

(٢) . أبو بكر الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ٢٤٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٤ ـ المهنة الحقيرة التي كان يمتهنها والد أبي تمام، فبعضهم يرىٰ أنه كان عطاراً ، وبعضهم حرفها فقال خمّاراً ، وانطلقوا يشككون من خلالها في إسلامه وعروبته، إذ لو كان عربياً مسلماً لما امتهن هذه المهن الحقيرة.

٥ ـ الثقافة الفلسفية التي تجلت في شعر أبي تمام، جعلت البعض يردونها إلىٰ أصول يونانية، زعما منهم بأن هذه العبقرية وتلك العقلية الفلسفية لابد وأن يكون لها أصول يونانية انطلاقاً من مقولات هيبوليت تين النقدية والتي يرىٰ فيها أن البيئة والجنس تؤثران في تكوين العباقرة والمبدعين، وكل جنس بشري له صفات وخصائص فسيولوجية ونفسية مختلفة عن الجنس الآخر.

أما عن النقطتين الأولىٰ والثانية ، فليس غريباً أن يكون لأبي تمام حساد ومبغضون، يضعون الأكاذيب ، ويروجون الشائعات حنقاً وغيرة لا سيما بعد المكانة والمنزلة التي وصل إليها أبو تمام، وهي منزلة لم يصل إليها أحد من الشعراء في عصره، حتىٰ قيل: "ما كان أحد من الشعراء يقدر أن يأخذ درهما واحداً في أيام أبي تمام، فلما مات أبو تمام اقتسم الشعراء ما كان يأخذه"(١).

وإن أبا تمام بنفسه الأبية ، ووقته الممتلئ بالتفكير والإبداع وابتكار كل جديد، وطموحه الذي ليس له حد، لم يشغل نفسه بالرد علىٰ هذه الأكاذيب، وتلك الافتراءات التي لا تحط من قدره ولا تنزل من شأنه، فهو شاعر الكتاب والقواد والأمراء والخلفاء، إنه الشاعر الرسمي والرئيسي للدولة الإسلامية علىٰ اتساع أطرافها وبعد مراميها.

يقول أبو بكر الصولي: "وكان أبو تمام لا يجيب هاجياً له، لأنه كان لا يراه نظيراً له ولا يشتغل به.

وقال أبو العشائر الأزدي الشاعر: حدثني أبي قال: قلت لأبي تمام: ويحك قد فضحنا هذا الموصلي بهجائك فأجبه، قال: إن جوابي يرفع منه، وأستدر به سبه، وإذا أمسكت عنه سكتت شقشقته، وما في فضل مع هذا عن مدح من أجتديه"(٢).

فأبو تمام لا يريد أن يضيع وقته سدىٰ، ويبدد جهده فيما لا طائل وراءه، فلديه من الآمال وجلائل الأعمال ما يشغله عن هذه الترّهات.

وما علمنا أحداً قبل مخلد الموصلي طعن في نسب أبي تمام ، وإنما هي الغيرة ، لأن أبا تمام قضىٰ فترة في الموصل قبل أن يعرفه المعتصم بالله ويقربه إلىٰ مجلسه، أيام كان متخفياً عن الخليفة المأمون بسبب قصيدته في مدح العلويين.

---

(١) . المرجع السابق ، ص ١٠٤ . ١٠٥.

(٢) . أخبار أبي تمام ، ص ٢٤١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وهب أن أبا تمام لم يكن عربياً كما يدعي بعضهم ، أما كان في استطاعته أن يعلن شعوبيته كما أعلنها من قبل أستاذه المباشر (ديك الجن)، وأستاذه غير المباشر (أبو نواس)، لقد بلغت الشعوبية مداها في عصر المأمون الذي أتىٰ محمولاً علىٰ أعناق الفرس، ورأينا الشعراء غير العرب يعلنونها صريحة كأنما العروبة سُبّة.

ولا أظنه كان عربياً بالولاء كما يدعي بعضهم ، لأن الفرع دائما يحن إلىٰ أصوله وجذوره، فهاهو بشار بن برد يعترف بفضل قبيلة بني عامر عليه ، تلك القبيلة العربية التي كان ينتمي إليها بالولاء ، لكنه مع ذلك يعلن ولاءه الأصلي لجذوره الأصلية الفارسية، يقول بشار:

نمت في الكرام بنو عامر فروعي وأصلي قريش العجم

ونحن لم نجد في ديوان أبي تمام بيتاً واحداً يحن فيه إلىٰ أصل غير الأصل العربي بل إلىٰ أية قبيلة دون قبيلة طيء، ما الذي يدفعه إلىٰ هذا الولاء الأعمىٰ ؟!

إن قبيلة طيء لم تعطه أية ميزة، ولم تمنحه أي شرف؛ فقد نشأ في أسرة فقيرة معدمة اضطرته إلىٰ العمل في سن مبكرة ، فلم يعش طفولته ، وظل يتنقل من بلد إلىٰ بلد باحثاً عن الزادين الروحي والبدني ، لجأ إلىٰ التثقيف الذاتي ؛ إذ ليس لديه متسع من الوقت أو وفرة من المال للتعلم الإلزامي علىٰ أيدي علماء ومشايخ، عانىٰ الفقر والهجر والغربة والوحشة، فتعلم من الحياة الكثير والكثير ، وزخرت نفسه بألوان المتاعب والآلام ، ماذا قدمت له قبيلة طيء كي يبقىٰ أسيراً لها إلىٰ آخر رمق من حياته ؟! أهو الخوف من الطائيين؟ ولماذا لا يخاف من غيرهم؟ ولماذا فضل الولاء لقبيلة طيء عن غيرها من القبائل؟!

لقد وصل أبو تمام إلىٰ منزلة يحسده عليها الطائيون، ومع ذلك كان يتحين الفرص والمناسبات كي يفخر بطائيته ، يقول أبو تمام:

أنا ابنُ الذين استُرضِع الجودُ فيهمُ وسُمِّيَ فيهم وهو كهلٌ ويافعُ
سما بيَ أوسٌ في السماء وحاتمٌ وزيدُ القَنا والأثرمان ورافعُ
وكان إياسٌ ما إياسٌ وعارق وحارثةٌ أوفىٰ الورىٰ والأصامعُ
نُجومٌ طوالعٌ، جبالٌ فوارعٌ غيوثٌ هوامعٌ، سيولٌ دوافعُ
مضوا وكأن المكرمات لديهمُ لكثرة ما أوصوا بهنَّ شرائعُ
فأيُّ يدٍ في المجد مُدَّت فلم تكنْ لها راحةٌ من جُودهم وأصابعُ؟
همُ استودعوا المعروفَ محفوظَ مالنا فضاع وما ضاعت لدينا الودائعُ
بَهاليلُ لو عاينتَ فضلَ أكفِّهمْ لأيقنت أن الرزق في الأرض واسعُ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إذا خفقت بالبذل أرواحُ جودهم حداها الندىٰ واستنشقتها المطامعُ

رياحٌ كريح العنبر المحض في الندىٰ ولكنها يوم اللقاء زعازعُ

إذا طيِّءٌ لم تطوِ منشورَ بأسها فأنف الذي يهدي لها السخطَ جادعُ(١)

ما الذي يدعوه إلىٰ هذا الفخر غير كونه طائيا صليبة لا ولاءً؟! إنه يحفظ تاريخ القبيلة عن ظهر قلب ، ويعلم نقاط القوة ونقاط الضعف، ويشعر بلذة لا تعدلها لذة إذا ما قام يفتخر بها ، أتراه يجتدي أحداً بهذا الفخر ؟ إنه لا يفخر بالعباسيين الذين فيهم الخلافة مثلما فخر بقبيلة طيء، وما الذي يدعوه إلىٰ ملازمة الزي العربي حتىٰ يظنه المأمون بدوياً؟

إن في ملامحه لأكبر دليل علىٰ عروبته، لقد كان طويلاً نحيلاً أسمر ، أو بالأدق قمحي اللون، وهذه الملامح عربية لا يمكن أن تأتيه من أصول يونانية أو رومية ، وإلا لكان أشقر اللون ، أزرق العينين، ممتلئ الجسم ،كما كان الخليفة المعتصم الذي تسللت إليه بعض الصفات الرومية عبر أمه.

أما عن النقطة الثالثة وهي الاعتماد علىٰ نسبه الوارد في وفيات الأعيان، وهي سلسلة سقط منها ـ سهواً أو عمداً ـ ستة أسماء ، فجاء نسبه كالتالي : " أبو تمام حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس بن الأشج بن يحيىٰ بن مروان بن مر بن سعد بن كاهل بن عمرو بن عدي بن عمرو بن الغوث بن طيىء – واسمه جلهمه – بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن يشجب ابن يعرب بن قحطان الشاعر المشهور".

وعلق ابن خلكان علىٰ هذا بقوله: "وذكر أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيىٰ الآمدي في كتاب " الموازنة بين الطائيين" ما صورته: (والذي عند أكثر الناس في نسب أبي تمام: أن أباه كان نصرانياً من أهل جاسم، قرية من قرىٰ دمشق، يقال له: تدوس العطار، فجعلوه أوساً، وقد لفقت له نسبة إلىٰ طيىء، وليس فيمن ذكر فيها من الآباء من اسمه مسعود، وهذا باطل ممن عمله، ولو كان نسبه صحيحاً لما جاز أن يلحق طيئاً بعشرة آباء .

قلت: وذكر الآمدي هذا في قول أبي تمام:

إن كان مسعود سقىٰ أطلالهم سبل الشؤون فلست من مسعود

وقد سقط في النسب بين قيس ودفاقة ستة آباء.أ.هـ(٢).

---

(١) . شرح التبريزي (٢ / ٤٥١ . ٤٥٢).

(٢) . ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر ، بيروت (٢/ ١١ . ١٢).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وللرد علىٰ هذه النقطة ينبغي أن نعرف أن الخطيب البغدادي جاء قبل ابن خلكان بما يزيد عن مائتي سنة ، فهو أقرب إلىٰ أبي تمام من ابن خلكان ، ولقد اعتمدت سلسلة نسب أبي تمام من كتاب "تاريخ بغداد" للخطيب البغدادي المتوفىٰ ٤٦٣هـ ، ولم أعتمد السلسلة الواردة عند ابن خلكان المتوفىٰ (٦٨١هـ) والتي اعتمدها طه حسين ومن سار علىٰ نهجه.

والسلسلة الواردة عند الخطيب سلسلة تامة ليس فيها نقص كما هو الحال في سلسلة ابن خلكان، أما الكلام الذي نقله ابن خلكان عن الآمدي فغير موجود علىٰ الإطلاق في كتاب الموازنة ، فلعله وهم ، أو لعله رأىٰ هذا الكلام مكتوبًا علىٰ الحواشي لأحد المتعصبين علىٰ أبي تمام فنقله ابن خلكان علىٰ أنه من كلام الآمدي.

أقول كان ينبغي لابن خلكان التحري في مثل هذه الأمور ، كما كان ينبغي ألا يصطاد الدكتور طه حسين مثل هذه الأخبار المبتورة التي لا أصل لها ليروج لفكرة أو حكم كان قد تبناه قبل البحث والتمحيص .

لقد ورد نسب أبي تمام في تاريخ بغداد هكذا: "حبيب بْن أوس بْن الحارث بْن قيس بْن الأشج بْن يَحْيَىٰ بْن مرينا بْن سهم بْن خلجان بْن مَرْوَان بْن دفافة بْن مر بْن سَعْد بْن كاهل بْن عَمْرو بْن عدي بْن عَمْرو بْن الحارث بْن طيء، وَاسمه جلهم بْن أدد بْن زيد بْن يشجب بْن عريب بْن زيد بْن كهلان بْن سبأ بْن يشجب بْن يعرب بْن قحطان"(١)، وقد ورد هذا النسب باختلاف يسير عند ابن عساكر(٢).

العجيب أن الدكتور طه حسين لم يكلف نفسه عناء البحث، واكتفىٰ بأن التقط هذه العبارة التي نقلها ابن خلكان بطريق الخطأ : "ولو كان نسبه صحيحًا لما جاز أن يلحق طيئًا بعشرة آباء" وبنىٰ حكمه عليها ، وكأنما وجد بغيته ليطعن في نسب أبي تمام.

أما النقطة الرابعة والتي اعتمد عليها الأب لويس شيخو في إثبات نصرانية أبي تمام وهي فقره، ومزاولته في حداثته الحياكة والسقاية ففيهما ـ علىٰ حد زعمه ـ ما يدل علىٰ خموله بسبب دينه، ومضمون كلامه أن المسلمين جميعًا كانوا ينعمون برغد العيش في ذلك العصر الذي نشأ فيه أبو تمام، ولا يذوق الفقر أو يمتهن المهن الحقيرة إلا أصحاب الديانات الأخرىٰ ، وهذا الكلام عارٍ من الصحة، تثبت الأحداث التاريخية عكسه.

---

(١) . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، تحقيق: د. بشار عواد معروف، ط/١ دار الغرب الإسلامي ، بيروت ٢٠٠٢م، (١٥٧/٩).

(٢) . علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر : تاريخ دمشق ، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م، (١٢ / ١٦).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لقد كان المجتمع العباسي منقسماً إلىٰ طبقتين: "طبقة الأغنياء، وطبقة الفقراء، دون أن تتوسط بينهما طبقة ثالثة تكون أحوالها متقلبة بين الشدة والرخاء، أو بين البؤس والنعيم،...ويمثل الطبقة الثرية المترفة في المجتمع العباسي الخلفاء والوزراء والقادة والعمال، أولئك الذين كانوا يعيشون في الدعة والسعة ، وينعمون بالملذات من كل نوع، وبالملاهي من كل لون، أما الفلاحون والعمال والأعراب الذين ظلوا يعيشون في البوادي فهم الذين يمثلون الطبقة الفقيرة البائسة التي كانت تحيا في ضيق وشدة وعدم، وكأنما كتب عليها أن تكدح وتكد لتجمع الأموال وتوفرها للخلفاء وحواشيهم لينعموا بها، أما هي فكان عليها أن تشقىٰ بعد ذلك شقاءً متصلاً...

"ومن العجيب حقاً أن يهمل المؤرخون القدماء العناية بأحوال سائر الأمة، وما كانت تعيش فيه من أوضاع سيئة، وكفاف وعوز وحاجة، مع أنها تؤلف الغالبية العظمىٰ من الأمة، ومن العجيب أيضاً أن لا يعنىٰ الباحثون المحدثون بهذا الجانب وهم يصورون الحياة الاجتماعية في العصر العباسي الأول، وما أدىٰ إليه الغنىٰ العريض، والثروة الضخمة وانصبابها في حجور قلة قليلة من الناس من الترف والبذخ والمجون والتحلل والاسترسال في التبذل إلا إشارات موجزة، وملاحظات سريعة لا تغني شيئاً في هذا المقام، ومع معرفتهم معرفة وثيقة دقيقة أن أموال الدولة لم تكن موزعة توزيعاً متقارباً، ولا كانت الفروق بين الطبقات فروقاً طفيفة، وإنما كانت هناك هوات سحيقة، وفجوات واسعة بين الطبقات(١).

كان لهذا التباين بين الطبقات أثره في ظهور موجات من السخط والثورات وظهور طائفة من الشعراء الصعاليك ، وكذلك ظهور الشطار والعيارين، كل هذا في العصر العباسي الأول الذي يصوره البعض بأنه عصر ترف وغنىٰ ومجون ولهو، كانت الأقاليم تعيش حياة ملؤها البؤس والفقر والضنك ، يستوي في ذلك المسلم وغير المسلم ، والعربي وغير العربي.

ومن ثم فليس عجيباً أن يعمل والد أبي تمام عطاراً ، ثم يحتاج إلىٰ جهد ابنه معه فيخرجه من كتاب القرية ويرسله إلىٰ حائك ليتقن الحياكة كي يساعد أسرته، الأعجب من هذا أن يحرّف البعض تلك المهنة فيجعلها (خمّارا) مما جعل الدكتور عمر فروخ يتصور أن والد أبي تمام كان عطاراً في جاسم فلما انتقل إلىٰ دمشق فتح حانوت خمر، يقول: " ثم بدا لثدوس العطار ـ لسبب من الأسباب ـ أن يترك جاسم ، وينتقل إلىٰ دمشق ، فلما نزلها افتتح حانوت خمر ـ صنعة كانت محصورة في غير المسلمين وغير العرب ـ وأرسل ابنه حبيباً يشتغل عند حائك (وفي رواية قزّاز ـ

(١) ـ انظر: أحمد أمين : ضحى الإسلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٧م،(١/ ١٤٦)، وانظر: د. حسين عطوان: الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول، ط/٤ دار الجيل ، بيروت ١٩٩٧م،ص ٣٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

بائع قز وهو الحرير)"(١) ، كل هذا ضرب من الظنون والأوهام ليثبت أنه لم يكن عربياً ولم يكن مسلماً ، نفس التخيل والزعم الذي تبناه لويس شيخو.

إن شاعراً عريقاً مثل المتنبي لم يشك أحد في عروبته، ولم يجرؤ أحد أن يجرده من إسلامه، ومع هذا لا يعرف له أب، وكل ما يعرفه المؤرخون أنه كان سقاءً بالكوفة، مهنة حقيرة كالتي امتهنها أبو تمام هو وأبوه، هل غض ذلك من قدر المتنبي؟! هل حكم عليه أحد بنصرانيته؟!

يقول د. طه حسين عن المتنبي: " أما أبوه فقد زعموا أنهم كانوا يعرفون عنه شيئاً، شيئاً يسيراً جداً: كانوا يزعمون أن أبا المتنبي كان سقاءً في الكوفة، تحدث المؤرخون بذلك، وهم بين متحدث به يريد أن يرفع من شأن المتنبي الذي انحدر من رجل حقير فملأ الدنيا وشغل الناس، وبين متحدث بذلك ليضع من شأن المتنبي الذي انحدر من رجل حقير فورث عنه الحقارة، كان أبوه يبيع الماء علىٰ الناس، وكان هو يبيع ماء وجهه علىٰ الممدوحين"(٢).

فامتهان المهن الصغيرة، أو معاناة الفقر لم تكن حكراً علىٰ غير العرب أو غير المسلمين ، وإنما غالبية الأمة كانت تعاني كثيراً من الفقر، ولقد عانىٰ الإمام أحمد بن حنبل شظف العيش واشتغل في أكثر من مهنة لكي يوفر لنفسه حياة كريمة، ولأنه كان يتورع عن الاستجداء وانتظار المعونة من بيت المال الذي كانت أمواله تصرف عادة علىٰ الأغنياء والأمراء والقواد والجيش.

أما عن النقطة الخامسة والأخيرة، وهي ثقافة أبي تمام وطريقة تفكيره جعلوها ترجع إلىٰ عبقرية الجنس اليوناني الضارب في أصوله، فيونانية أبي تمام – في تصور د. طه حسين – هي التي كانت وراء مباينة شعره للشعر العربي، مما جعل أبا تمام " يختلف عمن تقدمه ومَن عاصره من الشعراء في تصوره للشعر نفسه، وفي شدّة أخذه بتحديد المعاني ووحدة القصيدة، وفي كَلَفِه بوصف الطبيعة، وميْله إلىٰ المعاني الفلسفية"(٣).

ومن الغريب حقا أن لا يجد د. إحسان عباس ملامح يونانية في شعر أبي تمام، في حين وجد أبا العتاهية تلميذاً للثقافتيْن الفارسية واليونانية، ولاحظ أنه يتوكأ في بعض معانيه علىٰ الثقافة اليونانية.

---

(١). د. عمر فروخ: أبو تمام شاعر الخليفة المعتصم ، دراسة تحليلية ، ص ٢٤.

(٢). د. طه حسين: مع المتنبي ، ط/١٣ دار المعارف مصر ، ص ١٣.

(٣). مقدمة نقد النثر، ص٩

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

إن ربْط التجديد في الأدب العربي بمسألة التأثير اليوناني، دعوىٰ أشاعها د. طه حسين وتبعه فيها كثير من الباحثين، وهي دعوىٰ ذات نزوع استشراقي بَيِّن؛ أريد بها التشكيك في أصالة الأدب العربي، وتهيئ النفوس العربية لتقبل الحضارة الغربية الحديثة والذوبان فيها.

وبالرغم من شيوع هذه الدعوىٰ، فإن الدراسات الحديثة التي تناولت شاعرية أبي تمام لم تنخدع بها، وأصبحت من دعاوىٰ الماضي!(١).

لقد رد د. عبد القادر القط علىٰ من يرىٰ بأن أبا تمام قد ورث العقلية الفلسفية من أصله اليوناني فيقول: " إن تلخيص مقومات شعب بأكمله في صفة واحدة لا يخلو من مبالغة لا تتفق وطبيعة الحياة وما فيها من تلون وتعقد ورحابة ، ثم إن كل اليونانيين لم يكونوا فلاسفة يتناولون شئون حياتهم ويعبرون عنها بأسلوب فلسفي متميز ، وإذا اتبع هذا المنهج فإنه يمكن القول بأن اليونانيين جميعاً كانوا ذوي مزاج أدبي فريد ، لأنهم أنجبوا كثيراً من عباقرة الأدب"(٢).

وهنا تظهر الحقيقة الثانية التي غابت عن هؤلاء وهي: أن الصفات الثقافية لكل شعب هي صفات لا يمكن الجزم بأنها تورث ، "فالعلماء لا ينكرون أن لكل جنس بشري ميزات عقلية مستقلة ، إنما الذي ينكرونه أن يقول قائل إن سبب هذا هو الوراثة البيولوجية، والذي يرجحونه هو أنه قد سببته عوامل البيئة ، فهو شيء مكتسب لا يورث بحيث لو جئت بالطفل الزنجي فأحسنت تربيته وتعليمه ، وأحطته بالظروف الاجتماعية الراقية لنشأ مشابهاً لمن حوله ، ولم تجد فرقاً بينه وبين غيره اللهم إلا الفروق الشخصية التي تفصل الفرد عن الفرد كائناً ما كان جنسه"(٣).

فهذه العقلية الفلسفية التي نلاحظها في شعر أبي تمام لم تأته من أصله اليوناني بل كانت جزءاً من تركيبه العقلي والنفسي بوصفه فرداً له صفات عقلية مستقلة.

"فاليونان القدماء إذن مهما نضجت ثقافتهم واكتملت عبقريتهم ودق إحساسهم الفني وعمقت فلسفتهم وارتقىٰ شعرهم وبرعت فنونهم ، فإن هذا لن يصير إلىٰ أن يكون صفات أصيلة تدخل في وحداتهم الوراثية فتنتقل بواسطتها من الأب منهم إلىٰ الابن لأن هذه الميزات بشكلها

---

(١) . عباس أرحيلة : أبو تمام ومسألة التأثير اليوناني، مرجع سابق ، ص ٥٠ . ٥١.

(٢) . إلى طه حسين في عيد ميلاده السبعين – مقال حركات التجديد في الشعر العباسي ، ص ٤٠٩وما بعدها، إعداد: د. عبد الرحمن بدوي، دار المعارف بمصر ١٩٦٢م.

(٣) . د. محمد النويهي: ثقافة الناقد الأدبي ، ط/٢ مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٦٩، ص ١٨٢.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الخاص المحدود الذي نسميه العبقرية اليونانية هي صفات مكتسبة، والصفات المكتسبة لا تورث"(١).

وخلاصة القول فإن أبا تمام شاعر عربي الأصل صليبة لا ولاءً من رأسه إلىٰ أخمص قدمه ، ومن زعم غير ذلك إنما أراد أن ينفي عن العرب صفة النبوغ والعبقرية، وما أبو تمام إلا واحد من آلاف العباقرة العرب، فالنبوغ أو العبقرية ليس سمة جديدة علىٰ العرب، كما أنه ليس حكراً علىٰ شعب دون شعب ، وإنما هي مواهب وقدرات بثها الله سبحانه وتعالىٰ في بعض خلقه مهما كانت أجناسهم وألوانهم ودياناتهم ولغاتهم ، لا يتميز بها عنصر دون عنصر ، وإنما هي آيات ودلائل علىٰ وجود خالق وهّاب ، ولتستفيد الإنسانية علىٰ امتداد عصورها من هذا الاختلاف والتنوع بين البشر.

وأبو تمام شاعر مسلم لم يعتنق يوماً ديناً آخر غير الدين الإسلامي، ولم يكن أبوه نصرانياً كما يرجف المرجفون ، بل إن البيت الذي نشأ فيه كان بيتاً ككل بيوت المسلمين الفقراء ، يعرف القيم الإسلامية ويؤمن بها إيمان الفطرة، والمعرفة الغنية والثقافة الثرية عن الإسلام والتي تميز بها أبو تمام لم تأته فجأة بعدما بلغ رشده بل كانت في الجينات الموروثة وفي اللبن الذي ارتضعه، وفي جنبات البيت الذي فيه درج.

******

الفصل الثاني

مولده ونشأته

مولده ونشأته:

مولده: كما كان هناك اختلاف في نسبه ، اختلف المؤرخون في العام الذي ولد فيه أبو تمام، فابن خلكان ذكر سنوات ١٧٢، ١٨٨، ١٩٠هـ(٢)، وابن عساكر اعتمد سنة ١٨٨هـ، وشك في سنة

---

(١). ثقافة الناقد الأدبي ، ص ١٨٩.

(٢). ابن خلكان: وفيات الأعيان (١٧/٢) .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

١٩٠هـ(١)، وقد روىٰ الأنباري عن تمام ابن الشاعر أن أباه ولد في عام (١٨٨هـ)(٢)، وروىٰ الصولي عن عون بن محمد الكندي قال: قرأت علىٰ أبي تمام شيئاً من شعره في سنة سبع وعشرين ومائتين، وسمعته يقول: مولدي سنة تسعين ومائة(٣)، وأرىٰ أن هذا العام هو الأكثر انتظاما واتساقاً مع أحداث حياته.

ولد أبو تمام في قرية يقال لها جاسم ، بينها وبين دمشق ثمانية فراسخ، علىٰ يمين الطريق الأعظم إلىٰ طبرية، وسميت بهذا الاسم لأنه انتقل إليها جاسم بن إرم بن سام بن نوح، عليه السلام، أيام تبلبلت الألسن ببابل فسميت به ، وتأخذ من دمشق إلىٰ الكسوة بريدين ثم إلىٰ جاسم مرحلة ثم إلىٰ فيق مثلها ثم إلىٰ طبريّة بريدا(٤).

وأبو الفرج يجعل ولادته ونشأته بقرية يقال لها جاسم بناحية منبج غير بعيد عن حلب، وابن خلكان يقول إنّ قرية جاسم التي ولد فيها أبو تمّام هي من أعمال دمشق بين طبريّة ودمشق ثم حدّد مكانها في الجولان.

وجاسم قرية من أعمال (الجَيْدُور) وهي كورة من نواحي دمشق فيها قرىٰ، وهي في شمالي حوران، ويقال: إنها والجولان كورة واحدة(٥).

ويقول البكري: "جاسم: علىٰ بناء فاعل: موضع بالشام، من عمل الجولان، يقرب من بصرىٰ، قال الذّبيانىٰ يرثىٰ النّعمان بن الحارث:

سقىٰ الله قبراً بين بصرىٰ وجاسم ثوىٰ فيه جود فاضل ونوافل

فآب مضلّوه بعين جليّة وغودر في الجولان حزم ونائل

---

(١) . علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر : تاريخ دمشق ، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م، (١٢ / ١٦).

(٢) . أبو البركات الأنباري: نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق: إبراهيم السامرائي، ط/٣ المنار ، الزرقاء ، الأردن ١٩٨٥، ص ١٢٤.

(٣) . أخبار أبي تمام ، ص ٢٧٢، وجدير بالذكر أن د. البهبيتي يميل إلى اعتماد سنة ١٧٢هـ ، انظر: أبو تمام الطائي، حياته وحياة شعره ،ص ٥٠، واعتمد د. عمر فروخ سنة ١٨٨هـ ، انظر: أبو تمام شاعر الخليفة المعتصم ، ص ٢٣، وقد اعتمدت سنة ١٩٠هـ لأن أبا تمام صاحب العقل المتوقد والبديهة الحاضرة أعلم بالعام الذي ولد فيه ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى انتظامها مع أحداث حياته التي تبدو في قصائده التي جسدت رحلاته وتنقلاته .

(٤) . أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي، مكتبة مدبولي القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤١١/١٩٩١، ص ١٩٠.

(٥) . شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٩٥م (٢/ ١٩٧).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والجولان: موضع قبره، ويروىٰ: «فآب مصلّوه» بالصاد المهملة، ثم قال بعد هذا:

ولا زال يسقىٰ بين شرج وجاسم بجود من الوسميّ قطر ووابل

فشرج مجاورة لهذه المواضع المذكورة(١).

وقد نسب إليها عدي بن الرقاع العاملي الطائي فقال:

لولا الحياء وأنّ رأسي قد عسا فيه المشيب لزرت أمّ القاسم

وكأنها بين النساء أعارها عينيه أحور من جآذر جاسم

وسنان أقصده النّعاس، فرنّقت في عينه سنة وليس بنائم

وكأنّها بين النساء أعارها عينيه أحور من جآذر جاسم(٢)

وقال حسان بن ثابت:

فقفا جاسم فأودية الصفـ ـر مغنىٰ قنابل وهجان(٣)

يقول "عمر فروخ" : " ويبدو أن جاسم هذه هي التي كانت تقع علىٰ الدرجة الأربعين من خطوط الطول ، وعلىٰ نحو الدرجة ٣٦، والدقيقة ٤٠ من خطوط العرض ، علىٰ أن هذه تبعد عن دمشق مسافة تختلف عما قدّره ياقوت كثيراً (٤).

وجاسم التي كانت قرية علىٰ عهد أبي تمام أصبحت الآن مدينة يقطنها أكثر من أربعين ألف نسمة، وهي تقع في الزاوية الغربية الشمالية من محافظة درعا حيث تتوزع أراضيها بين هضبة الجولان وسهول حوران مشكلة موقعاً جغرافياً مهماً، وتبعد مدينة جاسم عن الحدود الأردنية مسافة ٣٥ كلم، وعن جبل الشيخ الذي يفصل لبنان عن سورية مسافة ٤٠ كلم، وعن بحيرة طبرية التي تجاور الأرض الفلسطينية مسافة ٢٠ كلم ، وتمتاز أراضيها بالخصوبة حيث تشتهر بالزراعة البعلية والمروية علىٰ حد سواء وتعتبر رافداً مهماً للمحصولات الزراعية.

وتحتوي المدينة علىٰ آثار من العصور اليونانية والرومانية والإسلامية ما تزال بقاياها شاهدة حتىٰ الآن علىٰ الرغم من عدم وجود أي متابعة أو حماية رسمية لها، وقد سكنها الغساسنة منذ بداية هجرتهم إلىٰ أرض حوران حيث كانت في بعض الأوقات من أهم الحواضر في جنوب سوريا

---

(١) . أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ط/٣ عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٣ هـ (٢ /٣٥٧ . ٣٥٨).

(٢) . البكري: معجم ما استعجم، مرجع سابق (٢ /٣٥٧ . ٣٥٨).

(٣) . ياقوت الحموي: معجم البلدان، مرجع سابق(٢/٩٤).

(٤) . عمر فروخ: أبو تمام شاعر الخليفة المعتصم، بيروت ١٩٦٤م، ص ٢١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

وخاصة تل الجابية الذي يقع في أراضي جاسم في الجزء الجنوبي منها، وفيه عقد الأمويون مؤتمرهم، وجعله الخليفة عمر بن الخطاب بعيد انتهاء معركة اليرموك منطلقاً لفتح بيت المقدس بعد أن وزع غنائم معركة اليرموك فيه، وعقد الاجتماعات مع القبائل ومع جنود المسلمين وخاصة الصحابة منهم ، وكتب التاريخ مليئة بهذا الأخبار،كما سكنتها قبائل عربية كبيرة منها طيء التي ينتسب إليها الشاعر الكبير أبو تمام.

نشأته بين جاسم ودمشق:

نشأ أبو تمام في أسرة فقيرة ، لكنه كان يحمل من شرف النسب، وعلو الهمة، والذكاء الألمعي المتقد ما يستعيض به عن ألم الفقر وخشونة العيش، ولعل "النشأة الفقيرة مع النسب الرفيع تجعل الناشئ ينشأ علىٰ خلق قويم، ومسلك كريم، ذلك بأن علو النسب يجعل الناشئ منذ نعومة أظفاره يتجه إلىٰ معالي الأمور، ويتجافىٰ عن سفسافها، ويترفع عن الدنايا، فلا يصيب الفقر نفسه بذل ، ولا يتطامن عن ضعة، ولا يرضىٰ بالدنية، ويسعىٰ إلىٰ المجد بهمة وجلد، ليرفع خسيسة الفقر، ثم إن نشأته فقيراً مع ذلك الطموح، والإحساس بشرف النسب، يجعله يحس بإحساس الناس، ويندمج في أوساطهم، ويتعرف خبيئة نفوسهم، ودخائل مجتمعهم"(١).

عاش أبو تمام في طفولته حياة عادية ، لم يأبه بها أحد، وليس هناك ما يميزه في طفولته عن أترابه، وكتب التراث لا تذكر شيئاً عن طفولته إلا أنه عمل وهو صبي عند حائك أو قزاز ، لقد أصاب هذه الطفولة من النسيان والتجاهل ما يصيب طفولة معظم المبدعين الذين لا يلتفت إليهم إلا بعد ظهور مواهبهم وتأكدها.

وما نستطيع الجزم به أن أبا تمام دُفع في طفولته إلىٰ المساجد ـ كعادة أقرانه من أهل زمانه ـ حيث المعلمون والعلماء، وحيث حلقات الدرس والبحث، ولقد انسحبت هذه الفترة علىٰ طفولته ومراهقته وصدر شبابه، لأن ثقافته وشعره ينطقان بتحصيل كم وافر من مختلف علوم عصره.

دفع أبو تمام إلىٰ حلقات العلم في مسجد القرية؛ ليتعلم القراءة والكتابة، ويحفظ القرآن الكريم، وحين انتقلت أسرته إلىٰ دمشق سعياً وراء الرزق اضطر إلىٰ ترك كتّاب القرية ليتردد بين الحين والحين علىٰ مجالس العلم في الجامع الأموي في دمشق ، ولأنه كان فقيرًا لا يملك قوت يومه فقد اضطر إلىٰ ترك هذه المجالس العلمية ليعمل بمهنة الخياطة، كي يساعد أباه العطار علىٰ مواجهة أعباء الحياة، لكن أبا تمام في ظل انشغاله بالعمل لم ينس أبدًا حبه للعلم والتعلم، فكان يتردد عقب انتهائه من العمل علىٰ حلقات الدرس في مساجد مدينة دمشق بعد أن استقرت بها

(١) . محمد أبو زهرة: ابن حنبل – حياته وعصره ـ آراؤه وفقهه ، دار الفكر العربي ، ص١٨ ـ ١٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

الأسرة بحثًا عن سعة العيش، وظل ينهل من علوم الدين واللغة وجداول الشعر والثقافة المختلفة ، وسرعان ما تدفق ينبوع الشعر علىٰ لسانه.

ولا شك أن هذه الحياة الفقيرة التي نشأ في خضمها أبو تمام كانت من الأسباب الرئيسة وراء بلوغه تلك الغاية التي بلغها، وأن سبب "اضطرام شاعريته وتوقد ذكائه ونبوغه الشعري هو ذلك البؤس الفاضح ، والشقاء الدائم، ومرارة النفس التي كان لديها الحنظل عسلاً، والعلقم والصبر حلاوة وشهداً، وهو مدين لها بعبقريته، وهي مثيرة شعلة ذكائه ، ومنيرة ظلمات قلبه، ومنشئة أفكاره الثاقبة، ونباهته النادرة، وأصل لجميع فضائله الشعرية التي وضعته في أعلىٰ عليين، وتوجته ملكاً علىٰ معظم شعراء العرب المبرزين، وأعتقد لولاها لكان في مصاف غيره من الشعراء خامل الذكر منسيا، وكم لهذا البؤس والشقاء والفقر والاحتياج فضل علىٰ جمهور كبير من العظماء، وقادة الأفكار، ونوابغ العقول الذين تبوءوا أعلىٰ درجات الكمال والشهرة في هذا العالم..."

"ولله در الشقاء والبؤس ومرارة النفس فإن لولاها لم تفتق ألسنة الشعراء ولم تجر الفصاحة والبلاغة أنهاراً ، ولولاها لم تبرز مكنونات النفوس ولا جواهر الصدور، ولم تشرّح النفس أدق تشريح، به تظهر أعماقها ومحتوياتها وألوانها وأشكالها وشعورها العميق، وأنينها الخفي، وروحها المتألمة ، وعزة نفسها المحتضرة؛ فإن البؤس هو المحرك الوحيد لكهربائية النفس، وهو الذي يثيرها من مكامنها ويبعثها من وكناتها فتفيض أفكاراً شعرية، أو تيارات كهربائية تمتد علىٰ أسلة اللسان، ثم تصور وتضبط بالألفاظ وسحر البيان وتسبك بالنظم فتبرز صورة طبق الأصل لنزعات النفس المنكسرة، ومرآة بها ترىٰ أدق خفاياها، وكنه حقيقتها ؛ فالشاعر هو المصور الوحيد للنفس المستترة، ولذا سمي شاعراً ؛ لأنه يشعر بأدق ما يكون من الشعور الخفي الذي لا يشعر به غيره، ومقدرة كل شاعر تقاس بمقدار ما ينال من الإجادة والإبداع والوقوف علىٰ الحقيقة النفسية وإبرازها كما يشعر بها تماماً ، وشاعرنا هو ذلك المصور الماهر الذي قد أتىٰ بها كاملة ساحرة خلابة ، وصوره البديعة في ديوانه"(١).

رحلته إلىٰ حمص (٢٠٥ـ٢٠٩هـ):

كانت هذه الحياة البائسة سبباً في اغتراب أبي تمام الدائم والمتجدد بحثاً عن حياة أفضل ومكانة تليق به، وإصقال لموهبته التي بدأت تتفتق، وأول اغتراب له كان انتقاله إلىٰ حمص، انتقل أبو تمام من دمشق إلىٰ حمص وهناك تعرف علىٰ بعض الشعراء الذين تأثر بشعرهم وطريقة

(١) . د. ملحم إبراهيم الأسود: بدر التمام في شرح ديوان أبي تمام، مطابع قوزما ، بيروت ١٩٢٨م، ج١ ص ٣٣ . ٣٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تصنيعهم ، وبعض اتجاهاتهم ومذاهبهم، ومن هؤلاء الشعراء الشاعر البارز عبد السلام بن رغبان المعروف بديك الجن الحمصي(١)؛ فقد أخذ عنه وتأثر به إلىٰ حد بعيد .

ولما كان لديك الجن أثر واضح في نشأة أبي تمام ونبوغه الشعري كان لابد أن نقف هنيهة أمام هذا الشاعر لنتعرف علىٰ طريقته في صياغة شعره من ناحيتي الشكل والمضمون لا سيما وأن أبا تمام قد سار علىٰ دربه ، وظهر في شعره أثر الأستاذ علىٰ تلميذه .

لقد تثقف أبو تمام علىٰ شعر ديك الجن، وكان يتردد عليه بين الحين والحين، وكان ديك الجن يعطف عليه ، ويعطيه نسخاً من قصائده يتثقف عليها ، وينمي شاعريته بقراءتها، وكان أبو تمام آنذاك حدث السن رطب العود.

يؤكد هذا ما أورده ابن خلكان في وفيات الأعيان: أن عبد الله بن محمد بن عبد الملك الزبيدي قال: كنت جالساً عند ديك الجن، فدخل عليه حدث فأنشده شعراً عمله، فأخرج ديك الجن من تحت مصلاه درجاً كبيراً فيه كثير من شعره فسلمه إليه وقال: يا فتىٰ تكسب بهذا واستعن به علىٰ قولك، فلما خرج سألته عنه فقال: هذا فتىٰ من أهل جاسم، يذكر أنه من طيء، يكنىٰ أبا تمام، واسمه حبيب بن أوس، وفيه أدب وذكاء وله قريحة وطبع(٢).

نعم لقد احتذىٰ أبو تمام شعر ديك الجن فاكتسب منه التجديد في الصناعة اللفظية، وفي الصورة والمحتوىٰ، وسار أبو تمام بهذه الصنعة شوطاً بعيداً حتىٰ نسبت إليه ، وحتىٰ قال النقاد : إن ديك الجن يتبع مذهب أبي تمام ، بدلاً من قولهم : إن أبا تمام يقتفي مذهب ديك الجن.

وإذا كان ديك الجن اعتمد ـ في بعض الأحيان ـ علىٰ معاني السابقين فاقتبسها وحسّنها، فإن غيره من كبار الشعراء اللاحقين قد اعتمدوا عليه واقتبسوا معانيه طوراً وصِيَغَه تارةً أخرىٰ، وفي أحيان أخرىٰ اقتبسوا الصيغة والمعنىٰ جميعاً.

ومن هؤلاء الشعراء الذين اقتبسوا من شعر ديك الجن تلميذه أبو تمام، ومن مظاهر هذا الاقتباس والتأثر تلك الأبيات التي تتجلىٰ فيها شعوبية ديك الجن وكراهيته للعرب حين يقول ساخراً من ظاهرة الوقوف علىٰ الأطلال:

نَقِّلْ فُؤَادكَ حيثُ شئتَ فلن ترىٰ كَهَوىٰ جديدٍ أو كوصلٍ مُقبَّلِ

---

(١) . هو أبو محمد عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام بن حبيب بن عبد الله بن رغبان بن زيد بن تميم الكلبي الملقب ديك الجن، الشاعر المشهور، ولد (١٦١هـ)، وتوفي في أيام المتوكل سنة (٢٣٦هـ) ، وهو من شعراء الدولة العباسية، ولم يفارق الشام ولا رحل إلى العراق ولا إلى غيره منتجعاً بشعر، وكان ماجناً خليعاً عاكفاً على القصف واللهو متلافاً لما ورثه، وشعره في غاية الجودة. انظر: ابن خلكان : وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر – بيروت، (١٨٤/٣)، والثعالبي: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، دار المعارف ، القاهرة ، ص٦٩.

(٢) . ابن خلكان: وفيات الأعيان (١٨٥/٣).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ما إن أحنُّ إلىٰ خرابٍ مقفرٍ دَرَسَتْ معالِمُه كأن لم يُؤْهلِ
مِقَتِي لِمَنْزِلِيَ الذي اسْتحدثته أمَّا الذي ولَّىٰ فليس بمنزلي(١)

لقد أخذ أبو تمام هذا المعنىٰ من ديك الجن وقلبه رأساً علىٰ عَقِب فقال:

نَقِّلْ فُؤَادَكَ حيثُ شِئْتَ من الهوىٰ ما الحُبُّ إلا للحبيبِ الأوَّلِ
كمْ مَنْزِلٍ في الأرْضِ يَأْلَفُه الفتَىٰ وحَنِينُه أبَداً لأَوَلِ منزلِ

إن شاعرية ديك الجن رغم مجونه وخلاعته وشعوبيته ، ورغم بعده عن العاصمة بغداد ، وعدم تنقله وسفره كانت من الخصوبة ـ فنا وإنتاجا وتنوعا ومحافظةً وتجديداً ـ بحيث فرضت فنه علىٰ معاصريه من ساكني عاصمة الشعر بغداد ، ثم صارت مثلاً يحتذىٰ وأنموذجاً يُقتفىٰ عند كبار الشعراء العرب الذين جاءوا من بعده(٢).

ولعل أبا تمام اكتسب من ديك الجن شيئاً آخر هو مذهبه العلوي؛ لأن عبد السلام كان يتشيع تشيعاً حسناً، ولكنه لم يتأثر بشعوبيته"(٣)، ولا بمجونه،كما أخذ عنه الإجادة في الرثاء(٤).

ومن الطريف أن التلميذ قد فاق أستاذه شعراً وشهرةً، ومن المؤسف كذلك أن أبا تمام لم يعمّر طويلاً، فقد مات التلميذ في حياة أستاذه الذي حزن علىٰ وفاته ورثاه.

وفي حمص أيضاً تفتقت موهبته الشعرية ، وراح يجرب مقدرته الفنية في مدح بعض اليمنيين والطائيين مثل نوح بن عمرو السَّكْسَكِيّ، وأسرة عتبة بن أبي عبد الكريم الطائي، وكان عبد الكريم شاعراً ، فقضىٰ أبو تمام أيام تخرجه في جانبه.

أقام أبو تمام في حمص مكرماً لدىٰ الطائيين بني عبد الكريم يأخذ من جودهم وأدبهم، ولهذا مدحهم، وتعرض لخصومهم يهجوهم، ومما قاله في مدحهم:

لهم غُرَرٌ تُخال إذا استنارت بواهرُها ضرائرَ للنجومِ
قُرومٌ للمجير بهم أُسُودٌ نكالٌ للأسودِ وللقرومِ
إذا نزلوا بمَحْلٍ روَّضوه بآثارٍ كآثار الغيومِ
لكلِّ من بني حوَّاءَ عُذْرٌ ولا عُذْرٌ لطائيٍّ لئيمِ

(١). ديوان ديك جمع وتحقيق: مظهر الحجّي، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق٢٠٠٤م، ص٢٠٠.
(٢). د. مصطفى الشكعة : الشعر والشعراء في العصر العباسي ، دار العلم للملايين، ط/٦ ، بيروت ١٩٨٦م، ص٥٩٥.
(٣). عمر فروخ : أبو تمام شاعر الخليفة ، ص ٢٥
(٤). ابن رشيق القيرواني: العمدة (١١٩/٢).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

أحقُّ الناس بالكرمِ امرؤٌ لمْ يزلْ يأْوي إلىٰ أصلٍ كريمِ(١)

ويمدح أبو تمام عمر بن عبد العزيز الطائي فيقول:

تِعْمَ الفتىٰ عُمَرٌ في كل نائبةٍ نابت وقلت له "نعم الفتىٰ عمرُ"

يُعطي ويحمد من يأتيه يحمده فشكره عِوَضٌ ومالُهُ هَدَرُ

مُجَرِّدٌ سيفَ رَأْيٍ من عزيمته للدهر صَيْقَلُه الإطراقُ والفِكَرُ

عَضْباً إذا سلَّه في وجه نائبةٍ جاءت إليه بنات الدهر تعتذر

وسائلٍ عن أبي حفصٍ فقلتُ له أمسكْ عِنانَكَ عنه إنه القَدَرُ

هو الهمام هو الصاب المريح هو الـ ـحتف الوَحِيُّ هو الصِّمْصامةُ الذَّكَرُ(٢)

وفي هذه القصيدة يفخر أبو تمام بقبيلته طيء تلك القبيلة العربية التي طالما قدمت العظماء من أبنائها ، وطالما صنعت البطولات ، وشيدت للمجد معاقل حصينة ، فيقول:

سَافِرْ بطَرْفِكَ في أَقْصَىٰ مَكَارِمِنَا إنْ لمْ يكُنْ لكَ في تَأْسيسها سَفَرُ

هل أورق المجدُ إلا في بني أُدَدٍ أو اجتُنِي منه لولا طَيِّءٌ ثَمَرُ

لولا أحاديثُ بَقَّتْها مَآثرُنا من الندىٰ والردىٰ لم يُعْجِب السَّمَرُ(٣)

رحلة أبي تمام إلىٰ مصر (٢٠٩ ـ ٢١٤هـ):

ثم ارتحل أبو تمام إلىٰ مصر سيراً علىٰ نهج أستاذه أبي نواس الذي ترك بغداد مرتحلاً إلىٰ مصر طمعاً في المال والغنىٰ، غير أن هناك دوافع أخرىٰ لدىٰ أبي تمام إلىٰ جانب الدافع الذي جاء من أجله أبو نواس ؛ فقد جاء شاعرنا أبو تمام إلىٰ مصر طلباً لمزيد من العلم، وبحثاً عن أرض خصبة تترعرع فيها موهبته، وتنضج علىٰ سوقها عبقريته، ويذيع صيته، ثم يحقق طموحه في الثراء الذي يرجوه ويبتغيه.

وفي مصر كان لابد أن يزاول مهنة أو حرفة يرتزق منها لينفق علىٰ نفسه مدة إقامته إلىٰ أن يبلغ غايته، ويحقق مأربه، والأمر ليس غريباً أو عجيباً فهذا ما يحدث بالفعل في عصورنا الحديثة، فبعض شباب أمتنا العربية الذين يرتحلون إلىٰ بلاد الغرب رغبة منهم في الحصول علىٰ شهادات عليا من الجامعات الغربية علىٰ نفقاتهم الخاصة، يكدون ويتعبون ويعمل معظمهم في مهن حقيرة لا

---

(١) . الخطيب التبريزي: شرح ديوان أبي تمام، تحقيق: راجي الأسمر، ط/٢ دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٩٤م، (٢/ ٧٩).

(٢) . شرح ديوان أبي تمام ، (١ / ٣٣٠).

(٣) . شرح ديوان أبي تمام (٣٣١/١).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تتناسب ومكانتهم العلمية والأدبية، وما ذلك إلا ليوفروا لأنفسهم لقمة العيش التي يسدون بها رمقهم ، ويقيمون بها أودهم مدة بقائهم في غربتهم.

هكذا عمل أبو تمام في مصر، لم يجد مهنة أيسر ولا أقرب إلىٰ تحقيق غايته من مهنة السقاية في مسجد عمرو بن العاص المعروف بالمسجد الجامع؛ إذ إن هذه المهنة تجعله أقرب إلىٰ مجالسة العلماء والأدباء والشعراء وطالبي العلم علىٰ اختلاف مذاهبهم .

كان يتعلم من خلال استماعه للدروس التي تعقد في المسجد، فألمَّ بالفقه والتاريخ والشعر والحديث، والفلسفة، ولكنه كان يميل إلىٰ الأدب والشعر؛ فحفظ أربع عشرة ألف أرجوزة وكثيرًا من القصائد، وحفظ سبعة عشر ديوانًا من الشعر، وتفتحت موهبة أبي تمام في نظم الشعر، فأخذ يتكسب به، لكنه مع ذلك لم يحقق ما كان يرجوه من تحسين أحوال معيشته، فاتجه إلىٰ الشام، ثم إلىٰ العراق بعد أن ضاق عليه الرزق، ويقول في ذلك:

ينال الفتىٰ من عيشه وهو جاهل ... ويكدىٰ الفتىٰ في دهره وهو عالمُ

ولو كانت الأرزاق تجري علىٰ الحِجىٰ ... هلكن إذًا من جهلن البهائمُ

ولم تجتمع شرق وغرب لقاصدٍ ... ولا المجد في كف امرئ والدراهم(١)

كانت إقامة أبي تمام بمصر بين سنتي (٢٠٩هـ و ٢١٤هـ)(٢) وكانت حياته في هذه الفترة كما كانت من قبل غامضة أشد الغموض، فلم تصلنا أخباره، ولا نعرف شيئًا عن الأساتذة الذين أخذ عنهم، ويغلب علىٰ ظني أن أبا تمام قد استمع إلىٰ هذه الدروس التي كانت تلقىٰ في حلقات المسجد الجامع بالفسطاط، وكان في ذلك الوقت الشافعي وابن هشام راوي السيرة ، وابن عبد الحكم ، والليث بن سعد ممن يلقون علومهم في هذه الحلقات، ولعل أبا تمام قد أدرك سعيد بن عفير، والمعلىٰ الطائي، ويحيىٰ الخولاني، والحسين بن الجمل الأكبر، ويوسف السراج وغيرهم من شعراء مصر في هذه الفترة، فاستفاد مما سمعه من علوم أولئك وشعر هؤلاء حتىٰ نمت ملكة الشعر عنده فأنشد هذا الشعر الذي استطاع به أن يخمل شعراء عصره (٣).

---

(١) . شرح ديوان أبي تمام (٢/٨٧).

(٢) . ليس بين أيدينا ما يدل صراحة على تاريخ مجيء أبي تمام إلى مصر، ولكن ورد في كتاب الولاة والقضاة للكندي أشعاراً لأبي تمام تتصل بأحداث مصر بين سنتي ٢١١و٢١٤ مما يؤكد مقامه بها في تلك الفترة، وبما أنه قضى في مصر خمسة أعوام كما ذكر في شعره، وثبت من شعره أيضاً أنه قضى جزءا من العام ٢١٤هـ في مصر وجزءا في الشام، يكون أول قدومه إلى مصر سنه ٢٠٩هـ، انظر: الكندي: الولاة والقضاة، ص ١٨١، ود. شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي – العصر العباسي الأول، ط/ ١٦ دار المعارف ، مصر، ص ٢٦٩، وانظر أيضا عمر فروخ : أبو تمام شاعر الخليفة المعتصم ، ص ٣٠.

(٣) . د. محمد كامل حسين: أدب مصر الإسلامية، عصر الولاة، دار الفكر العربي، ص ٢٠١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لقد ارتوىٰ أبو تمام من حلقات العلم والدرس، واستقىٰ إلىٰ جانب العلم فنون القريض، وساجل الشعراء المصريين، ونضجت موهبته الفنية، وتعرف إلىٰ بعض الشخصيات التي أثرت في تكوينه ومنهم "عياش بن لهيعة" الذي كان يقوم علىٰ شرطة مصر وخراجها منذ تولىٰ ولايتها جابر بن الأشعث الطائي (ت ١٩٥هـ) ، وكان رجلاً حضرمياً ، فاضلاً مثقفاً كريمًا ، لم يبخل علىٰ أبي تمام بعطاء أو غيره ، فمدحه أبو تمام بقصيدة ابتدأها بالغزل :

تَقِي جَمَحَاتي لستُ طوعَ مؤنِّبي ... وليس جَنِيبي إن عذلْتِ بمُصحِبي

والتي يقول فيها:

رأيت لعيّاشٍ خلائقَ لم تكنْ ... لتكمُلَ إلا في اللُّباب المهذَّبِ

له كرمٌ لو كان في الماءِ لم يَغِضْ ... وفي البرق ما شام امرؤ برق خُلّبِ

أخو أزمات بذْلُه بَذْلُ محسنٍ ... إلينا ولكن عُذره عُذْرُ مذنبِ

إذا أمَّه العافُونَ ألْفَوْا حياضَه ... مِلاءً وألفَوا روضَه غيرَ مُجْدِبِ(١)

وكثيراً ما كان يشير أبو تمام في مديحه لعياش بن لهيعة إلىٰ حرمته منه وصلة القرابة بينهما لأنه يمني الأصل مثله ، ويلجِّج في الافتخار بملوك اليمن وأقيالها القدماء، فنراه يقول له:

وأنت بمصرَ غايتي وقرابتي ... بها وبنو الآباء فيها بنو أبي

ويروىٰ أن هذا الشعر أول شعر قاله أبو تمام، فقد ذكر الصولي أن أبا تمام قال للبحتري: "أول شعر قلته :

تقي جمحاتي لستُ طوع مؤنبي ... وليس جَنيبي إن عذلْتِ بمصحبي

ومدحت بها عياش بن لهيعة فأعطاني خمسة آلاف درهم"(٢).

ولعل أبا تمام كان يقصد بهذا الخبر أن أول شعر أخذ عليه مكافأة هو ما قاله في مدح عياش، ولست أظن أن هذه القصيدة هي أول شعر قاله أبو تمام علىٰ الإطلاق ، فقد سبق أن ذكرنا أن أبا تمام قد عرض شعره علىٰ ديك الجن قبل أن يأتي إلىٰ مصر وهو تقريباً دون الخامسة عشرة من عمره ، بل إنه مدح بني عبد الكريم الطائيين قبل أن ينتقل إلىٰ مصر.

---

(١) . الخطيب التبريزي : شرح ديوان أبي تمام ، تحقيق : راجي الأسمر ، دار الكتاب العربي، بيروت ط/٢ ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م، ج١ ص ٨٧ . ٩١.

(٢) . انظر: الصولي: أخبار أبي تمام ، ص ١٢١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

ظلت علاقة أبي تمام بعياش علاقة قوية وطيدة لفترة من الزمن لم يشعر خلالها أبو تمام بأية غربة؛ إذ كان يجد في عياش الأخ والصديق والأستاذ والنديم وصاحب الفضل، حتىٰ سعىٰ الواشون بينهما غيرة وحسداً، أو ربما انشغل عنه عياش، فازورّ عنه وتجنب لقاءه، وقد حاول ابن عبد ربه أن يجد سبباً لهذا التحول في العلاقة بين أبي تمام وعياش ، فذكر في هذا الشأن أن أبا تمام استسلف عياشاً مائتي مثقال فشاور فيه زوجته فقالت: " هو شاعر يمدحك اليوم ويهجوك غداً فاعتل عليه واعتذر إليه، ولم يقض حاجته"(١) فعاتبه أبو تمام بهذه الأبيات:

هبَّتْ رِيَاحُكَ لي جَنوباً سَهْوةً حتىٰ إذا أورقْتُ عادت حَرْجَفا
إن أنت لم تُفْضِلْ ولم ترَ أنني أهلٌ له فأنا أرىٰ أن تُنْصِفا
ما عُذْرُ من كان النَّوالُ مطيعَه والطبعُ منه أن يراه تَكَلُّفا؟!
أسرفت في منعي وعادَتُكَ التي مَنَعَتْ عِنانَكَ أن تجود فتُسْرِفا
لا تصرفنَّ نداكَ عَمَّنْ لم يَدَعْ للقولِ فيكَ إلىٰ سواك تَصَرُّفا
ثَقِّفْ فَتِيَّ الجُودِ تَلْقَ قَصائداً لاقَتْ أوابدُهُنَّ فيكَ مُثقَّفا

إلىٰ قوله:

لم آلُ فيك تَعَسُّفاً وتَعَجْرُفا وتألُّقاً وتَلَطُّفاً وتَظَرُّفا
وأراكَ تدفعُ حُرْمتي فَلَعلَّني ثَقَّلْتُ غيرَ مُؤَنِّبٍ فَأُخَفِّفا(٢)

لكننا نستطيع أن نفهم من شعر أبي تمام أن بعض القوم سعوا به عند عياش ، ومن يدري لعل بعض شعراء مصر حسدوا هذا الشاب علىٰ صلته بالأمير ، فأوقعوا بينهما ، مما جعل الشاعر يقول:

أظن عندك أقواماً وأحسبُهم لم يأتلوا فيّ ما أعدُوا وما ركضوا
يرمونني بعيون حشوها شررٌ نواطقٌ عن قلوبٍ حشوها مرضُ
لولا صُبَابَةُ عِرْضِي وانتظار غدٍ والكَظْمُ حتْمٌ علىَّ الدهرَ مُفْتَرِضُ
لما فككت رقاب الشعر عن فِكَرِي ولا رِقَابَهُمُ إلا وهُمْ حُيُضُ(٣)

(١) . ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ط/١ دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٤هـ (١/ ٢٤٠).
(٢) . شرح ديوان أبي تمام (٢/ ٣٩٦).
(٣) . شرح ديوان أبي تمام (٢/ ٣٩١).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

ولم يقف الأمر عند هذا العتاب، بل إن العلاقة بينهما فسدت نهائيًا، ووصلت إلىٰ حد جعل أبا تمام يفقد الأمل في عودة المياه إلىٰ مجاريها، ورجوع الصداقة بينهما إلىٰ سابق عهدها فهجاه بهذه القصيدة التي مطلعها:

كأني لم أبُثُّكُما دَخِيلي ولم تَرَيَا وُلُوعي مِنْ ذُهُولي

والتي يقول فيها:

أعياشُ ارعَ أوْ لا ترعَ حقي وصلْ أو لا تصلْ أبداً وسيلي
أراكَ، ومَنْ أراكَ الغيَّ رشداً ستلبسُ حلتيْ قالٍ وقيلِ
وكنتُ أَعَزُّ عِزّاً مِنْ قَنوعٍ تعوَّضَه صفوحٌ عنْ جهولِ
فَصِرْت أَذَلَّ مِنْ مَعْنىً دَقيقٍ بِهِ فَقْرٌ إِلىٰ ذِهْنٍ جَليلِ
فما أدري عمايَ عن ارتيادي دَهاني أَمْ عَمَاكَ عنِ الجَميلِ؟
متىٰ طابتْ جنىً وزكتْ فروعٌ إِذا كانَتْ خَبِيثَاتِ الأُصُولِ؟!
ندبتكَ للجزيلِ وأنتَ لغوٌ ظلمتُكَ لستَ من أهلِ الجزيلِ !
كِلا أَبَوَيْكَ مِنْ يَمَنٍ ولكنْ كِلا أَبَوَيْ نَوَالِكَ مِنْ سَلُولِ!
رويدكَ إنَّ جهلكَ سوفَ يجلُو لكَ الظَّلْمَاءَ عن خِزْيٍ طَوِيلِ
وأقللْ إنَّ كيدكَ حين تَصْلَىٰ بِنِيراني أَقلُّ مِنَ القَلِيلِ
مرارات المقامِ عليكَ تعفو وتَذْهَبُ في حَلاواتِ الرَّحِيلِ
سأَظعنُ عالِماً أَنْ ليسَ بُرْءٌ لسقمي كالوسيجِ وكالذميلِ
ولَوْ كانَتْ يَمِينُكَ أَلفَ بَحْرٍ يَفِيضُ لِكُل بَحْرٍ أَلْفُ نيلِ(١)

وظل أبو تمام يهجو عياش بن لهيعة حتىٰ مات عياش ولم يسلم بموته من هجاء أبي تمام ؛ إذ هجاه بعد موته فقال فيه:

لا سقيت أطلالك الدّاثرة ولا انقضت عثرتك العاثره
يا أسد الموت تخلّصته من بين فكّي أسد القاصره
أجارَكَ المكروهُ مِنْ مثله فاقِرةٌ نجَّتْكَ من فَاقره(١)

(١) . شرح ديوان أبي تمام (٢/ ٣٦٣ . ٣٦٥).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وفي هذه الأثناء كان أبو تمام قد هاجىٰ نفراً من الشعراء في مصر وهاجوه، من هؤلاء شاعر اسمه يوسف السرّاج كان يحمل علىٰ أبي تمام لغموض شعره(٢).

يقول أبو تمام في هجاء يوسف السراج الشاعر المصري:

أ يوسفُ جئتَ بالعجبِ العجيبِ تركت الناس في أمر مريبِ
سمعتُ بكل داهيةٍ نَآدٍ ولم أسمعْ بسَرَّاجٍ أديبِ
أما لو أن جهلَكَ كان علماً إذاً لنفذْتَ في علم الغيوبِ
فما لك بالغريب يدٌ ولكنْ نعاطيك الغريب من الغريبِ
فلو نُبِشَ المقابرُ عن زهيرٍ لصَرَّح بالعويلِ وبالنحيبِ
متىٰ كانت قوافيه عيالاً علىٰ تفسير بقراطَ الطبيبِ
فكيف ولم يزل للشعر ماءٌ يرفُّ عليه ريحانُ القلوبِ
أرىٰ ظُلْمَيْكَ إنصافاً وعدلاً وذنبي فيك تكفيرُ الذنوبِ(٣)

قضىٰ أبو تمام في مصر خمسة أعوام يسعىٰ ويجتهد، وينهل من ينابيع العلوم المختلفة ، ويقلب في وجوه الذين يلتقي بهم عساه يلقىٰ بغيته، إنه يبحث عن شيء لا يكاد يتبينه، يبحث عن شخص لا يعرف ملامحه، ومجد لا يدرك كنهه، لكنه شعر في نهاية هذه المدة بأنها لم تكن إلا سنوات عجاف لم يرتق فيها سلم المجد، ولم يجمع من المال ما يجعله يعيش حياة كريمة تليق بنبوغه وعبقريته.

وكان أبو تمام رقيق المشاعر، فدائمًا ما كان يحن إلىٰ قريته (جاسم) يقول فيها:

بنفسي أرضُ الشامِ لا أيمن الحمىٰ ولا أيسرُ الدهنا ولا وسط الرملِ
ولم أر مثلي مستهاماً بمثلكم له مثلُ قلبي ما فيه لا يغلي
عَدَتْنِيَ عنكم مُكرهاً غُربة النوىٰ لها طربةٌ في أن تُمِرَّ ولا تُحْلي
أخمسةُ أحوالٍ مضت لمغيبه وشهران بل يومان نِكْلٌ من النكلِ
نأيتُ فلا مالاً حويتُ ولم أُقِمْ فَأَمتَعَ إذْ فُجِّعتُ بالمالِ والأهلِ

---

(١) . شرح ديوان أبي تمام (٢/ ٣٣٩-٣٤٠).

(٢) . القاضي الجرجاني : الوساطة بين المتنبي وخصومه ، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ص٢٠.

(٣) . شرح ديوان أبي تمام (٢/٣٤٩).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

بخِلتُ علىٰ عِرضي بما فيه صونه رجاء اجتناء الجود من شَجر البُخْلِ
عَصَيْتُ شَبَا عَزْمِي لطاعة حيرةٍ دَعتْني إلىٰ أن أفتح القُفْلَ بالقُفْلِ(١)

هنالك بعدما تبددت آماله في تحقيق مآربه الشخصية شعر بالغربة، وخاصة بعدما أصبحت إقامته في مصر ضنكًا، لضيق ذات يده وضيق مذاهبه في بلد نشبت فيها الفتن، فتذكر أمه وحن إلىٰ لقائها فقال واصفا حاله وحال البلد التي يقيم فيها:

وكمْ عَدَوِيَّةٍ من سِرِّ عمروٍ لها حسبٌ إذا انتسبت حسيبُ
لها من طيِّءٍ أُمٌّ حَصَانٌ نَجِيبةُ معشرٍ وأبٌ نجيبُ
تَمَنَّىٰ أن يعود لها حبيبٌ مُنىً شَطَطًا وأين لها حبيبُ؟!
ولو بَصُرَتْ به لرأت جَريضًا بماء الدهر حِلْيتُه الشحوبُ
كنصل السيف عُرِّيَ من كساءٍ وفَلَّتْ من مضاربه الخُطُوبُ
زعيمًا بالغِنَىٰ أو ندب نَوْحٍ تُعَطَّطُ في مآتمه الجيوبُ
فأصبح حيثُ لا نقعٌ لصادٍ ولا نشَبٌ يلوذ به حَريبُ
بمصرَ وأيُّ مأرُبَةٍ بمِصْرٍ وقد شَعَبَتْ أكابرَها شَعُوبُ؟(٢)

ظل أبو تمام في مصر إلىٰ سنة ٢١٤هـ (٨٢٩م) لأنه أدرك فيها مقتل عمير بن الوليد الباذغيسي الخراساني، عامل مصر الذي قتل في ربيع الأول سنة ٢١٤هـ في أثناء فتنة داخلية ، وقد رثاه بقوله:

كف الندىٰ أضحت بغير بنانِ وقناته أمستْ بغير سنانِ
جبَلُ الجبال غدتْ عليه مُلِمَّةٌ تركته وهو مهدَّم الأركانِ
أنعي عميرَ بن الوليد لغارةٍ بكرٍ من الغارات أو لعوانِ
أنعي فتىٰ الفتيان غيرَ مُكَذَّبٍ قولي وأنعي فارسَ الفرسانِ
عثر الزمانُ ونائباتُ صروفه بمُقِيلِنا عثراتِ كل زمانِ(٣)

وفي رجب سنة ٢١٤هـ يُهزم عيسىٰ بن زيد الجلودي في النُّوَيرة، وهو يومئذٍ والٍ علىٰ مصر من قِبَل المأمون، وهازموه هم الثائرون، فيقول أبو تمام مادحًا الثائرين من القيسية واليمانية هاجيًا الجُلُوديّ:

---

(١) . التبريزي: شرح ديوان أبي تمام ، تحقيق: راجي الأسمر (٢/ ٤٢٠ . ٤٢٢).
(٢) . المرجع السابق (٢/ ٤٣٨).
(٣) . المرجع السابق، (٢/ ٢٤٢ . ٢٤٣).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

صحبي قِفُوا مُلِّيتكم صحبـًا فاقضوا لنا من ربعكم نَحْبا

وفي هذه السنة يترك أبو تمام مصر موليـًا وجهه شطر الشام ثم إلىٰ العراق ، حيث يبتدئ أزهر أيامه وأخصبها، وأذخرها بالنتاج الأدبي.

ويعلق الدكتور البهبيتي علىٰ الفترة التي قضاها أبو تمام بمصر فيقول:

"نزل أبو تمام مصر طفلاً لم يبفع يطلب الغنىٰ ، فوهبت له علماء ، وغمرت قلبه نوراً ، وفتحت عينيه علىٰ دنيا جديدة ، وأشاعت فيه أملاً واسعـًا ، ولكنها لم تهب له من المال ما كان يطمح إليه ، قذفت به إلىٰ الدنيا بعد أن أعدته أحسن الإعداد ، وزودته بسراج يستعين به علىٰ اقتحام الدهر وأحداثه ، ولكنه كان ممدود اليدين، يريد أن ينال بهما جميعـًا ، فلما لم يجد بإحداهما ما طلب ألهاه ذلك عما باليد الأخرىٰ، فانفتل غاضبـًا في شيء من يأس الشباب ، ولكنه لم يكن نذلاً ، فلم يخلط بين الوطن الذي آواه، وبين الرجل الذي ضن عليه"(١).

لم يخرج أبو تمام من مصر إلا بعد أن استضاءت نفسه بذلك النور الذي يضاعف الحس بالحياة فيفجر من لألائها كي يزيد من ظلمتها ، ويجعلها مسرحـًا للاقتران الرائع بين عبادة الحياة والنقمة عليها، الأمر الذي يدفعه إلىٰ القول:

أحاولتِ إرشادي فعقلي مرشدي أم استَمْتِ تأديبي فدهري مؤدبي

هما أظلما حاليَّ ثمت أجليا ظلاميهما عن وجه أمرد أشيبِ

*****

عودته إلىٰ الشام (٢١٤ ـ ٢١٨هـ):

عاد أبو تمام إلىٰ الشام، وإلىٰ هذا الوقت ترجع فيما يظهر قصائد المدح والهجاء التي قالها في أبي المغيث موسىٰ بن إبراهيم الرافقي، الذي ولي دمشق من قِبل المعتصم ، المرة الأولىٰ ثم الثانية، بعد أن ولي بعده أبو الصالحات، ثم دينار بن عبد الله بن أحمد بن محمد ، وعُزل وأعيد ، ومات المعتصم وأبو المغيث علىٰ دمشق، وقد مدح أبو تمام أبا المغيث قبل أن يكون واليـًا علىٰ دمشق ؛ لأن أولىٰ ولايتيه كانت أيام المعتصم ، والمعتصم لم يكن خليفة قبل سنة ٢١٨هـ .

وقريب مما حدث مع عياش بن لهيعة في مصر ، تكرر مع أبي المغيث في الشام ، أبو تمام يلح في الاستجداء والممدوح يضيق بالإلحاح، ويخشىٰ لذعة الهجاء فيسوِّف، والشاعر لا يرحم، مدح أبو تمام أبا المغيث بقصيدتين، وعاتبه بقطعة، وهجاه بأربع.

---

(١) ـ د. محمد نجيب البهبيتي: أبو تمام الطائي ، حياته وحياة شعره، دار الثقافة والنشر والتوزيع، ١٩٨٢م، ص٦٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

في هذه الأثناء كانت الثورة الخرمية قد بلغت مداها في الأعوام الخمسة الأخيرة من عهد المأمون ، وذلك بعد أن أرسل إليهم في مطلع عهده يحيىٰ بن مسلم فلم يفعل شيئاً، فولىٰ عيسىٰ بن محمد بن أبي خالد فلم يفعل شيئاً ، فولىٰ رزيق بن علي بن الأزدي فعجز فيما عجز فيه السابقون، فولىٰ محمد بن حميد الطوسي، فقتل، وفجّر قتله ينبوعاً غزيراً من الحزن في قلوب الناس بحمص، تعمقت الحادثة نفس أبي تمام فبكاه بكاءً حاراً أخذ يدور علىٰ الألسنة ، وأخذ يحتل به مكانة ممتازة بين الشعراء، نعم لقد ألهم استشهاد محمد بن حميد الطوسي أبا تمام شعراً من أجمل الشعر، وكانت رائعته التي يقول فيها:

كَذَا فليجلّ الْخطب وليفدح الْأَمر وَلَيْسَ لعين لم يفض مَاؤُهَا عذر

تُوفيتِ الآمالُ بعد محمدٍ فَأَصْبح فِي شعل عَن السفَرِ السفْر

غدَا غدْوَة والحمدُ نسجُ ردائهِ فَلم ينصرفْ إِلَّا وأكفانهُ الأجرْ

كأنَّ بني نَبهَان يومَ وفاتهِ نجومُ سَمَاء خرَّ من بَينهَا البدرُ

يُعَزَّوْنَ عَن ثاوٍ تُعَزَّىٰ بهِ العلاَ ويبكِي عَلَيْهِ الْبَأْس والجود والنصرُ

وأنِّي لَهُم صَبر عَلَيْهِ وَقد مضىٰ إِلَىٰ الموتِ حَتَّىٰ استشهَدَا هُوَ وَالصَّبْر(١)

وأخذ أبو تمام يتردد علىٰ الرقة والموصل ، ويمدح أجوادهما مثل حبيش بن المعافىٰ قاضي نصيبين ورأس عين، ومحمد بن حسان الضبي، ونراه يقول في إحدىٰ مدائحه له:

بالشام أهلي وبغدادُ الهوىٰ وأنا بالرَّقَّتَين وبالفُسطاط إخواني

وما أظن النوىٰ ترضىٰ بما صنعتْ حتىٰ تشافه بي أقصىٰ خراسانِ(٢)

يقول د. شوقي ضيف: "وذكره الفسطاط يدل علىٰ أنه كان حديث عهد بالأوبة منها، ولا تزال ذكرىٰ واليها عبد الله بن طاهر حية في نفسه ، ولذلك ينوي أن يزوره في خراسان ولايته الجديدة ، وهو يتمنىٰ أن تكتحل عيناه بمرأىٰ بغداد ، ويظهر أنه ألمَّ بها في صحبة محمد بن حسان الضبيّ إلماماً قصيراً، وفي ديوانه قصيدة موجهة إلىٰ الحسن بن سهل الذي كان جوده الغدق لا يزال يسيل علىٰ الرغم من اعتزاله الوزارة وفيها يقول:

ستٌّ وعشرون تدعوني فأتبعها إلىٰ المشيب ولم تظلم ولم تَحُبِ

(١). شرح ديوان أبي تمام (٢ / ٢١٨ . ٢٢٠).

(٢). المرجع السابق (٢/ ١٥٧).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فإذا صح أنه مدحه بها في بغداد فإنه يكون قد زارها وهو في السادسة والعشرين من عمره، علىٰ أنه لم يلبث أن عاد سريعاً إلىٰ الموصل متنقلاً بينه وبين موطنه، وربما بدأ مديحه لمالك بن طوق التغلبي والي الجزيرة منذ هذا التاريخ"(١).

ونراه يحاول المثول بين يدي المأمون في إلمامه بدمشق وثغور الشام أثناء حملاته علىٰ الروم ، وربما كان أول ما مدحه به قصيدته : (كُشِف الغطاء فأوقدي أو أخمدي) وفيها يعلن حبه لآل البيت مشيداً بقضائه علىٰ الثورات والفتن بمصر ، يقول :

فانتاشَ مصرَ من اللُّتيَّا والتي بتجاوزٍ وتعَطُّفٍ وتعمُّدِ
في دولةٍ لحَظَ الزمانُ شعاعَها فارتدَّ منقلباً بعيني أرمدِ
من كان مولده تقدَّمَ قبلها أو بعدها فكأنه لم يولدِ
الله يشهد أن هديَكَ للرضا فينا ويلعن كل من لم يشهدِ
أَ وليَّ أمةِ أحمدٍ ما أحمدٌ بمُضِيعِ ما أوليت أمةَ أحمدِ(٢)

ولعل أبا تمام قد قال هذه القصيدة قبل أن يلتقي بالمأمون في الشام، لأن المأمون كان قد تغير علىٰ العلويين في هذه الأثناء وانقلب ضدهم.

ولما عاد المأمون من حملته علىٰ الروم زار مصر في أول سنة ٢١٧هـ ، وقد عاد منها إلىٰ دمشق، فسعىٰ أبو تمام إليه ، فلما دخل عليه أبو تمام مرتدياً زيَّ البدو الذي كان يؤثره طوال حياته، مدحه بقصيدة طويلة والتي مطلعها:

دِمَنٌ أَلَمَّ بها فقال سلامُ كم حلَّ عقْدةَ صبرِهِ الإلمامُ

والتي يقول في آخرها:

اسلم أميرَ المؤمنين لأمةٍ نتجت رجاءك والرجاءُ عُقامُ
إن المكارم للخليفة لم تزل والله يعلم ذاك والأقوامُ
كُتِبتْ له ولأوَّليهِ وراثةً في اللوح حتىٰ جفت الأقلامُ(٣)

ومع أن أبا تمام قد مدح الخليفة المأمون إلا أنه لم يظفر بما يؤمل، بل بدر من الخليفة نحو الشاعر ما صرفه عن بغداد مرة واحدة؛ إذ إن القصيدة لم ترق للمأمون؛ لأن الخليفة ربما وجد أنه

---

(١) . د. شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الأول ، ط/ ١٦ دار المعارف، القاهرة، ص ٢٧٠.
(٢) . شرح ديوان أبي تمام (١/ ٢٥٦ . ٢٦٣).
(٣) . شرح ديوان أبي تمام (٢/ ٧٢).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مما يخالف طبيعة الأشياء أن يقول بدوي شعراً في حياة الحضر(١)، أو ربما لأن المأمون كان قد انقلب علىٰ آل عليّ ، فأوغر صدره أن يرىٰ أبا تمام يمدحهم ويعرِّض ببني العباس.

وكان أبو تمام قد امتدح آل بيت الرسول ﷺ عقيب عودته من مصر برائيته التي مطلعها:

أظَبْيَةُ حيثُ استنَّتِ الكُتُبُ العُفْرُ رُوَيْدَكِ لا يغتالك اللوم والزجرُ

والتي يقول فيها:

فعلتم بأبناء النبي ورهطه أفاعيلَ أدناها الخيانة والغدرُ

ومن قبله أخلفتمُ لوصِّ إليهِ بداهيةٍ دهياء ليس لها قدرُ

إلىٰ أن قال:

ويومَ الغديرِ استوضحَ الحقَّ أهلُه بفيحاءَ لا فيها حجابٌ ولا سِتْرُ

أقام رسول الله يدعوهُمُ بها ليقْرَبَهم عُرْفٌ ويناَهمُ نُكْرُ

يمدُّ بضبْعَيْه ويعلمُ أنه وليٌّ ومولاكم فهل لكمُ خُبْرُ؟!

أحُجَّةَ ربِّ العالمين ووارثَ الـ ـنَّبيِّ ألا عهدٌ وفيٌّ ولا إصْرُ

ولو لم يخلِّفْ وارثًا لَعَرَتْكُمُ أمورٌ تَبِينُ الشكّ ساحةَ من تعرو

جعلتُ هوايَ الفاطميين زُلْفةً إلىٰ خالقي ما دمت أو دام لي عُمْرُ

وكوَّفني ديني علىٰ أن منصبي شآمٌ ونجري أيّةً ذُكِرَ النَّجْرُ(٢)

ولعل هذه القصيدة قد بلغت مسامع الخليفة المأمون فلم يأبه لمديح أبي تمام ولم يعره انتباهًا، توجه أبو تمام بعدها إلىٰ شمالي الشام وراح يتنقل بين شمالي العراق وأرمينية ، وقضىٰ معظم أوقاته في الموصل.

---

(١) . ذكر أبو هلال العسكري أن أبا تمام دخل على المأمون في زي أعرابي فأنشده:

(دمنٌ ألمَّ بها فقالَ سلامُ ... كم حلَّ عقدةَ صبرهِ الإلمامُ)

فجعل المأمون يتعجبُ من غريب ما يأتي به من المعاني ويقول ليس هذا من معاني الأعراب فلما انتهى إلى قوله:

(هُنَّ الحَمامُ فإن كسرتَ عِيافةً ... من حائهنَّ فإنهنَّ حِمامُ)

فقال المأمون الله أكبر كنتَ يا هذا قد خلطت علي الأمر منذ اليوم وكنت حسبتك بدويا ثم تأملت معاني شعرك فإذا هي معاني الحضريين وإذا أنت منهم فقصر به ذلك عنده. انظر: أبو هلال العسكري: ديوان المعاني، دار الجيل، بيروت، (١٢٠/٢) .

(٢) . انظر: ديوان أبي تمام ، علق عليه : شاهين عطية اللبناني، المطبعة الأدبية ، بيروت ١٨٨٩م، ص١٤٣ . ١٤٨.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقصد أبو تمام البصرة في جماعة من أتباعه وبها شاعرها عبد الصّمد بن المعذّل(١) فخاف عبد الصمد أن يميل النّاس إليه فكتب إليه قبل قدومه:

أنت بين اثنتين تبرز للنّا س وكلتاهما بوجه مذال

أيّ ماء يبقىٰ بوجهك هذا بين ذلّ الهوىٰ وذلّ السؤال

فلما وقف عليه رجع، وكتب علىٰ ظهر ورقته:

أفيّ تنظم قول الزّور والفند وأنت أنقص من لا شيء في العدد

أسرجت قلبك من غيظ علىٰ حنق كأنّها حركات الرّوح في الجسد

أقدمت ويحك من هجوي علىٰ خطر كالعير يقدم من خوف علىٰ الأسد

قال ابن العماد: قيل: إن العير إذا شمّ رائحة الأسد وثب عليه فزعا(٢).

بين بغداد وخراسان (٢١٨ ـ ٢٢٩هـ) :

بعد موت المأمون في سنة ٢١٨هـ أمن أبو تمام، وأخذ ينشد الشعر في شتىٰ البلاد، ويبدو أنه شد رحاله إلىٰ بغداد بعد وفاة المأمون سنة ٢١٨هـ ، وقد أخذت تتوثق العلاقة بينه وبين إسحاق بن إبراهيم المصعبي القائم علىٰ شرطة بغداد وأعمالها، ونراه يشيد بانتصاراته علىٰ المحمِّرة الذين ثاروا بالجبل شمالي إيران لسنتي ٢١٨، ٢١٩هـ إشادات رائعة.

وفي بغداد ذاع شعر أبي تمام وانتشر، حتىٰ سمع به الخليفة المعتصم، فاستدعاه وقربه منه، فكان ذلك فاتحة خير عليه وتحسنت حالته.

قضىٰ أبو تمام في كنف المعتصم مدة لم يجد في أثنائها لديه ما يضارع طموحه فتركه وولىٰ وجهه شطر خراسان ليمدح واليها عبد الله بن طاهر بن الحسين ، وقد اشتدت الفتن فيها من أثر بابك الخرمي ، وانتهز أبو تمام فرصة إقامته بنيسابور مع عبد الله بن طاهر فاتصل بالقائد أبي دلف العجلي ، وبالقائد حيدر بن كاوس الأفشين ، وبالقائد أبي سعيد محمد بن يوسف الثغري، وسوىٰ هؤلاء كجعفر بن دينار الطائي، وقد بقي أبو تمام في خراسان إلىٰ أواخر سنة ٢٢٢هـ.

---

(١) . هو عبد الصمد بن المعذل بن غيلان بن الحكم العبدي ، من بني عبد القيس، أبو القاسم، من شعراء الدولة العباسية، ولد ونشأ في البصرة، وكان هجّاءًا، شديد العارضة سكّيراً. الأعلام للزركلي، ط/١٥ دار العلم للملايين، بيروت ٢٠٠٢م، ج ٤ ص١١.

(٢) . ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق – بيروت ١٩٨٦م (١٤٦/٣).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وفي هذه الأثناء ألف أبو تمام كتاب الحماسة، ففي أثناء عودته من رحلته إلىٰ عبد الله بن طاهر عرج علىٰ أبي الوفاء بن سلمة في همذان فحبسه الثلج عنده أشهراً ، فأكبّ علىٰ خزانة كتبه يؤلف ويصنف مجاميع من الشعر أشهرها كتاب الحماسة ، وهو يصور لنا من بعض الوجوه دقة ذوق أبي تمام كما يصور ثقافته الواسعة بالشعر العربي ودرره النفيسة في القديم والحديث.

ولم يترك أبو تمام خراسان إلا حينما تركها عبد الله بن طاهر قادماً إلىٰ سامراء ومعه الثائر بابك الخُرَّمي فوصل إليها في صفر ٢٢٣هـ ، وقد صحب عبد الله بن طاهر في مقدمه علىٰ سامراء أبو تمام والقائد الأفشين، وفي سامرّا أدخل المعتصم الشعراء علىٰ الأفشين ليمدحوه ، فمدحه أبو تمام بقصيدته :

بَذَّ الجِلادُ البذّ فهْوَ دفينُ ما إن به إلا الوحوش قطينُ

وفي منتصف عام ٢٢٣هـ خرج توفيل (ثيوفيلوس) إمبراطور الروم إلىٰ زِبَطْرة ـ وهي بلدة ولد فيها المعتصم وقيل: بل وُلدت أمه فيها ـ وسبىٰ من أهلها وارتكب فظائع هائلة، ورووا أن امرأة هاشمية صرخت مستجيرة بالخليفة فقالت : وامعتصماه، فتجهَّز المعتصم لمحاربة الروم متجها نحو عمّورية ، وكان معه الأفشين وأبو تمام، وبعد الاستيلاء علىٰ عمورية وإحراقها عاد المعتصم إلىٰ سامرا فأنشده أبو تمام قصيدته الخالدة أبد الدهر :

السيف أصدق أنباءً من الكتبِ في حده الحد بين الجدِّ واللعبِ

أخذت تتوثق علاقة أبي تمام منذ عودته من خراسان بأحمد بن أبي دؤاد مستشار المعتصم وقاضي قضاته ، وبأحمد بن المعتصم وبكثيرين من رجالات الدولة وقوادها ، وما نكاد نتقدم في سنة ٢٢٤هـ حتىٰ يخلع الطاعة مازيَّار بطبرستان، وما تزال جيوش الخلافة تنازله حتىٰ تأتي به صاغراً إلىٰ "سُرّ من رأىٰ" في سنة ٢٢٥هـ فيقتل ويصلب بجانب بابك، وتجمعت أدلة قاطعة علىٰ خيانة الأفشين وزندقته، وأنه يبطن الكفر وينتوي الغدر بالدولة والإيقاع بأبطالها وخاصة من العرب أمثال أبي دلف ، فيأمر المعتصم بالقبض عليه وإلقائه في غيابات السجون ، ويموت، فيصلب بجانب بابك ، ثم يحرق بالنار التي كان يعبدها من دون الله ، وما يلبث أبو تمام أن ينشد المعتصم قصيدته البديعة:

الحقُّ أبلجُ والسيوفُ عَوَاري فَحَذارِ مِنْ أَسَدِ العرينِ حذارِ

وقد صوَّر فيها كفران الأفشين بالإسلام وبنعم الدولة ونقضه لما بينه وبين المعتصم من عهود ومواثيق وبغيه الذي أورده موارد الهلاك ، وما كان من حرقه بالنار وصلبه قبل ذلك بجوار بابك ومازيار يقول:

مازال سرُّ الكفر بين ضلوعه حتىٰ اصطلىٰ سرَّ الزِّنادِ الواري

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

ناراً يُساورُ جسمه من حَرِّها لهبٌ كما عصْفَرْتَ شقَّ إزارِ
صَلَّىٰ لها حيًّا وكان وَقُودُها مَيْتاً ويدخلها مَع الفُجَّارِ
ولقد شفىٰ الأحشاءَ من بُرَحائها أن صار بابَكُ جارَ مازيَّارِ
سودُ الثيابِ كأنما نُسجت لهم أيدي السموم مَدارعاً من قارِ
كادوا النبوة والهدىٰ فتقطّعت أعناقُهم في ذلك المضمارِ(١)

لم يألف أبو تمام الاستقرار في بلد من البلدان مدة طويلة ، فما إن هدأ قليلاً في سامرّا بعد فتح عمورية ومقتل الأفشين حتىٰ عاد سيرته الأولىٰ من التطواف بين سنتي ٢٢٥، و٢٢٧هـ ، "وانعقدت في هذه الفترة صلة وثيقة بينه وبين ابن الزيات منذ وزارته للمعتصم سنة ٢٢٥هـ، وكذلك بينه وبين كاتبه الحسن بن وهب، وظل يمدح أبا سعيد الثغري وخالد بن يزيد والي أرمينية ومالك بن طوق التغلبي والي الجزيرة، ومدح موسىٰ بن إبراهيم الرافقي والي دمشق للمعتصم والواثق، وتهاداه الرؤساء وكبار رجال الدولة"(٢)، وعاد أبو تمام إلىٰ سامرّاء ليعزِّي الواثق في أبيه المعتصم، ويهنئه بالخلافة بقصيدته الميمية:

ما للدموع تروم كل مرامِ والجفن ثاكلُ هجعةٍ ومنامِ

ويبدو أن أبا تمام حج بعد ذلك ثم بقي نحو عامين في العراق إلا أن كثرة تطوافه في الأرض كان قد نهك جسمه قبل أن تتقدم به السن فآثر أن يخلد إلىٰ شيء من الراحة بعيداً عن مشاغل الدنيا وعن إرهاق النفس بالمدائح وربما اضطر إلىٰ بذل مديحه لغير مستحقه من أمثال موسىٰ بن إبراهيم الرافقي، فتمنىٰ لو صار له عمل في الدولة يدرّ عليه ما يكفيه مئونته ، وسرعان ما حقق له صديقه الحسن بن وهب أمنيته ، فعينه علىٰ بريد الموصل، وكانت هذه الولاية ولاية شرف يستجم فيها أبو تمام ويقبضُ منها راتباً ، غير أنه لم يمكث في هذا المنصب أكثر من عامين اثنين من أوائل سنة ٢٢٩هـ إلىٰ وفاته(٣).

وفاة أبي تمام:

توفي أبو تمام بالموصل في المحرم من سنة ٢٣٢هـ ، وعمره آنذاك إحدىٰ وأربعون سنة، وبنىٰ عليه أبو نهشل بن حميد الطوسي قبة خارج باب الميدان علىٰ حافة الخندق ، أما اليوم فإن رفاته في حديقة البلدية في ضريح ضخم، ولأجله استثنىٰ الشاعر قبور الموصل في قوله:

---

(١) . التبريزي: شرح ديوان أبي تمام (١/ ٣٣٥ . ٣٤٢).

(٢) . د. شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الأول، ص ٢٧٤.

(٣) . عمر فروخ: أبو تمام شاعر الخليفة محمد المعتصم بالله ، ص٣٠ . ٣٥ بتصرف.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

سقىٰ الله دوح الغوطتين ولا ارتوت من الموصل الجدباء إلا قبورها

الشعراء يرثون أبا تمام:

ورثىٰ أبا تمام نفر كثيرون منهم ديك الجن أستاذه، والبحتري تلميذه، ومنهم صديقاه وممدوحاه محمد بن عبد الملك الزيات، والحسن بن وهب، وصديقه الشاعر علي بن الجهم وسواهم.

قال البحتري في رثاء أستاذه أبي تمام، ودعبل الخزاعي الذي مات بعد أبي تمام :

قَدْ زَادَ في كلَفِي وَأَوْقَدَ لَوْعَتي مَثْوَىٰ حَبِيبٍ يَوْمَ مـاتَ وَدِعْبِلِ
وَبَقَـاءُ ضَرْب الخُثَعمِيِّ وَشِبْهِهِ مِنْ كلِّ مُضْطَرِبِ القَريحةِ مُهْمِلِ
أَهْلُ المعَانِي المستَحِيلةِ إنْ هُمُ طَلَبُوا البَدَاعَةَ وَالكَلاَمِ المُعْضِلِ
أَخَوَيَّ، لاَ تَزَلِ السَّمَاءُ مُخِيلَةً تَغْشَـاكُمَا بِحَيـًا مُقِيمٍ مُسْبِلِ
جَدَث عَلَىٰ الأَهْوَازِ يَبْعُدُ دُونَهُ مَسْرَىٰ النَّعِيِّ وَرِمَّةٌ بِالمَوْصِلِ

ورثاه الحسن بن وهبٍ فقال:

سَقَتْ بالمَوْصِلِ القَبْرَ الغَريبَا سُحَـائِبُ يَنْتَحِبْنَ لَهُ نَحيبَا
إِذَا أَطْلَعْنَهُ أَطْلَقْنَ فِيهِ شَعِيبَ المُزْنِ مُنْبَعِقـًا شَعِيبَا
وَلَطَّمتِ البُرُوقُ لَهَـا خُدُوداً وَشَقَّقَتِ الرُّعُـودُ لَهَا جُيُوبَا
فإِنّ تُرابَ ذَاكَ الْقَبْرِ يَحْوِي حَبيبـًا كَانَ يُدْعَىٰ لِي حَبِيبَا
ظَـرِيفـًا شَـاعِراً فَطِنـًا لَبِيبـًا أَصِيلَ الرَّأْيِ في الْجُلَّىٰ أَرِيبَا
إِذَا شَـاهَـدْتَه رَوَّاكَ ممَّـا يَسُرُّكَ رِقَّة مِنْهُ وَطِيبَا
أَبَـا تَمَّـامٍ الطّـائِيَّ، إِنَّـا لَقِينَا بَعْـدَكَ العَجَبَ العَجِيبَا
فَقَـدْنَا مِنْكَ عِلْقـًا لاَ تَرَانَا نُصِيبُ لَهُ مَـدَىٰ الدُّنْيَا ضَرِيبَا
وَكُنْـتَ أَخـًا لنَا تُدْنِي إِلَيْنَا صَمِيمُ الـوُدِّ وَالنَّسَبَ القَرِيبَا
وَكانَتْ مَذْحِجٌ تُطْوَىٰ عَلَيْنَا جَمِيعـًا ثُمَّ تَنْشُرُنَا شُعُوبَا
فَلَمَّا بِنْتَ نَكَّرَتِ اللّيَـالِي قَرِيبَ الدَّارِ وَالأَقْصَىٰ الْغَرِيبَا
وَأَبْدَي الدَّهْرُ أَقْبَحَ صَفْحَتَيْهِ وَوَجْهـًا كالِحـًا جَهمًـا قَطُوبَا
فَأَحْرِ بِأَنْ يَطِيبَ المَـوْتُ فيهِ وَأَحْـرِ بِعيشَـةٍ أَلاَّ تَطِيبَا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقال فيه أيضاً:

فُجِعَ القَريضُ بخاتَمِ الشُّعراءِ وغَديرِ رَوْضَتِهَا حَبيبِ الطَّائي
مَاتَا مَعاً فتجاوَرَا في حُفْرَةٍ وكذاكَ كانَا قبلُ في الأَحيَاءِ

وقال محمد بن عبد الملك يرثيه وهو وزير:

نَبَأٌ أَتَىٰ مِنْ أَعظَمِ الأَنْبَاءِ لَمَّا أَلَمَّ مُقَلْقِلُ الأَحشَاءِ
قَالُوا: حَبيبٌ قد ثَوَىٰ، فأَجبْتُهُمْ: نَاشَدْتُكُمْ لاَ تَجْعَلُوهُ الطّائِي

وقال أيضاً:

ألاَ للهِ مَا جَنَتِ الخُطُوبُ تُخُرِّمَ مِنْ أَحِبَّتِنَا حَبِيبُ
فَماتَ الشِّعْرُ مِنْ بَعْدِ ابنِ أَوْسٍ فَلاَ أَدَبٌ يُحَسُّ وَلاَ أَدِيبُ
وكُنْتَ ضَرِيبَ وَحْدِكَ يا ابنَ أَوْسٍ وَهَذا النَّاسُ أخلاقٌ ضُروبُ
لِئِنْ قَطَعَتْكَ قَاطِعَةُ المنَايَا لَمِنْكَ وَفيكَ قطِّعتِ القُلوبُ

وقال علي بن الجهم يرثيه:

غَاضَتْ بدَائِعُ فِطْنَةِ الأَوْهَامِ وَعَدَتْ عليْهَا نَكْبَةُ الأَيَّامِ
وَغَدَا القَرِيضُ ضَئِيلَ شَخْصٍ بَاكِياً يَشْكُو رَزِيَّتَهُ إلىٰ الأَقْلاَمِ
وَتَأَوَّهَتْ غُرَرُ القَوَافِي بَعْدَهُ وَرَمَىٰ الزَّمَان صَحِيحَهَا بِسَقَامِ
أَوْدَىٰ مُثَقِّفُهَا وَرَائِضُ صَعْبِهَا وَغَدِيرُ رَوْضَتِهَا أَبُو تَمَّامِ

وقال عبد الله بن أبي الشيص:

أَصْبَحَ في ضَنْكٍ منَ الأَرْضِ أكثرُ في الأرضِ منَ الأرْضِ
مَنْ عَرْضُ ذِكْرَاهُ وَمَنْ طُولُهَا كالأَرْضِ ذَاتِ الطُّولِ وَالعَرْضِ
أَكْرِمْ بِمَلْحُودٍ يُدَانَي إلىٰ وَجْهِكَ يا ابْنَ الْكَرمِ المحْضِ
مَا في حَبيبٍ لي ابنَ أَوْسٍ، أُسىً يَجْمَعُ بَينَ الجَفْنِ والغُمْضِ
حارَ ذَوُو الآدَابِ إذْ فُوجِئُوا منْهُ بَيومٍ غَيْرِ مُبْيَضِّ
طَوْدٌ مِنَ الشِّعْرِ دَعَا بَعْضُهُ بَعْضاً، فَهُدَّ البَعْضُ بالبَعْضِ
بَحْرٌ مِنَ الشِّعْرِ لَهُ جَائِشٌ مُلْتَطِمٌ باللُّؤْلُؤِ الْبَضِّ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

كأنما الشَّعْرُ شِعَارٌ لَهُ أَوْ وَرَقٌ فِي غُصُنٍ غَضِّ
لَمَّا أَتَمَّ اللهُ فِيكَ الذي أَمَّلتَ مِنْ بَسْطٍ وَمنْ قَبْضِ
رَمَاكَ رَامٍ لِلْمَنَايَا وَمَا آذَنَ عِنْدَ الرَّمْيِ بِالنَّبْضِ
لَوْ كانَ لِلشِّعْرِ عُيُونٌ بَكَتْ لِكَوْكَبٍ لِلشِّعْرِ مُنْقَضِّ

وقال، ووجدته بخط ابن مِهْرَوَيْه:

يا حُفْرَةَ الطّائيِّ، أَيَّ امْرِئٍ أثويتِ منه في ثرىٰ الرمسِ
شِعَارُهُ أَنتِ وَلَمْ تَشْعُرِي بأنه أشعرُ ذي نفسِ
كَمْ بَيْنَ أَثْنَائِكِ منْ حِكْمَةٍ كانت شفاء النفس بالأمس(١)

******

أسرة أبي تمام :

أخبار أبي تمام في أسرته قليلة ، وبين مراثيه مرثية في زوجة له، ويقال إنه كان له أخ يسمىٰ سهماً يجري علىٰ لسانه شعر ضعيف ، وكان له أخ آخر مات في حياة أبي تمام ورثاه أبو تمام، وكان ابنه تمام يقول الشعر لكنه لم يبلغ منزلة أبيه، ويظهر أنه كان له بنون مختلفون ، وقد احتسب منهم اثنين رثاهما رثاءً مؤثراً.

وقد فقد أبو تمام أباه أثناء مقامه في مصر، حيث جاءته رسالة موشحة بالسواد، فقال أبو تمام:

بنفسي أرضُ الشامِ لا أيمن الحمىٰ ولا أيسرُ الدهنا ولا وسط الرملِ
ولم أر مثلي مستهاماً بمثلكم له مثلُ قلبي ما فيه لا يغلي
عَدَتْنِيَ عنكم مُكرهاً غُربة النوىٰ لها طربةٌ في أن تُمِرَّ ولا تُحْلي
أخمسةُ أحوالٍ مضت لمغيبه وشهران بل يومان نِكْلٌ من النكلِ
نأيتُ فلا مالاً حويتُ ولم أُقِمْ فَأَمتَعَ إذْ فُجِّعتُ بالمالِ والأهلِ(٢)

وتوفي لأبي تمام ابن يسمىٰ محمداً رثاه أبو تمام بقصيدة يقول فيها:

لا يشمَت الأعداءُ بالموت إننا سنُخلي لهم من عرصة الموت موردا
ولا تحسبن الموت عاراً فإننا رأينا المنايا قد أصبن محمدا

(١) . انظر: الصولي: أخبار أبي تمام ، ص ٢٧٤ . ٢٧٩.
(٢) . انظر: شرح ديوان أبي تمام (٢/ ٤٣٨).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولا يحسب الأعداء أن مصيبتي أكَلَّت لهم مني لسانًا ولا يدا

تتابع في عام بنيَّ وإخوتي فأصبحت إن لم يخلف الله واحدا(١)

وقال يرثي جاريته وقد ماتت في حياته:

أُصبتُ بخودٍ سوف أغبرُ بعدها حليف أسىً أبكي زمانًا زمانها

عِنانٌ من اللذات قد كان في يدي فلما مضىٰ الإلفُ استردت عنانها

مَنحتُ الدُّمَىٰ هجري فلا محسناتها أوَدُّ ولا يهوىٰ فؤادي حِسانها

يقولون هل يبكي الفتىٰ لخَريدةٍ متىٰ ما أراد اعتاض عشراً مكانها؟!

وهل يستعيض المرء من خمس كفه ولو صاغ من حُرّ اللُّجَين بَنانَها؟!(٢)

ومات ابن لأبي تمام في ريعان الشباب يكنىٰ بأبي علي، رثاه أبو تمام، ومما قاله في رثائه:

كان الذي خِفْتُ أن يكونا إنا إلىٰ الله راجعونا

أمسىٰ المُرَجَّىٰ أبو عليٍّ مُوَسّداً في الثرىٰ يمينا

حين استوىٰ وانتهىٰ شباباً وحقَّق الرأي والظنونا

أُصِبْتُ فيه وكان عندي علىٰ المصيبات لي معينا

كنت كثيراً به عزيزاً وكنت صبًّا به ضنينا(٣)

ولعل هذه المصائب والنكبات التي حلت بأهله الذين رُزء بموتهم، فضلاً عن غربته الدائمة كان له أبعد الأثر في أن يكون شعره المتدفق من نفسه الجريحة ، وقلقه الدائب مختلفاً أيما اختلاف عن شعر معاصريه في الألفاظ والبنىٰ والتراكيب والصور الخيالية المعقدة التي تعبر عن نفس قهرت كل الصعاب وتحدت الخطوب، واصطلت بنيران الزمن فكان شعراً قوياً، فيه روعة وفخامة تليقان بهذه النفس والروح القوية المستعصية علىٰ نوائب الدهر وفجائعه.

آثار أبي تمام:

أبو تمام شاعر مؤلف، اعتنىٰ باختيار منتقيات شعرية في مختلف العصور الأدبية التي سبقته، فكان بذلك أول شاعر عني بالتأليف، وكان أول من نبه إلىٰ تآليفه الآمدي إذ يقول: "كان أبو تمام مستهتراً بالشعر، مشغوفاً به، مشغولاً مدة عمره بتخيره ودراسته، وله كتب اختيارات فيه مشهورة

(١) . شرح ديوان أبي تمام (٢/ ٢١٢) .

(٢) . شرح الديوان (٢/ ٢٤٢) .

(٣) . التبريزي: شرح ديوان أبي تمام (٢/ ٥٠٢).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

معروفة؛ فمنها: (الاختيار القبائلي الأكبر) اختار فيه من كل قبيلةٍ قصيدةً، وقد مر علىٰ يدي هذا الاختيار، ومنها اختيارٌ آخر ترجمته (القبائلي)، اختار فيه قطعاً من محاسن أشعار القبائل، ولم يورد فيه كبير شيء للمشهورين؛ ومنها: الاختيار الذي تلقَّط فيه محاسن شعر الجاهلية والإسلام، وأخذ من كل قصيدة شيئاً حتىٰ انتهىٰ إلىٰ إبراهيم بن هَرْمَة، وهو اختيار مشهور معروف (باختيار شعراء الفحول)، ومنها اختيار تلقَّط فيه أشياء من الشعراء المقلين والشعراء المغمورين غير المشهورين، وبوَّبه أبواباً، وصدره بما قيل في الشجاعة، وهو أشهر اختياراته، وأكثرها في أيدي الناس، ويلقب (بالحماسة)، ومنها (اختيار المقطعات)، وهو مبوب علىٰ ترتيب الحماسة، إلا أنه ذكر فيه أشعار المشهورين وغيرهم من القدماء والمتأخرين، وصدره بذكر الغزل، وقد قرأت هذا الاختيار، وتلقطت منه نتفاً وأبياتاً كثيرة، وليس بمشهور شهرة غيره،ومنها (اختيار مجرد في أشعار المحدثين)، وهو موجود في أيدي الناس؛ وهذه الاختيارات تدل علىٰ عنايته بالشعر، وأنه اشتغل به، وجعله وكده، واقتصر من كل الآداب والعلوم عليه؛ وإنه ما فاته كبير شيء من شعر جاهلي ولا إسلامي ولا محدث إلا قرأه واطلع عليه"(١).

قال الأستاذ عمر فروخ: "وقد عني السيد محسن الأمين بتعداد هذه المؤلفات وبأقوال مؤرخي الأدب فيها ، وفي أمثالها عناية فائقة، وفيما يلي وصف موجز لهذه المؤلفات:

١ ـ ديوان الحماسة أو كتاب الحماسة ، أو الحماسة الكبرىٰ: (...) وقد اختار أبو تمام فيها نحو سبعمائة وثمانين قطعة لنحو أربعمائة وخمسة وستين شاعراً من الشعراء المقلين، ولا سيما المغمورين منهم سوىٰ المجاهيل (...) واختار أبو تمام في الحماسة مقاطع لجميع الشعراء المقلين والمكثرين والمشهورين والمغمورين والقدماء والمحدثين، وإن كان جل اهتمامه بالمقلين المغمورين القدماء، أما المشاهير فضمت الحماسة منهم المهلهل، وطرفة، وعمرو بن كلثوم، وعنترة والنابغة في الجاهليين، وحسان والخنساء والفرزدق والأخطل وجميل بن معمر في الإسلاميين، وأبا العتاهية والعباس بن الأحنف ومسلم بن الوليد ثم بكر بن النطاح المعاصر لأبي تمام من المحدثين (...) وتنقسم الحماسة عشرة أبواب، هي عشرة فنون من الشعر: الحماسة ـ المراثي ـ الأدب (الحكمة) ـ النسيب ـ الهجاء ـ الأضياف والمديح ـ الصفات (الوصف الحسي) ـ السير والنعاس ـ الملح (النكت والفكاهة والأحماض والمجون) ـ مذمة النساء ـ وقد سمىٰ أبو تمام هذا المجموع كله باسم الباب الأول منه (الحماسة) وهو أطول الأبواب وأهمها في هذا المجموع القيم ، واشتهر كتاب الحماسة لأبي تمام شهرة غطت علىٰ شهرة كل مجموع آخر شبيه به ، وقد دل هذا الديوان علىٰ سعة اطلاع أبي تمام وغزارة علمه بالشعر وحسن ذوقه في الاختيار حتىٰ قيل إن أبا تمام كان في اختياره لديوان الحماسة أشعر منه في شعره، ومن أوجه الأهمية لديوان الحماسة أننا

---

(١) . الموازنة (١/٥٨ . ٥٩).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

نجد فيه أشعاراً لا نعرفها في مكان آخر، ولقد عد السيد محسن الأمين شروح ديوان الحماسة فوجدها أربعة وثلاثين شرحاً بعضها شروح عامة كشرح الإمام المرزوقي المتوفى ٤٢١هـ، وشرح الخطيب التبريزي المتوفى ٥٠٢هـ، ومنها أيضاً شروح خاصة تتناول أوجه معينة من هذا الديوان القيم، فهناك المبهج في شرح أسماء رجال الحماسة لابن جني، ومنها رسالة في ضبط أعلام الأماكن في ديوان الحماسة لأبي هلال العسكري.

٢ ـ الحماسة الصغرى وتعرف أيضاً باسم الوحشيات، جمع أبو تمام هذا الكتاب من شعر الشعراء العرب (أي القدماء) ورتبه على عشرة أبواب، هي أبواب الحماسة الكبرى نفسها، ويبدو أن الحماسة الصغرى قصائد طوال، ووهم السيد محسن الأمين مرة فجعل الوحشيات كتاباً مستقلاً غير الحماسة الصغرى.

٣ ـ كتاب الفحول، أو كتاب فحول الشعراء، أو كتاب اختيار شعراء الفحول، هذا المجموع مقاطع من شعر الشعراء الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين على الأنواع وينتهي بابن هرمة.

٤ ـ كتاب الاختيار من شعر القبائل، وبسميه السيد محسن الأمين "الاختيار القبائلي الأكبر"، ويذكر أنه رآه، ولعله كتاب الاختيارات من شعر الشعراء.

٥ ـ الاختيار القبائلي الأصغر، اختار فيه أبو تمام مقاطع من محاسن أشعار القبائل، ومعظمه لغير المشهورين.

٦ ـ اختيار المقطعات، وهو مبوب على ترتيب الحماسة، وفيه أشعار للمشهورين ولغير المشهورين من القدماء والمتأخرين، وهو يبدأ بأشعار الغزل.

٧ ـ كتاب مجرد في أشعار المحدثين"(١).

الفصل الثالث

صفاته وأخلاقه

صفاته وأخلاقه:

كان أبو تمام طويل القامة، أسمر اللون، رفيعاً، أنيق الهيئة، أجشّ الصوت، حسن الحديث، فيه تمتمة يسيرة، كريماً، جواداً، مسرفاً، قويّ العقل، شديد الاعتماد عليه والإيمان به، حادّ الذكاء عميقه، حاضر البديهة سريعها، حادّ الشعور، مرهف الحسّ، صافي القريحة، جمّ الأدب غزيره، شغوفاً بالجمال يتعشّقه أينما وُجِد، ولوعاً بالنساء، سهل الخلق، رضيّ النفس، من أكثر الناس

(١) . أبو تمام شاعر الخليفة محمد المعتصم بالله، ص ١٠٣ . ١٠٨.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

مزاحاً، مترفعاً، وقوراً، شديد الاعتداد بنفسه والإخلاص لها ولفنه، يقدّس القوة(١)، قاسياً علىٰ أعدائه، رحيماً بأصدقائه، حضرياً، يحبّ اللهو، ويغرم بعيش المدن الصاخب، مقتصداً في اتصاله بالحياة، معتدلاً في تبذُّله، حذراً، مؤمناً بالقضاء، يرضىٰ بما يكون، مؤمناً بعروبته(٢).

كان أبو تمام إذن رجلاً عربي الملامح، شرقيّ السمات؛ فهو أسمر اللون، طويل القامة، حلو الكلام فصيحه كأن لفظه لفظ الأعراب(٣)، غير أن في لسانه حبسة، وفي كلامه تمتمة يسيرة، حتىٰ قال مخلد بن بكار الموصلي فيه:

يا نبي الله في الشعـ ـر ويا عيسىٰ بن مريم

أنت من أشعر خلق الـ ـله ما لم تتكلم(٤)

ومن أجل هذه التمتمة اليسيرة كان له راوية حسن الصوت حسن النشيد، روىٰ الصولي أن أحمد بن إبراهيم قال: حدثني محمد بن روح الكلابي قال: نزل عليّ أبو تمام الطائي فحدثني أنه امتدح المعتصم بسر من رأىٰ بعد فتح عمورية، فذكره ابن أبي دؤاد للمعتصم، فقال له: أليس الذي أنشدنا بالمصيصة الأجش الصوت؟ قال: يا أمير المؤمنين ، إن معه راوية حسن النشيد، فأذن له، فأنشده راويتُه مدحة له، ولم يذكر القصيدة، فأمر له بدراهم كثيرة، وصكّ ماله علىٰ إسحاق بن إبراهيم المصعبي، قال أبو تمام: فدخلت إليه بالصك، وأنشدته مديحاً له، فاستحسنه وأمر لي بدون ما أمر لي المعتصم قليلاً، وقال: والله لو أمر لك أمير المؤمنين بعدد الدراهم دنانير لأمرت لك بذلك(٥).

وَكَانَ أبو تمام مَوْصُوفًا بالظرف، وحسن الأخلاق، وَكرم النفس(٦)، ومع أنه قد صاحب أبا نواس، ومسلم بن الوليد من خلال شعرهما وآثارهما، وصاحب ديك الجن وغيره من الشعراء

---

(١) . انظر: كمال اليازجي: معالم الفكر العربي، ص ١٠٦-١٠٧.

(٢) . انظر: د. البهبيتي: أبو تمام الطائي، ص ٣٨ . ٤٣، ومن حديث الشعر والنثر لطه حسين ٩٦-٩٧، والعصر العباسي الأول لشوقي ضيف ٢٧٥-٢٧٦.

(٣) . أبو بكر محمد بن يحيى الصولي: أخبار أبي تمام ، تحقيق: خليل محمود عساكر وآخرين ، ط/ ٣، دار الآفاق الجديدة ، بيروت، ١٩٨٠م، ص ٢٥٩.

(٤) . البيتين من قصيدة قالها "مخلد بن بكار الموصلي" وهو شاعر عباسي عرف بهجائه لأبي تمام ، حتى قيل لأبي تمام: قد هجاك مخلد، فلو هجوته؟ قال: الهجاء يرفع منه، قيل: أليس هو شاعراً؟ قال: لو كان شاعراً ما كان من الموصل. يعني أن الموصل لم تخرج شاعراً. قال أبو سليمان: وأصل مخلد من الرحبة ثم أقام بالموصل. أبو بكر الصولي: أخبار أبي تمام (٣٤/١).

(٥) . أبو بكر الصولي: أخبار أبي تمام ، ص ١٤٣ . ١٤٤.

(٦) . تاريخ بغداد (٢٤٢/٨) .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المعروفين بالمجون إلا أنه كان عفيفاً يربأ بنفسه عن الدنايا، وما ذاك إلا لأنه كان مرتبطا بدينه، وبعروبته الأصيلة التي تميز بها عن هؤلاء جميعا، وليس أدل علىٰ هذا من قوله:

أخاف إلهي ثم أرجو نواله ولكن خوفي قاهرٌ لرجائيا

ولولا رجائي واتكالي علىٰ الذي توحَّد لي بالصنع كهلاً وناشيا

لما ساغ لي عذبٌ من الماء باردٌ ولا طاب لي عيش ولا زلتُ باكيا

علىٰ إثر ما قد كان مني صبابة ليالِيُ فيها كنتُ لله عاصيا

فإني جديرٌ أن أخاف وأتقي وإن كنت لم أشرك بذي العرش ثانيا

وأدَّخِرُ التقوىٰ بمجهود طاقتي وأركب في رشدي خلاف هوائيا(١)

هكذا كان أبو تمام يخالف هواه ، ويتقي ربه ، ويندم علىٰ تقصيره في حق مولاه وخالقه، وهذا ما أكده ابن كثير بقوله: "وَقَدْ كَانَ الشُّعَرَاءُ فِي زَمَانِهِ جَمَاعَةً فَمِنْ مشاهيرهم أبو الشيص(٢)، ودعبل، وابن أبىٰ قيس، وكان أَبُو تَمَّامٍ مِنْ خِيَارِهِمْ دِينًا وَأَدَبًا وَأَخْلَاقًا(٣).

وفي هذا الكلام أبلغ رد علىٰ مرجليوث الذي يذهب إلىٰ أن أبا تمام كان يتهاون في الفرائض، وفيه أيضاً رد علىٰ لويس شيخو الذي ادعىٰ أن أبا تمام كان يتهاون بأمور الدين اعتقاداً لا تماجنا(٤).

ولعلهم في اتهامهم له بالزندقة أو الكفر قد اعتمدوا علىٰ تلك الرواية التي أوردها الصولي في كتابه (أخبار أبي تمام) ، يقول: سمعت الحسن بن الحسن بن رجاء يحدث أبا سعيد الحسن بن الحسين الأزدي، أن أباه رأىٰ أبا تمام يوماً يصلي صلاةً خفيفةً، فقال له: أتم يا أبا تمام، فلما انصرف من صلاته قال له: قِصَر المال، وطول الأمل، ونقصان الجدة، وزيادة الهمة، يمنع من إتمام

---

(١) . الخطيب التبريزي: شرح ديوان أبي تمام ، تحقيق: راجي الأسمر ، دار الكتاب العربي، بيروت ط/٢ ١٩٩٤م (٢/ ٤٦٣ . ٤٦٤).

(٢) . لعل المقصود هنا عبد الله بن أبي الشيص، لأنه هو الذي عاصر أبا تمام، وهو الذي رثاه بعد موته، أما أبو الشيص فقد مات سنة ١٩٦هـ وكان أبو تمام إذ ذاك صغيراً.

(٣) . أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير : البداية والنهاية، دار الفكر، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦م (١٠/٣٠٠).

(٤) . يقول لويس شيخو: "أما المسعودي في مروج الذهب فنسب أبا تمام إلى المجون وقلة الدين قال (١٥١/٧) : (وكان أبو تمام ماجناً خليعاً في بعض أحواله وربما أدّاه ذلك إلى نرك موجبات فرضه تماجناً لا اعتقاداً) ثم يعلق لويس شيخو بقوله: "فترى أن إسلام أبي تمام كان سطحياً ليس تماجناً فقط كما قال المسعودي بل اعتقاداً أيضاً فذكرناه هنا بين شعراء النصرانية ليس افتخاراً بدينه بل بياناً لحقيقة تاريخية ". انظر: شعراء النصرانية القسم الثالث ، شعراء الدولة العباسية ص ٢٥٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الصلاة، لا سيما ونحن سَفْرٌ، فكان أبي يقول: وددت أنه يعاني فروضه كما يعاني شعره، وأني مغرم ما يثقل غرمه؟(١).

مجرد التخفيف في الصلاة جعلوها تهمة تخرجه من هذا الدين بعد أن غيروا في الرواية وبدلوا بعض ألفاظها، بنىٰ عليها المسعودي حكمه، وتبعه مرجليوث، وتلقفها لويس شيخو، ورددها كثير من الباحثين المعاصرين.

يقول د. شوقي ضيف : "وتوسع بعض الباحثين في الخبر فقالوا إنه (أي الحسن بن رجاء) لاحظ عليه تقصيره في أداء الفروض الدينية، وديوانه وما به من مواعظ دينية يشهد علىٰ صحة إسلامه ، وأيضاً ففيه قصيدة وصف بها حجة حجها.

وليس في ديوانه وراء ذلك ما يصور أنه كان عابثاً أو ماجناً، يلهو ولكن بقسطاس، وكأن خصومه حاولوا أن يغضوا منه فزيّفوا عليه الخبر السالف طعناً عليه ومحاولة للنقص منه، أما الخبر الذي يُذكر فيه أنه كان له غلام رومي وللحسن بن وهب غلامٌ خزري وكل منهما يتعشق غلام صاحبه ، فهو أدنى إلىٰ الفكاهة، ولعل غلام أبي تمام المذكور هو الذي كان ينشد شعره، والحق أنه كان وقوراً ، وكان يترفّع عن الدنايا ، وكان مخلصاً لدينه كما كان مخلصاً لعروبته"(٢).

إذن فأصل التهمة التي يرددها المحدثون إنما هي تهمة قديمة، وقد وصل الحال ببعضهم إلىٰ أن رموه بالكفر، وقد عرض أبو بكر الصولي هذه القضية ورد عليها، قال: "وقد ادَّعىٰ قومٌ عليه الكفر بل حققوه، وجعلوا ذلك سبباً للطعن علىٰ شعره، وتقبيح حسنه، وما ظننت أن كفراً ينقص من شعرٍ، ولا أن إيماناً يزيد فيه، وكيف يحقق هذا علىٰ مثله، حتىٰ يسمع الناس لعنه له، من لم يشاهده ولم يسمع منه، ولا سمع قول من يوثق به فيه؟ وهذا خلاف ما أمر الله عز وجل، ورسوله عليه السلام به، ومخالف لما عليه جملة المسلمين؛ لأن الناس علىٰ ظاهرهم حتىٰ يأتوا بما يوجب الكفر عليهم بفعلٍ أو قولٍ، فيرىٰ ذلك أو يسمع منهم، أو يقوم به بينة عليهم.

واحتجوا برواية أحمد بن أبي طاهر، وقد حدثني بها عنه جماعة أنه قال: دخلت علىٰ أبي تمام وهو يعمل شعراً، وبين يديه شعر أبي نواس ومسلمٍ، فقلت: ما هذا؟ قال: اللات والعزىٰ، وأنا أعبدهما من دون الله مذ ثلاثون سنةً.

وهذا إذا كان حقاً فهو قبيح الظاهر، رديء اللفظ والمعنىٰ، لأنه كلام ماجنٍ مشعوفٍ بالشعر، والمعنىٰ أنهما قد شغلاني عن عبادة الله عز وجل، وإلا فمن المحال أن يكون عبد اثنين لعله عند نفسه أكبر منهما، أو مثلهما، أو قريب منهما، علىٰ أنه ما ينبغي لجادٍ ولا مازحٍ أن يلفظ بلسانه، ولا

---

(١) . أخبار أبي تمام ، ص ١٧٢.

(٢) . د. شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، ص ٢٧٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

يعتقد بقلبه، ما يغضب الله عز وجل، ويتاب من مثله؛ فكيف يصح الكفر عند هؤلاء علىٰ رجلٍ، شعره كله يشهد بضد ما اتهموه به، حتىٰ يلعنوه في المجالس؟ ولو كان علىٰ حال الديانة لأغروا من الشعراء بلعن من هو صحيح الكفر، واضح الأمر، ممن قتله الخلفاء - صلوات الله عليهم - بإقرارٍ وبينةٍ، وما نقصت بذلك رتب أشعارهم، ولا ذهبت جودتها، وإنما نقصوا هم في أنفسهم، وشقوا بكفرهم"(١).

ولو كان أبو تمام ماجنا خليعاً كما يزعم البعض لانساق وراء الجارية التي دفع بها الحسن بن وهب لإغراء أبي تمام؛ فقد روىٰ الصولي عن صالح غلام أبي تمام قال:دخل أبو تمام علىٰ الحسن بن وهبٍ، وأنا معه، وعلىٰ رأسه جاريةٌ ظريفةٌ فأومأ إليها الحسن يغريها بأبي تمامٍ، فقالت:

يَا ابْنَ أَوْسٍ أَشْبَهْتَ فِي الفِسْقِ أَوْسَا وَاتَّخَذْتَ الغُلاَمَ إِلْفاً وَعِرْسَا

فقال أبو تمام:

أَبَرَقْتِ لِي إذ لَيْسَ لِي بَرْقُ فتَزَحْزَحِي مَا عِنْدَنَا عِشق

مَا كُنْتُ أَفْسُقُ وَالشَّبَابُ أَخِي أَفَحِينَ شِبْتُ يَجْوزُ لِي الفِسْقُ؟

لِي هِمَّةٌ عَنْ ذَاكَ تَرْدَعُنِي وَمُرَكَّبٌ مَا خَانَهُ عِرْقُ(٢)

لقد أبان أبو تمام وكشف عن الأسباب التي تجعله يترفع عن التبذل والتماجن والتزندق ، فتركيبته العربية الأصيلة، ونشأته الإسلامية العظيمة، وهمته العالية، وروحه المتوثبة، وآماله العريضة، كل ذلك يجعله لا يطأطئ رأسه ، ولا يحني جبهته لشيء ينال من كبريائه وكرامته.

ولعلنا في هذا المقام في أمس الحاجة إلىٰ شهادة زملائه وأقرانه من الشعراء الذين عاصروه لتتضح لنا الصورة جلية عن أخلاق أبي تمام الحقيقية، روىٰ الخطيب البغدادي عن علي بْن الجهم، قَالَ: "كَانَ الشعراء يجتمعون كل جمعة فِي القبة المعروفة بهم من جامع الْمَدِينَة، فيتناشدون الشعر، وَيعرض كل وَاحد منهم علىٰ أصحابه ما أحدث من القول بعد مفارقتهم فِي الجمعة الَّتِي قبلها،... إلىٰ أن يصف مقابلتهم لأبي تمام وسماع إنشاده فيقول: "فعرفناه حتىٰ صار معنا فِي موضعنا، وَلم نزل نتهاداه بيننا، وَجعلناه كأحدنا، وَاشتد إعجابنا به لدمائته، وَظرفه، وَكرمه، وَحسن طبعه، وَجودة شعره، وَكَانَ ذلك اليوم أول يوم عرفناه فيه، ثُمَّ ترقت حاله حتىٰ كَانَ من أمره ما كَانَ"(٣).

---

(١) . أخبار أبي تمام ، ص ١٧٢ . ١٧٣.

(٢) . أخبار أبي تمام ، ص ٢١٠..

(٣) . الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد (١٥٧/٩).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

******

ثقته واعتزازه بنفسه:

لقد كان أبو تمام "كبير النفس ، عالي المقام، أبيّ مترفّع عن الذل والمهانة وانحطاط النفس في حضيض ذل الطلب والاحتقار وخساسة القدر والتمرغ في بيوت الأمراء والملوك الذين كان يمدحهم كما كان يفعل كثير غيره من الشعراء، فتراه شريفاً في طلب عطائه بكامل اللياقة والأدب مع حفظ النفس في مقامها، ... ثم هو أيضاً مع كبر نفسه عارف بسموّ درجته من الشعر ومقامه في عالم الأدب، فتراه في معظم قصائده أو في كلها يصفها بأنها البكر المصون تزف عروساً مجلوّة علىٰ بعلها الممدوح، وأن لا شخص آخر يليق بها، وأنه قد وقف شعره عليه، واختصه به من بين الناس، فهو دائماً يمتنُّ في قصائده، وهكذا لا تخلو قصيدة من ديوانه تقريباً من المباهاة بشعره وتفضيله علىٰ غيره، وإنه هو الذي يذيع فضل الممدوح وشهرته في الآفاق، وينزع عنه كل عيب وعار لحق به بسبب ما قاله فيه شاعر آخر، ثم يصف قصائده بأنها الغرائب لامتيازها علىٰ مستواها من طبقة عقول الناس، ولا يفهمها إلا كل غريب الفهم، سامي الإدراك، ألا وإنها المثال الأعلىٰ للشعر والشعراء"(١).

كان أبو تمام من الشعراء الذين شعروا بقيمتهم الذاتية شعوراً حقيقياً فكان أول من أخذ بالنظر إلىٰ نفسه ثم إلىٰ شعره مؤكداً صفاتهما العالية، إنه لا يكتفي أن ينشرهما، بل يتخذ منهما موضوعاً يتابعه في أماكن كثيرة من قصائده.

وقد أشار الأستاذ المقدسي إلىٰ الصفات التي تميز بها أبو تمام، فرأىٰ أن له مزيتين بارزتين، هما: "صبره علىٰ المشاق لبلوغ المنىٰ، وشدة إعجابه بنفسه، فإذا قرأت ديوانه رأيته مفعماً بما يدل علىٰ أنه نشأ مغامراً في سبيل المال والجاه، وقد زادته كثرة أسفاره عزماً ومضاءً، فليس إذن من الغريب أن تسمعه يقول:

دعيني علىٰ أخلاقي الصم للتي هي الوفر أو سرب ترنّ نوادبه

أي دعيني ـ علىٰ ما فيّ من خلق شديد ـ أخوض غمرات الحياة فإما الغنىٰ أو الموت، وقوله من قصيدة أخرىٰ :

ولكنني لم أحو وفراً مجمّعاً ففزت به إلا بشملٍ مُبَدَّدِ

نزعة في نفس الشاعر تعبر لنا عما يختلج في نفوس البسلاء المغامرين الذين يأبون حياة الخمول، فيقتحمون الأهوال، ويخوضون الغمار طلباً للعلىٰ والمجد، تلك روح قلقة كثيرة

(١) . د. ملحم إبراهيم الأسود: بدر التمام في شرح ديوان أبي تمام ، ج١ ص ٣٤ . ٣٥.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

المطامع، وهي التي حملت شاعرنا علىٰ ترك قومه في الشام، ثم علىٰ ترك مصر والضرب في أجواز الأرض، وقد صدق في وصف حاله إذ قال:

ذات الثنايا الغر لا تتعرّضي عند الفراق بمقلتين وجيدِ

ما ابيضَّ وجه المرء في طلب العلىٰ حتىٰ يُسوّد وجهه في البيدِ

أما عنفوانه فظاهرٌ فيما رووه عنه يوم قصد عبد الله بن طاهر أمير خراسان ، قالوا لما فرغ من إنشاده بائيته التي مطلعها (أهنَّ عوادي يوسف وصواحبه) نثر عليه ألف درهم ، فاستقلها الشاعر ولم يمس منها شيئاً بل تركها للغلمان يلتقطونها ، فوجد عليه الأمير وقال: يترفَّع عن بِرِّي، ويتهاون بما أكرمته؟ فلم يبلغ ما أراده منه بعد ذلك، وأي عنفوان أشد من أن يقصد شاعرٌ أميراً جليلاً كابن طاهر فيمدحه ، ثم هو يرىٰ هبة الأمير أقلَ من قدره ، فيترفّع عن أن يمسَّها بيده.

إن هذه الصفة في أبي تمام هي التي تهيب به إلىٰ وزن نفسه بميزان ممدوحيه أو إلىٰ التفاخر والتعاظم علىٰ زملائه ومناوئيه، خذ قصيدة أبي تمام التي مدح بها القاضي أحمد بن أبي دؤاد، واعتذر إليه فيها عن إساءة، تراه يذكر فضل الممدوح وفضل قومه (إياد) ويقرن ذلك لمدح (طيّ) قبيلة الشاعر، ويجعل إياداً وطيّاً متساويتين في المحامد، فيقول:

كعبٌ وحاتمٌ اللَّذان تقاسما خطط العلىٰ من طارفٍ وتليدِ

هذا الذي خلف السحاب ومات ذا في الحمد ميتة خضرمٍ صِنديدِ

ثم يتقدم إلىٰ الاعتذار بأبيات تدل علىٰ شدة نفسه ومنها:

فاسمعْ مقالةَ زائرٍ لم تشتبهْ آراؤه عند اشتباه البيدِ

أسرىٰ طريداً للحياة من التي زعموا وليس لرهبة بطريدِ

كنتَ الربيع أمامه ووراءه قمرُ القبائل خالدُ بنُ يزيدِ

ما خالدٌ لي دون أيوب ولا عبد العزيز ولست دون يزيد

والمتأمل في هذه الأبيات يعجب من هذه العواطف التي تملي عليه أن يقول لممدوح عظيم يعتذر إليه : لم آتك رهبة منك بل خجلاً مما اتُّهمت به ، وإن مثلي في الاعتذار إليك مثل يزيد بن المهلب لما استجار من الوليد بأيوب بن سليمان وبعبد العزيز بن مروان فشفعا له ، وما خالد الذي يشفع لي بأقل منهما ، ولا أنا بأقل من يزيد بن المهلب.

ومثل ذلك قوله من قصيدة يمدح بها محمد بن يوسف:

وكنت إذا ما زرت يوماً مسوّدا سرحت رجائي في مسارح سؤددِ

فإن يجزل النعمىٰ تُثِبْه قصائدي وإن يأب لم أقنع بأصوات معبدِ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أليس بأكناف الجرير وفارس وقُمٍّ واصطخرٍ قرارٌ لروّدِ

فكأنه يقول إني شاعر كبير النفس أقصد الأمير العظيم فإن كافأني بما يستحق مقالي كافأته بما يستحقه من القصائد، وإلا فإني أتحول عنه إلىٰ الضرب في آفاق الأرض.

أما تعاظمه بشعره فهو كثير كقوله :

وسيارة في الأرض ليس بنازحٍ علىٰ وخدها حَزن سحيقٌ ولا سهبُ
تذرُّ ذرور الشمس في كل بلدة وتمسي جموحاً ما يردّ لها غربُ
إذا أنشدت في القوم ظلت كأنها مُسرة كبرٍ أو تداخلها عُجبُ
مفصّلة باللؤلؤ المنتقىٰ لها من الشعر إلا أنها اللؤلؤ الرطبُ

وقوله:

خذها معرّبة في الأرض آنسةً بكل فهمٍ غريب حين تغتربُ
لا يستقىٰ من حفير الكتب رونقها ولم تزل تستقي من بحرها الكتب
حسيبة في صميم المدح منصبها إذ أكثر الشعر ملقىٰ ما له حسبُ(١)

وقوله:

خذها مثقّفة القوافي رَبُّها لسوابغ النعماء غيرُ كَنُودِ
حَذَّاء تملأ كل أذنٍ حكمةً وبلاغةً وتُدِرُّ كُلَّ وريدِ
كالطَّعْنةِ النَّجْلاءِ من يد ثائرٍ بأخيه أو كالضربة الأُخدودِ
كالدر والمَرْجَانِ أُلِّف نَظْمُه بالشَّذْرِ في عُنُقِ الكِعاب الرُّودِ
كَشَقِيقة البُرْدِ المُنَمْنَمِ وشْيُهُ في أرضِ مَهْرَةَ أو بلادِ تَزِيدِ(٢)

وقوله في قصيدة يمدح بها الواثق:

جاءتك من نظم اللسان قِلادةٌ سِمْطَان فيها اللؤلؤ المكنونُ
حُذِيَتْ حِذَاءَ الحضْرميَّةِ أُرهِفَتْ وأجادها التخصيرُ والتلسينُ
إنسيَّةٌ وحشيَّةٌ كَثُرتْ بها حركاتُ أهل الأرض وهْيَ سَكُونُ
أما المعاني فهْيَ أبْكارٌ إذا نُصَّتْ ولكنَّ القوافيَ عُونُ

(١) . أنيس المقدسي: أمراء الشعر العربي في العصر العباسي، ط/١٧ دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٩م، ص١٨٩ . ١٩٢ .
(٢) . التبريزي: شرح ديوان أبي تمام ، (١/ ٢١٣ . ٢١٤).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أَحْذَاكَهَا صنَعُ اللسان يمده جفرٌ إذا نضب الكلام معين

ويسيء بالإحسان ظنا لا كمن هو بابنه وبشعره مفتون(١)

هكذا رأينا أبا تمام يفخر دائماً ببراعته في صنعته، وتفرده في فنه، وأن غيره من الشعراء لا يبلغون شأوه في ذلك، كما يفخر بجَلَدِه علىٰ الخطوب والأهوال، ويفخر بقومه العرب، ومن العرب يفخر باليمن، ومن اليمن يفخر بطيء، يقول أبو تمام :

هل اجتمعت عَلْيَا مَعَدٍّ ومَذْحِجٍ بمُلتَحَمٍ إلا ومنَّا أميرُها؟!

بل اليمن استعلت لدىٰ كل موطنٍ وصار لطيء تاجها وسريرها

مُحَرَّمةٌ أكْفَالُ خيليَ في الوغىٰ ومَكْلُومةٌ لَبَّاتُها ونحورُها

حرامٌ علىٰ أرماحنا طعنُ مدبرٍ وتندقُّ بأسا في الصدور صُدورُها(٢)

ويقول أيضاً:

أَبَىٰ ليَ نَجْرُ الغَوْثِ أَنْ أَرْأَمَ التي أُسَبُّ بها والنَّجْرُ يشبهه النجرُ

وهل خاب مَنْ جِذماه في ضنء طيِّءٍ عَدِيُّ العَدِيِّين القَلَمَّسُ أو عمرو؟!

لنَا غُرَرٌ زيْديَّةٌ أُدَدِيّةٌ إذا نَجَمَتْ ذَلَّتْ لها الأنجمُ الزُّهْرُ

لنا جوهرٌ لو خالط الأرضَ أصبحتْ وبُطنانُها منه وظُهرانها تِبْرُ(٣)

******

جوده وكرمه:

كان أبو تمام رجلاً سمحاً كريماً يعطي عطاء من لا يخشىٰ الفقر ، غير حريص علىٰ المال لأنه يراه يذهب ويجيء ، ولأنه واثق أن رزقه سيأتيه لا محالة ، فكان ينفق كل ما يأتيه أولاً بأول، علىٰ من يعرف ومن لا يعرف.

ومما يدل علىٰ ذلك ما روي أنه خرج إلىٰ خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني والىٰ أرمينية فامتدحه، فأمر له بعشرة آلاف درهم ونفقةٍ لسفره، وقال: إن أردت الشخوص فاعجل، وإن أردت المقام عندنا فلك الحِباء والبر، قال: بل أشخص، فودعه، ومضت أيام، فركب خالد ليتصيد، فرآه

(١) . شرح ديوان أبي تمام (٢/ ١٦٧ ـ ١٦٨).

(٢) . شرح الديوان (٢ / ٤٤٨).

(٣) . شرح ديوان أبي تمام (٢ / ٤٤٥).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تحت شجرة، وبين يديه زُكرة(١) فيها نبيذ، وغلام بيده طنبور، فقال: حبيب؟ قال: خادمك وعبدك، قال: ما فعل المال؟ فقال:

عَلَّمَني جُودُكَ السَّماحَ فَما أَبْـ ـقَيْتُ شَيْئاً لَدَيَّ مِنْ صِلَتِكْ
مَا مَرَّ شَهْرٌ حَتىً سمَحْتُ بِهِ كأنّ لي قُدْرَةً كَمَقْدُرَتكْ
تُنْفِقُ في اليَوْمِ بِالْهِبَاتِ وفي السَّاعَةِ مَا تَجْتَبِيه في سَنَتِكْ
فلستُ أَدْرِي مِنْ أَينَ تُنفِقُ لَوْ لاَ أَنَّ رَبِّيْ يَمُدُّ في هِبَتِكْ

فأمر له بعشرة آلاف درهم أخرىٰ فأخذها(٢).

وصفة الجود هذه في أبي تمام جعلته لا يركن إلىٰ مكان ولا يأوي إلىٰ قصر يقضي فيه بقية عمره، بل جعلته دائم التطواف في البلاد ، فإذا ما حصل علىٰ جائزة من هذا أو ذاك بدد هذه الجائزة علىٰ زملائه وأقرانه وأهل بيته ، ولا عجب فلقد ورث الكرم عن أجداده الطائيين الذين ضرب بهم المثل في الجود والكرم .

يروي الصولي عن أحمد بن أبي فنن قال: "حضرت أبا تمام وقد وُصل بمائتي دينار ، فدفع إلىٰ رجل عنده منها مائةً، وقال خذها، ثم قيل لي إنه صديق له، واستبنتُ منه خَلَّةً فعذلتُه علىٰ إعطائه ما أعطىٰ ، وقلت : لو كان شقيقك ما عذرتك مع اضطراب حالك ، فقال:

ذُو الوُدِّ مني وذو القُربىٰ بمنزلةٍ وإخوتي أسوةٌ عندي وإخواني
عصابةٌ جاورتْ آدابُهم أدبي فهم وإن فُرِّقوا في الأرض جيراني
أرواحنا في مكان واحدٍ وغدتْ أجسامُنا لشآمٍ أو خراسانِ(٣)

وربما أدىٰ به الجود إلىٰ الافتقار بعض الوقت ريثما يصوغ قصيدة جديدة، وقد صادف أن استماحه أخوه وشقيقه "سهم" في مثل هذه الظروف فلم يجد عنده ما يطلبه منه، يروي الصولي عن البحتري قال: "وكان لأبي تمامٍ أخ يقال له سهم، وكان يقول شعراً دونـًا، فجاء إلىٰ أبي تمام يستميحه فقال له: والله ما يفضل عني شيء، ولكني أحتال لك، فكتب إلىٰ يحيىٰ بن عبد الله بقصيدةٍ أولها:

إِحْدَىٰ بني بكرِ بن عبدِ مَنَاهِ بيْنَ الكثيبِ الفَرْدِ فالأَمْوَاهِ

---

(١) . الزُّكْرَة: وعاء من جلد للخمر.

(٢) . الصولي: أخبار أبي تمام ، ص ١٥٨ . ١٥٩.

(٣) . أخبار أبي تمام ن ص ٧١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فقال فيها:

سَهْـمُ بنُ أَوْسٍ في ضَمَانِكَ وَاثِقٌ أَنْ لَسْتَ بالنَّاسِي ولا بالسَّاهي
أَجْزِلْ له الحظَّينِ مِنَكَ وكُنْ له رُكْنـًا عَلَىٰ الأيَّامِ ليسَ بِوَاهِي
بِـوِلايتيْـنِ ولآيَـةٍ مَذْكـورةٍ مشـهـورةٍ ووِلايـةٍ بالَجْـاهِ
هُوَ في الغِنَىٰ غَرْسِي وَغَرسُكَ في العُلا أَنَّي انصرفتَ، وأنتَ غَرْسُ اللهِ(١)

وروىٰ الصولي أيضـًا عن عون بن محمد قال: قدم علىٰ أبي تمامٍ رجل من إخوانه، وكان قد بلغه أنه قد أفاد وأثرىٰ، فجاءه يستميحه، فقال له أبو تمام: لو جمعت ما آخذ ما احتجت إلىٰ أحدٍ، ولكني آخذ وأُنفق، وسأحتال لك، فكتب إلىٰ أبي سعيد بقصيدة منها:

لاَ زِلْتَ مِنْ شُكْرِي في حُلَّةٍ لاَبِسُـها في سَـلَبٍ فَاخِرِ
يَقُـولُ مَـنْ تَقْرَعُ أَسْماعَهُ كَـم تَرَكَ الأوَّلُ لِلآخِـرِ
لي صَاحِبٌ قَدْ كانَ لي مُؤْنِسـًا وَمـَألَفـًا في الزَّمَـنِ الغَابِرِ
تَحْمِلُ مِنْهُ العِيسُ أُعْجُـوبَةً تُجَدِّدُ السِّخْرِيَّ لِلسَّـاخِرِ
ذَا ثَرْوَةٍ يَطْلُبُ مِـنْ سَـائِلٍ وَمُفْحَمـًا يَأْخُذُ مِنْ شَـاعِرِ!
فَصَـادَفتْ مَـالِي بِإِقْبَـالِهِ مَنِيَّـةٌ مِـنْ أَمـلٍ عَـائِرِ
فَشَـارِكِ المقمُورَ فِيـهِ وَلاَ تَكُنْ شَـرِيكَ الرَّجُلِ القَامِرِ
فَرِفْـدُكَ الـزَّائِرِ مَجْـدٌ وَلاَ كَرِفْـدِكَ الـزَّائِرَ لِلـزَّائِرِ

فوجه لأبي تمامٍ بثلثمائة دينارٍ، وللزائر بمائتي دينارٍ، قال: فأعطاه أبو تمامٍ خمسين ديناراً حتىٰ شاطره(٢).

تلك هي صفة السماحة والجود التي ورثها أبو تمام عن أجداده الطائيين فكانت في خصائصه الوراثية ، وفي هذه الصفة دليل يضاف إلىٰ الأدلة السابقة في عروبة أبي تمام ، وطائيته التي أضحت كفلق الصبح .

******

ذكاؤه وعبقريته:

(١) . التبريزي: شرح ديوان أبي تمام ، (٢/١٧٤ . ١٧٨) ، وأبو بكر الصولي: أخبار أبي تمام، ص ٢٦٠ . ٢٦١.
(٢) . أخبار أبي تمام ، ص ٢٢٨ . ٢٢٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

امتاز أبو تمام بذكاء وفطنة غير عاديين، فعن الصولي: " كان أبو تمام إذا كلمه إنسان أجابه قبل انقضاء كلامه ، كأنه كان قد علم ما يقول ، فأعد جوابه"(١).

فأبو تمام له"ذكاءٌ حادٌّ ، يُحسّ الشيءَ قبل أن يَقع، كان حاضر البديهة حضوراً غريباً جداً، مُفْحِماً للذين يُخاصمونه، حادّ الشعور، يُحسّ الأشياء حِسّاً سريعاً، ويتأثّر بها تأثراً عميقاً، ذكاؤُه يمتاز بشيء من العمق لم يكن لغيره من الشعراء، إذا تعرّضَ لمعنىً من المعاني تَعَمَّقَه، يُدهِشُ الناسَ بما يظهره من المعاني المختلفة"(٢).

وقال أبو عبد الله الرِّقِّي ـ وكان كاتباً للحسن بن رجاء: قدَّم أبو تمام مدحاً للحسن بن رجاء ، فرأيت رجلاً علمه وعقله فوق شعره"(٣).

وكان البحتري يعجب بعقل أبي تمام وأدبه فوق إعجابه بشعره، قال علي بن إسماعيل النوبختي: قال لي البحتري: " والله يا أبا الحسن، لو رأيت أبا تمام الطائي، لرأيت أكمل الناس عقلاً وأدباً، وعلمت أن أقل شيء فيه شعره"(٤).

هكذا شهد له كل من صحبه أو رآه أو التقىٰ به أو سمعه، أو قرأ شيئاً من شعره، إن نظرة سريعة في ديوان أبي تمام لتجعل القارئ يعترف بذكاء أبي تمام وحضور بديهته وقدرته الفائقة علىٰ التلاعب بالألفاظ، والتراكيب والصور، وليس يتأتىٰ مثل ذلك إلا لمن أوتي حظاً كبيراً من العقل والفهم والإدراك، ولقد استخدم أبو تمام هذا الذكاء الحاد "استخداماً واسعاً في تمثل الشعر الذي سبقه من قديم وحديث، فقد وعىٰ وعياً دقيقاً صورة الشعر العربي بجميع خطوطها وألوانها وكل ما يجري فيها من أضواء وظلال، وانتحىٰ ناحية مسلم بن الوليد في تصنيعه؛ إذ كان ذوقه ذوق متحضرين يغرم بالتصنيع والزينة حتىٰ في ثيابه ومطعمه، بل لقد كان ذوقه ذوق نحَّات أصيل، فهو يقيم قصائده وكأنه يرفع تماثيل باذخة ، ولذلك لا نعجب حين نجده يتمسك بالأسلوب الجزل الرصين، فهو الذي يلائم ما يريد من ضخامة البناء ومتانته وقوته، وقد تحولت عنده معاني الشعر إلىٰ ما يشبه جذاذات العلماء ، فهو يتناولها ممن سبقوه ويخرجها إخراجاً جديداً يستعين فيه بدقة فكره وروعة خياله، مضيفاً إليها كثيراً من دقائق ذهنه ، وبدائع ملكاته"(٥).

---

(١) . أخبار أبي تمام ، ص ٧٢.

(٢) . د. طه حسين: من حديث الشعر والنثر، ط١ دار المعارف، القاهرة ١٩٣٦، ص٩٦ – ٩٧.

(٣) . أخبار أبي تمام ص ١٦٧.

(٤) . أخبار أبي تمام ص ١٧١ ـ ١٧٢.

(٥) . د. شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ص ٢٢٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ومن دلائل ذكائه شحذ قريحته وإعمال فكره، وإجهاد نفسه في صناعة شعره إجهاداً شديداً كي تخرج قصائده في أبهىٰ حلة وأروع ديباجة، يقول ابن رشيق : "وكان أبو تمام يكره نفسه علىٰ العمل حتىٰ يظهر ذلك في شعره.. حكىٰ ذلك عنه بعض أصحابه، قال: استأذنت عليه وكان لا يستتر عني فأذن لي فدخلت فإذا هو في بيت مصهرج قد غسل بالماء، يتقلب يميناً وشمالاً، فقلت: لقد بلغ بك الحر مبلغاً شديداً، قال: لا، ولكن غيره، ومكث كذلك ساعة ثم قام كأنما أطلق من عقال، قال: الآن وردت، ثم استمد وكتب شيئاً لا أعرفه، ثم قال: أتدري ما كنت فيه منذ الآن؟ قلت: كلا، قال: قول أبي نواس: (كالدهر فيه شراسة وليان) أردت معناه فشمس علي حتىٰ أمكن الله منه فصنعت:

شَرِسْتَ، بل لِنْتَ، بل قَانَيْتَ ذاك بذا فأنت لا شك فيك السهلُ والجبلُ

قال ابن رشيق: ولعمري لو سكت هذا الحاكي لنمَّ هذا البيت بما كان داخل البيت؛ لأن الكلفة فيه ظاهرة، والتعمُّل بيِّن(١).

إننا لكي نفهم ذكاء أبي تمام، وندرك مكانته بين العبقرية والنبوغ، فإننا ينبغي أن نعرض لمفهوم العبقرية، ومفهوم النبوغ، وملاحظة الفرق بينهما لكي نتمكن من الحكم علىٰ أبي تمام ونرىٰ هل كان عبقرياً في فنه أم كان نابغاً ؟! أم إنه جمع بين الصفتين؟

إن "الفرق بين العبقرية والنبوغ هو أن العبقرية تفوق عميق وأصيل، والنبوغ تفوق مكتسب سطحي، بل الفرق أكثر من ذلك، قال البحاثة الإيطالي "سيرا" : "الفرق بين النبوغ والعبقرية هو أن النبوغ حالة دائمة ومستوىٰ أرفع من المستوىٰ العادي ، ومظاهره سرعة الإحساس والإدراك، وسرعة الاستجماع والنفاذ والزكانة، والنابغة يجيد عمل المألوف والمتعارف، ويسير سيراً حثيثاً في الطرق المعبّدة المطروقة، ولكنه يتعثر في النواحي المجهولة، بل هو يكره المجهول ولا طاقة له عليه ، أما العبقري فهو لا يستريح إلا إذا سار في الطرق غير المطروقة يستكشف ويجرب، فالمجهول يستغويه، وهو يؤثر أن يضل طريقه وينقطع منه الرجاء في البوادي المجهولة علىٰ أن يسلك الطريق المألوف، من أجل ذلك قد يشتهر النابغة ويخمل العبقري، والأول يجيد ما يفعله الكثيرون فهم من ثم قادرون علىٰ إدراك تفوقه، ولكن العبقري يبدهم بشيء لا قبل لهم به ولا سابق عهد لهم بمعرفته، ولذا لا يقدره ويدرك تفوقه إلا لفيف من ذوي العقول السامية، ومن مميزات العبقرية الحساسية العميقة، وعدم الصبر المستمر علىٰ ما حولها من الأحوال وعدم

(١) . ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط/٥ دار الجيل، ٩٨١ م، (٢٠٩/١).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الاقتناع الدائم بحالتها ، والنزوع الذي لا نهاية له إلىٰ حياة أسمىٰ، وليس عقل العبقري آلة منظمة، وإنما هو ميزان غير مستقر" .

ويعلق الأستاذ "علىٰ أدهم" علىٰ هذا بقوله: " هذا رأي البحاثة "سيرا"وأضيف إليه أن من أكبر مميزات العبقري أنه يلقي بنفسه بكليتها في كل ما يعمل، فأعماله وآثاره وأقواله هي عصارة نفسه ، وخلاصة حياته وتجاربه ، وأثره سواء في الفن أو في أي مظهر من مظاهر الخلق والتأثير أثر حي عميق ، وهو تستغرقه الفكرة فلا يني عن الحفر في أطباق ثراها، والتحليق في أجواز فضائها، غير ناظر إلىٰ غرض آخر؛ لأن عقله منسرح من سلطة الأنانية الضيقة، غير خاضع لأحكام المصالح الشخصية والفوائد المادية"(١).

ويبدو أن الشعراء جميعهم ينضوون تحت لواء العباقرة، لأنهم يختلفون عن عامة الناس، ويكونون تحت سيطرة الإلهام فمن ثم يحدث التفاوت في حياتهم وآثارهم وعدم الاطراد علىٰ نسق واحد، وهذا ما عبر عنه بشار بقوله: "الشاعر مثل البحر يقذف مرة بالدرر وأخرىٰ بالجيف" ، ولعل مرجع ذلك أن الشاعر أو العبقري عموماً يستمد من الوحي، وقد لا يسعفه في بعض الأوقات ، وليس هو دائماً في نوبة الحمىٰ والتوقد ، فقد تفتر حرارته ، وينقطع وحيه ، فيعمد إلىٰ أساليب النوابغ ويسلك طرائق الوضاعين وأهل الصنعة .

إن "آثار العبقرية أشبه بالغابة المتأبدة تنمو نموها شاذة مطلقة لا معترض لحريتها ولا كابح لغلوائها، تلاقيك فيها الأشجار الفارعة المتطاولة، والدوح المتسامي الباسق والنبت الأثيث الملتف، ويحسر الطرف من الجولان في شواهقها الشامخة وأبعادها المترامية، وتعترينا إزاءها الرهبة ونستشعر العجز، أما آثار النوابغ فهي في اتزانها وصقلتها أشبه بالحدائق الأنيقة البديعة التنسيق، أشجارها مشذَّبة، وأزهارها مقلّمة، وطرقها مرصوفة بالحصباء، ويعجبك نظامها ويمتعك ، ويهب عليك نسيمها حاملاً روائح الورود وأريج الأزهار"(٢).

من خلال العرض السابق للفرق بين العبقرية والنبوغ نستطيع أن نقول بأن أبا تمام قد جمع بين العبقرية والنبوغ، فهو شاعر حاز العبقرية أول الأمر ثم هو بعد ذلك "رجل فن وصنعة لا ينتظر حتىٰ ينزل عليه الوحي ويسعىٰ إليه ، وإنما يتوكفه ويستنزله، ويأخذ له عدته، وهو لا يعتمد كثيراً علىٰ نفحات ما وراء الوعي، وإنما يعتصر فكره اعتصاراً، ويعنّي نفسه، ويكد خاطره، وهو لا ينطلق في الطريق المعبدة، ولا يطير بأجنحة، وإنما يعلو النجود، ويهبط السفوح، ويجوب الصخر، ويحفر

(١) . علي أدهم : على هامش الأدب والنقد ، دار المعارف ، ط/١ ، القاهرة ، ١٩٧٩ص ٥٨ . ٥٩.

(٢) . علي أدهم: على هامش الأدب والنقد المرجع السابق ، ص ٦٠.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

في الأرض، ففكره اليقظ الجوال أقوىٰ من عاطفته، وما يحصل عليه بعد بذل الجهد أكثر مما يجود به الوحي عليه...

وقد أورد الصولي في كتابه (أخبار أبي تمام) خبراً قصيراً له دلالته البعيدة ، فقد دخل أبو تمام علىٰ أحمد بن أبي دؤاد المتكلم البارع وصاحب الشخصية اللامعة، وكان عاتباً عليه في شيء، فاعتذر إليه أبو تمام ، وقال: " أنت الناس كلهم ولا طاقة لي بغضب جميع الناس" ، وكان ابن أبي دؤاد علىٰ ما يظهر يعرف مذهب أبي تمام في تخريج الآراء، واستنباط المعاني، فقال له: " ما أحسن هذا ! فمن أين أخذته؟!" فقال أبو تمام : من قول أبي نواس :

ليس علىٰ الله بمستنكرٍ أن يجمع العالم في واحدِ

وهكذا كانت طريقة أبي تمام، فهو لا يرتجل القول ارتجالاً، ولا يرسله إرسالاً، وإنما يقومه ويثقفه، ويتخير المستجاد منه، ليذيعه بعد ذلك علىٰ الناس ، وكان كثيراً ما يفخر بذلك في شعره مثل قوله في مدحه لمالك بن طوق:

خذها ابنة الفكر المهذَّب في الدجىٰ والليل أسود رقعة الجلبابِ(١)

والعبقري من صفاته أنه عفيف الروح، يترفع عن الدنايا، ولا يتهافت علىٰ الصغائر ، بل إن كرامته قد تفرض عليه أن يبيت علىٰ الجوع والمسغبة ، كما يقول عنترة :

ولقد أبيت علىٰ الطوىٰ وأظله حتىٰ أنال به كريم المأكل

وهذا ما حدث لأبي تمام حينما قدم إلىٰ خراسان ليمدح عبد الله بن أبي طاهر، اجتمع الشعراء إليه فقالوا: نسمع شعر هذا العراقي، فسألوه أن ينشدهم، فقال: قد وعدني الأمير أن أنشده غداً وستسمعون، فلما دخل علىٰ عبد الله أنشده:

هُنَّ عوادِي يوسفٍ وصواحِبُهْ فعَزْماً فقِدْماً أدركَ السؤلَ طالبُهْ

فلما بلغ إلىٰ قوله:

وقلْقَل نَأيٌ من خراسانَ جأشَها فقلتُ اطمئِنِّي أنضرُ الرَّوْضِ عازبُهْ
ورَكبٍ كأَطْرافِ الأَسِنَّةِ عَرَّسُوا علىٰ مِثْلِها واللَّيْلُ داجٍ غَياهُبُهْ
لأمرٍ عليهِمْ أَنْ تَتِمَّ صُدُورُه وليْسَ عليهِمْ أن تَتَمَّ عواقبُهْ
علىٰ كلِّ رَوَّادِ المِلاَطِ تَهَدَّمَتْ عريكتُه العلياءُ وانضمَّ حالُبهْ
رعتْهُ الفيافِي بعد ما كان حقْبةً رعاهَا وماءُ الروضِ ينْهَلُّ ساكِبهْ

(١) . المرجع سابق، ص ١١٣ ، ١١٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فصاح الشعراء بالأمير أبي العباس: ما يستحق مثل هذا الشعر إلا الأمير أعزه الله، وقال شاعر منهم يعرف بالرياحي: لي عند الأمير – أعزه الله – جائزة وعدني بها، وهي له جزاءً عن قوله، فقال الأمير: بل نضعفها لك، ونقوم بالواجب له، فلما فرغ من القصيدة نثر عليه ألف دينار، فلقطها الغلمان ولم يمس منها شيئاً، فوجد عليه الأمير وقال: يترفع عن بري، ويتهاون بما أكرمته به! قال فما بلغ بعد ذلك ما أراد منه(١).

إنّ كرامة أبي تمّام أبت عليهِ أن ينحني علىٰ الأرض ليلتقط من دنانير نُثرت عليهِ، وربما أخطا أبو تمّام فهمَ مقصدَ الأمير الذي ما فعلَ ذلكَ إلاّ تكريماً للشاعر وتمجيداً لشعرهِ، ولكنّ أبا تمّام تصرّف حسبما أملته عليهِ كرامته في ضوءِ تقييمهِ للموقفِ جميعاً.

ومن مظاهر عبقريته حضور البديهة وسرعة الرد:

لقد كان أبو تمام فطناً شديد الفطنة، قوي العارضة، حاضر البديهة، وقد واتته هذه الخلال ومكنت له من الغوص علىٰ المعاني؛ فكان لا يزال يجد في أثرها حتىٰ يصل إلىٰ ما يعسر علىٰ غيره متناوله، ولهذا انتقده أبو سعيد الضرير ذات مرة بعد أن سمعه ينشد إحدىٰ قصائده التي جنح فيها إلىٰ الإغراب، قائلاً له : يا أبا تمام..لم لا تقول من الشعر ما يعرف؟ فأجابه علىٰ الفور : وأنت لم لا تعرف من الشعر ما يقال؟!

ومن بدائهه الجريئة ما أورده ابن خلكان أن علي بن محمد بن عبد الكريم قال: لما صار إلينا أبو تمام مقدمه من مصر عمل قصيدته التي أولها: "أرامة كنت مألف كل ريم"

فاتصل خبرها بعتبة بن عصيم الذي يهجوه أبو تمام، وهو كلبي من قضاعة، وكان أديباً شاعراً، فأحب أن يسمع هذه القصيدة من أبي تمام فقال لمن حضر: ايتوني به، فجاءوا به فأنشده إياها، فلما فرغ قال: أحسنت يا غلام علىٰ صغر سنك، فسكت أبو تمام وقال: يا عم أنشدني من شعرك، فأنشده قصيدة، فلما فرغ قال: يا عم ما أحسنت علىٰ كبر سنك، فقال عتبة لبني عبد الكريم: أخرجوا هذا من بلدنا فليس يصلح أن يقيم في بلدنا(٢).

لم تقف حدة بديهة أبي تمام عند حد ، فلقد كان الرجل في الخطير من المواقف يتصرف بأسلوب لم يؤلف عند غيره من الشعراء ، ولعل قصته مع أحمد بن المعتصم حين مدحه بقصيدة سينية تعتبر مثلاً حياً لحضور بديهة الشاعر وحدتها إلىٰ المدىٰ الذي جعل الكندي الفيلسوف الطبيب ـ وكان حاضراً إنشاد القصيدة ـ يتنبأ بقصر عمر أبي تمام.

---

(١) . أبو بكر الصولي: أخبار أبي تمام ، ص١١٥ . ١١٧.

(٢) . ابن خلكان: وفيات الأعيان (٢/ ٢١).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

دخل أبو تمام علىٰ أحمد بن المعتصم، الذي ولي الخلافة بعد ذلك باسم المستعين بالله، وكان لا يزال أميراً ، وأنشده مديحة يقول فيها:

ما في وقوفك ساعة من باسِ نقضي ذمام الأربع الأدراسِ
فلعل عينك أن تعين بمائها والدمع منه خاذلٌ ومُواسي
لا يُسعد المشتاقَ وسنانُ الهوىٰ يَبَسُ المدامعِ باردُ الأنفاسِ

إلىٰ أن قال:

فرْعٌ نما من هاشمٍ في تُرْبةٍ كان الكفيءَ لها من الأعراسِ
لا تهجُرُ الأنواءُ مَنْبِتَها ولا قلبُ الثرىٰ القاسي عليها قاسي
وكأن بينهما رَضاعَ الثدي من فَرْطِ التصافي أو رَضاعَ الكاسِ
نَوْرُ العَرارةِ نَوْرُه ونسيمه نشرُ الخُزَامَىٰ في اخضرارِ الآسِ
أبليتُ هذا المجْدَ أبعد غايةٍ فيه وأكرم شيمةٍ ونِحاسِ(١)

فلما قال هذا البيت:

إقدام عمروٍ في سماحة حاتمٍ في حِلْمِ أحنفَ في ذكاءِ إياسِ

قال له أبو يوسف يعقوب بن الصباح الكندي الفيلسوف، وأراد الطعن عليه: الأمير فوق من وصفت، كيف تشبه ولد أمير المؤمنين بأعرابٍ أجلاف وهو أشرف منزلةً وأعظم محلَّة؟!! فانقطع وأطرق ثم رفع رأسه وأنشد :

لا تنكروا ضربي له مَن دونه مثلاً شَرُوداً في الندىٰ والباسِ
فالله قد ضرب الأقلَّ لنوره مثلاً من المِشكاةِ والنبراسِ

واستمرَّ في إنشاده حتىٰ أتم القصيدة ، ولما أُخِذتْ من يده لم يجدوا البيتين فيها فعجبوا من سرعة فطنته، واهتز ابن المعتصم لذلك طرباً، وبُهِت له متعجباً.

ويروىٰ أن أبا تمام لما خرج من عند ابن المعتصم بعد إنشاد القصيدة قال الفيلسوف الكندي: هذا الفتىٰ يموت قريباً لأن ذكاءه ينحت عمره كما يأكل السيف الصقيل غمده(٢).

بل إن أبا تمام توقع لنفسه قرب نهايته، وذلك بعدما أنشده البحتري شيئاً من شعره فتمثل أبو تمام ببيت أوس بن حجر قائلاً:

---

(١) . انظر: شرح ديوان أبي تمام (١/ ٣٥٨ . ٣٦٣).

(٢) . يوسف البديعي: هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام، ص ١٧ . ٢٦ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

إذا مُقْرَمٌ منا ذرا حدُّ نابه تخمّط منا نابُ آخر مقرمِ

ثم قال للبحتري: نعيتَ والله إليَّ نفسي ، فقال البحتري: أعيذك بالله من هذا القول ، فقال إن عمري لن يطول ، وقد نشأ في طيء مثلك، أما علمت أن خالد بن صفوان(١) رأىٰ شبيب بن شيبة وهو بين رهط يتكلم فقال: يا بني ، لقد نعىٰ إليَّ نفسي إحسانك في كلامك؛ لأنا أهل بيت ما نشأ فينا خطيب قط إلا مات من قبله، فقال البحتري : بل يبقيك الله ويجعلني فداك، قال البحتري: ومات أبو تمام بعد سنة(٢).

وكان أبو تمام ـ رغم ذكائه ووقاره وهدوئه ورزانته ـ يتصف بالظرف والمزاح وخفة الدم، وقد عرف ابن الجوزي(٣) الظَّرْفَ فقال: "الظَّرْفُ يكون في صَبَاحَة الوجه، ورشاقةِ القَدِّ، ونظافةِ الجسم والثوب، وبلاغةِ اللسان، وعذوبةِ المنطق وطِيْبِ الرائحة، والتقزّز من الأقذار والأفعال، وكلُّ المُسْتهجنة، ويكون في خفة الحركة وقوة الذهن، ومَلاحة الفكاهة والمزاح، ويكون في الكرم والجود وغير ذلك من الخصال اللطيفة...". أما أبو نُوَاس، شاعر المجون والزهد فقد حَدَّد أبعاد المجون موحداً بين دلالته الأدبية والاجتماعية، وبين الظَّرْف بقوله: (.. وأما المجون فما كلُّ أَحَد يقدر علىٰ أَنْ يَمْجُنَ، وإنَّما المجون ظَرْفٌ، ولست أَبْعُدُ فيه حَدَّ الأدب، ولا أتجاوز مقداره)(٤) أما محمد بن إسحق بن يحيىٰ (الوشَّاء) فقد حدد سَنَنَ الظرف مؤكداً أنه لا أدب لمن لا مروءة له، ولا مروءة لمن لا ظَرْفَ له، ولا ظرف لمن لا أَدَبَ له، وقال(٥): (اعلم أَنَّ عماد الظَّرْف عند الظرفاء

---

(١) . خالد بن صفوان الأهتمي عاش في الدولة الأموية وصدراً من العباسية ، وكان بليغاً حاضر البديهة يدعى للقول فيجيب بأحسن وأجمع مما احتفل له المروي ، وبالغ في تجويده المزور ، وهو الذي كان في مجلس هشام فقال له ، وقد جرى ذكر جرير والفرزدق والأخطل صفهم لنا يا ابن الأهتم ، فقال: أما أعظمهم فخراً وأبعدهم ذكراً وأحسنهم عذراً وأشدهم ميلا وأقلهم غزلا وأحلاهم عللا ، الطامي إذا ذخر، والحامي إذا زأر ، والسامي إذا خطر، الذي إن هدر قال، وإن خطر صال، الفصيح اللسان ، الطويل العنان، فالفرزدق، وأما أحسنهم نعتاً ، وأمدحهم بيتاً ، وأقلهم فوتاً، الذي إن هجا وضع، وإن مدح رفع، فالأخطل، وأما أغزرهم بحراً ، وأرقهم شعراً، وأهتكهم لعدوه ستراً، الأغر الأبلق، الذي إن طلب لم يُسبق ، وإن طُلب لم يلحق فجرير، وكلهم ذكي الفؤاد رفيع العماد ، واري الزناد، فقال له مسلمة بن عبد الملك : ما سمعنا بمثلك يا خالد في الأولين ولا رأينا في الآخرين، وأشهد أنك أحسنهم وصفاً، وألينهم عطفاً، وأعفهم مقالاً، وأكرمهم فعالاً، قال خالد: أتم الله عليكم نعمه، وأجزل لديكم قسمه، وآنس بكم الغربة، وفرج بكم الكربة، وأنت والله (ما علمت أيها الأمير) كريم الغراس، عالم بالناس، جواد في المحل، بسام عند البذل، حليم عند البطش، في ذروة قريش، ولباب عبد شمس، ويومك خير من أمس، فضحك هشام وقال: ما رأيت كتخلصك يا بن صفوان في مدح هؤلاء ووصفهم حتى أرضيتهم جميعاً وسلمت عليهم.

(٢) . يوسف البديعي: هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام، ص ١٦ ـ ١٧.

(٣) . ابن الجوزي: أخبار الظراف والمتماجنين، ص ١٢.

(٤) . ابن منظور: أخبار أبي نواس، (٢/٢٥).

(٥) . محمد بن أحمد الوشاء: الموشى، أو الظرف والظرفاء، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٥٣م ، ص٥١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

وأهل المعرفة والأدب حِفْظُ الجِوار، والوفاءُ بالذِّمار، والأَنَفَةُ من العار، وطلبُ السلامة من الأوزار، ولن يكون الظريف ظريفاً حتىٰ تجتمع فيه خصال أربع: الفصاحة، والبلاغة، والعِفَّة، والنزاهة).

وروىٰ ابن المعتز عن الحسن بن رجاء الضحاك قال: "كنا مع أمير المؤمنين المعتصم بالرقة فجاء أبو تمام، وأنا في حراقتي، فجعل ينشدني ويلتفت إلىٰ الخدم والغلمان الوقوف بين يدي، ويلاعبهم ويغامزهم - وكان الطائي من أكثر الناس عبثاً ومزاحاً - فقلت له: يا طائي قد ظننت أنك ستصير إلىٰ أمير المؤمنين مع الذي أرىٰ من جودة شعرك، فانظر: إنك إن وصلت إليه لا تمازح غلاماً ولا تلتفت إليه، فإنه من أشد الناس غيرة، وإني لا آمن إن وقف منك علىٰ شيء أن يأمر غلمانه فيصفعك كل واحد منهم مائة صفعة، فقال: إذاً أخرج من عنده ببدر مملوءة صفعاً"(١).

وورث تمام ابن أبي تمام هذه الصفة عن أبيه ، روىٰ الصولي عن أبي سهل الرازي قال: لما ولي محمد بن طاهرٍ خراسان، دخل الناس لتهنئته، فكان فيهم تمام بن أبي تمام الطائي فأنشده:

هنَّاكَ رَبُّ الناسِ هَنَّاكا ما مِنْ جزَيلِ المُلْكِ أعْطَاكاَ

قَرَّتْ بِما أُعطِيتَ يا ذَا الحِجَي والبَاسِ والإنْعامِ عَيْناكاَ

أَشْرقَتِ الأَرضُ بِما نِلتَهُ وَأَوْرقَ العُودُ لِنَجْواكاَ

فاستضعفت الجماعة شعره وقالوا: يا بعد ما بينه وبين أبيه! فقال محمد لعبد الله بن إسحاق، وكان يعرفه الناس وهو علىٰ أمره: قل لبعض شعرائنا: أجبه، فغمز رجلا في المجلس، فأقبل علىٰ تمامٍ فقال:

حيّاكَ ربُّ الناسِ حيَّاكا إنَّ الذي أمَّلْتَ أخْطاكا

مَدحْتَ خِرْقاً مُنْهباً مالَهُ ولَوْ رأىٰ مدْحاً لَواسَاكا

فهاك إنْ شِئْتَ بها مِدْحَةً مِثلَ الذي أَعْطَيْتَ أعْطَاكا

فقال تمام: أعز الله الأمير، إن الشعر بالشعر ربا، فاجعل بينهما رضخاً من دراهم حتىٰ يحل لي ولك! فضحك محمد وقال: إن لم يكن معه شعر أبيه، فمعه ظرف أبيه، أعطوه ثلاثة آلاف درهم، فقال عبد الله بن إسحاق: ولقول أبيه في الأمير عبد الله بن طاهرٍ:

أَمَطْلِعَ الشَّمسِ تَنْوِي أنْ تَؤُمَّ بنا؟ فقُلتُ: كلاَّ، ولكنْ مطْلِعَ الجُودِ

(١) . عبد الله بن محمد ابن المعتز العباسي: طبقات الشعراء، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، الطبعة الثالثة، ص ٢٨٢ . ٢٨٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

ثلاث آلافٍ أخرىٰ، قال: ويعطي ذلك(١).

******

(١) . أخبار أبي تمام ، ص ٢٦١ . ٢٦٢.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

الفصل الرابع

ثقافته، ومكانته

ثقافته :

كان العصر الذي نشأ فيه أبو تمام هو العصر الذي نضجت فيه الحضارة الإسلامية، وأدركت رشدها، واستكملت قوتها، وأخذت تؤتي ثمرها طيباً لذيذاً في كل فرع من فروع العلم، والفلسفة والأدب والفن.

"وكان العراق بالضبط أخصب مركز لهذه الحضارة الناضجة الراشدة المثمرة، فيه التقت أكثر الأجناس التي تتألف منها الدولة الإسلامية ، أو علىٰ أكثر تقدير أكثر هذه الأجناس استعداداً للحضارة ، وأحسنها بلاء فيها، وأعظمها حظاً من الإنتاج قديماً وحديثاً ، فيه كان العرب ومعهم تراثهم التليد والطريف من الأدب والدين، وفيه كان الفرس ومعهم حضارتهم الساسانية المعقدة التي تمتاز بالترف المادي والعقلي معاً، وفيه كان أخلاط الساميين الذين نقلوا تراث اليهود، وتمثلوا تراث اليونان، وكانوا تراجمة لهذه الحضارة الجديدة، ينقلون إليها تراث الأولين من أهل الشرق والغرب، ويعينونها علىٰ أن تسيغه وتتمثله، ولم يخلُ العراق من يونانيين انحدروا إليه وأقاموا فيه، ولم يخل العراق من الهنود الذين كانوا يفدون طوعاً أو كرها كاليونان، ثم لم يخل العراق ممن كانوا يمثلون الأقاليم والأطراف الغربية للدولة، كانوا يفدون للتجارة، وكانوا يفدون للسياسة، وكانوا يفدون لطلب العلم أيضاً، وكل هذه الأجناس كانت تلتقي متعارفة لا متناكرة، ومؤتلفة لا مختلفة، ومتعاونة لا متقاطعة، قد زالت بينها الفروق، وألغيت بينها الحجب، وصبغتها الحضارة الجديدة صبغة واحدة، وجعلت لها لغة واحدة هي اللغة العربية، بها تتحدث وبها تكتب، وفيها تدوّن"(١).

هكذا كان العراق بعامة، وبغداد بخاصة قبلة الطلاب والقاصدين، وملتقىٰ الثقافات والحضارات المتنوعة، "ولا يكاد عهد الرشيد يشرف علىٰ نهايته حتىٰ يكون الشعر العربي قد اتصل بكل نواحي الحياة، وامتد إلىٰ مختلف آفاقها، وعالج كل ما بها من الشؤون والشجون، كبيرها وصغيرها، وحتىٰ يكون قد اصطنع كل ألوان المجملات اللفظية والمعنوية، واستغل كل محسنات الشعر من الصورة والفكرة، وتفرّع في ذلك كله فروعاً كان يحمل لواء كل منها علم من الأعلام الذين بقيت أسماؤهم تتردد علىٰ الدهر، ومشخصات صناعتهم وفنونهم تتراءىٰ واضحة أمام عيون الأجيال التي جاءت بعدهم، بادية نواحي حسنها وعوارها، متبيناً منها ما يحسن احتذاؤه وما لا يحسن، وما يجب استبقاؤه، وما يجب نفيه وإلغاؤه.

---

(١) . د. طه حسين: مع المتنبي، ط/ ١٣ ، دار المعارف ، ص ٢٨ . ٢٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وإن شعراء هذا العصر الذهبي للشعر العربي لينهضون في سمت عجيب، وبهاء خلاب، أمام أعين جيل الشعراء الذي خلفهم، كأنهم التماثيل الضخمة الرائعة، التي يصور كل منها نحواً متميزاً، ولوناً واضحاً في باب الإنتاج الشعري الخصيب...

ولقد وجدت الطبقة التي يمثلها أبو تمام بين أيديها ذلك التراث الجبار من الآثار الفنية الذاهبة مذاهبها، ووجدت معه مجموعاً من الشعر القديم تراثاً آخر لا يقل عنه أهمية، إن لم يفقه.

وكان الإحساس الشعري الناضج للعصر السالف قد تقلب علىٰ ذلك التراث وكابده ومخضه فاستخلص زبدته، وترك أحكامه عليه باقية، تلوح كأنها سُرُج الهداية، فتلقي الضوء الساطع علىٰ قِيَمِه.

ومن هنا وجد أبو تمام بين يديه ذخراً فياضاً عارماً من الشعر الأصيل، الجاري دفاقاً من منابعه البعيدة، فأخذ يغترف منه ما شاء، ويترك منه ما شاء، ويخلط هذا بذاك، ويلائم بين مختلف الفنون، ويوفق بين الاتجاهات، ويجمع ذلك في القصيدة الواحدة"(١).

دخل أبو تمام بغداد بعد وفاة المأمون، "وقد لبست من الثقافة الأجنبية ثوباً قشيباً بفضل سعيه لنقل كتب الإغريق خاصة، ويحسن هنا أن نقول: إن أبا تمام جاء بعد ردح من الزمن فرأىٰ الكتب منتشرة، والثقافة شائعة في الناس، بدأ الخلفاء بالنقل منذ أيام المنصور، ولكن الثقافات المتضمنة في الكتب المنقولة اقتضت وقتاً حتىٰ انتشرت بين الناس.

وفي عصر المأمون ازدهرت ثقافة علمية إغريقية إلىٰ جانب الثقافة الأدبية الفارسية، فبينما كنت ترىٰ الناس يستمعون إلىٰ الغناء الفارسي أو المنقول عن الفارسية، أو تراهم يصغون إلىٰ قُصّاص الخرافات الفارسية، أو يتفقهون بالأدب الفارسي والكياسة الفارسية اللذين استخرجهما ابن المقفع وأمثاله، كنت تراهم يتجادلون في الفلسفة اليونانية ويتناقشون في كتب الإغريق العلمية، وكان أظهر هذه الثقافات في شعر أبي تمام الثقافة اليونانية، تلك الثقافة التي كانت أقرب إلىٰ عقلية أبي تمام(٢).

إن أهم ما يميز أساليب أبي تمام تلك الوفرة الزاخرة من الثقافة المتعددة الجوانب، ولقد لفتت هذه الظاهرة أنظار الباحثين المحدثين، وجعلوها مصدراً من مصادر عبقريته وفنه، واتخذوها مقياساً لتحليل بعض الظواهر الفنية في شعره.

---

(١) . د. نجيب محمد البهبيتي: تاريخ الشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، دار الكتب المصرية ١٩٥٠م، ص ٤٨٥ . ٤٨٦.

(٢) . عمر فروخ: أبو تمام شاعر الخليفة المعتصم ، ص ٤٦ . ٤٨ بتصرف.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فيرىٰ د.عبد العزيز سيد الأهل أن أبا تمام لم يدرس دراسة منظمة " وأعني بالدراسة المنظمة الجلوس إلىٰ مجالس العلم ورجاله في اطمئنان الطلب وآدابه، أو الارتحال إلىٰ البادية للتأثر بصفاء ألفاظها وانتظام قرائح روادها في صورة ذلك الصفاء... فاشتغاله بهموم العيش جعله يحتطب العلم علىٰ غير انتظام، من هنا وهناك بلا أستاذين، ولا تقيد بزمن أو مكان "(١).

ثم يستدل من هذا علىٰ اختلاف شعره جودة ورداءة، فيقول: "فحين قال أبو تمام شعره كانت قد فاتته حلقة من سلسلة التعليم وهي الحلقة التي تنقل إليه تجارب غيره وتفطنه إلىٰ الطريق، ولكن أبا تمام انطلق يجرب بنفسه، فوقع منه خطأ كثير أقام الدنيا وأقعدها، وما أقصد إلا دنيا العلماء والأدباء، ومن الخير ما كان؛ لأن إنتاج أبي تمام أرانا شخصيته كما هي، وأرانا التردد الذي يحدث في النفس الحرة المنطلقة حين تترك علىٰ حريتها وانطلاقها"(٢).

ويؤيد الدكتور عبده بدوي ما ذهب إليه سيد الأهل، ويرىٰ "أن أبا تمام من الذين كان يقال عنهم أنهم يحتطبون العلم لأنهم لا يأخذونه عن أساتذة في زمان ومكان معلومين، وفي الحقيقة فقد كان فقر والديه وموتهما مدخلا طبيعيا للتثقيف الذاتي، ودلالة علىٰ أن شيئاً لن يفرض عليه من الخارج ... وأنه له حق الاختيار"(٣).

غير أن سيد الأهل يرىٰ أن هذا الاحتطاب قد أثر سلباً علىٰ شعر أبي تمام ، وأنه يفسر تلك الأبيات الرديئة في شعره ، وذلك الخطأ الكثير الذي أقام الدنيا وأقعدها عليه.

ويرد عليه الدكتور عبد الله المحارب بقوله: "لا شك أن في هذا مبالغة في الاستدلال، فلم تكن تلك الأخطاء الكثيرة التي رأىٰ القدماء أن أبا تمام وقع فيها إلا تجسيداً لتلك الروح المتوثبة عنده، التي لا ترضىٰ بمقاييس هؤلاء النقاد، فخرج عليها ، فمحاولاته هذه كانت أخطاء في نظر أولئك النقاد، ولا يجب أن تكون أخطاء في نظرنا هذه الأيام ؛ لأن المقاييس التي ندرس بها أبا تمام تختلف عن تلك التي طبقها أولئك النقاد عليه.

ولهذا رأينا كثيراً من الأبيات التي عابها عليه نقاد ذلك العصر، تقدم صوراً فنية رائعة نهتز لها ونعجب بها، بالإضافة إلىٰ هذا فإن التثقيف الذاتي عند أبي تمام لم يكن وسيلة إلىٰ العلم السطحي بالأشياء ، وإنما جاء منه غزيراً عميقاً متنوعاً حتىٰ صار الشاعر معدوداً في العلماء، وقد رأينا أبا

---

(١) . عبد العزيز سيد الأهل: عبقرية أبي تمام، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٢، ص ٣٤.

(٢) . عبقرية أبي تمام ٣٧ . ٣٨.

(٣) . د. عبده بدوي: أبو تمام وقضية التجديد في الشعر ، مكتبة الشباب بالقاهرة ، د. ت، ص ٣٤

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

العلاء المعري في شرحه لأبيات أبي تمام تمر عليه الكلمة لا يعرفها ، فلا يجرؤ علىٰ أن يخطئه فيها ، بل يقول إنه ربما سمعها في شعر قديم.

فهو لم يكن يحفظ نتفاً من هنا وهناك لكي تنكشف ضحالة علمه في شعره، بل وعىٰ كل صنوف المعرفة في ذلك الوقت، واختص بكل ما يمت إلىٰ الشعر بسبب"(١).

ولعل هذا التثقيف الذاتي هو ما جعلنا نحار في أمر شيوخه، فلا نكاد نجد لهم ذكراً إلا ما ذكره الصولي في أخبار أبي تمام حيث ذكر جماعة روىٰ عنهم أبو تمام، منهم: العطّاف بن هارون، وكرامة بن أبان، وأبو عبد الرحمن يحيىٰ بن إسماعيل الأموي، وسلامة بن جابر النهدي، ومحمد بن خالد الشيباني، وقِلابة الجَرْمي، ومالك بن دلهم، وعمرو بن هاشم السرويّ، وذكر محسن الأمين هذه الأسماء وزاد عليها صهيب بن أبي صهباء الشاعر(٢).

يقول د.عمر فروخ: "قد يكون هؤلاء شيوخاً لأبي تمام تلقّىٰ العلم والأدب عليهم وتخرج علىٰ أيديهم، وقد يكونون شيوخاً اتفق أن سمع أبو تمام منهم حديثاً بعد حديث، وكتب عنهم إملاء بعد إملاء"(٣).

علىٰ كل حال كان أبو تمام مثقفاً بثقافة تفوق ثقافة الشعراء المعاصرين له، يقال: إنه لما رحل إلىٰ مصر طلباً للتكسب، أخذ يسقي الماءَ في المسجد الجامع (مسجد عمرو بن العاص)، وكان يستمع إلىٰ ما يُلقىٰ في حلقاته من أمالي العلم والأدب، ويتنقل من حلقة إلىٰ حلقة، ويصغي إلىٰ شيء من القصص، وإلىٰ شيء من التاريخ، وإلىٰ شيء من الشعر، وإلىٰ شيء من الفقه والحديث والفلسفة وغيرها، ويحفظ ما استطاع أن يحفظ... "(٤).

والمتأمل في ديوان أبي تمام يلاحظ أنه كان "حافظاً للقرآن، عارفاً بالحديث وبعلوم العربية، كثير الاطلاع علىٰ التاريخ، ما عم منه وما خص، حسن المشاركة في علم الكلام وفنون الفلسفة، أما في الأدب والنقد وفروع البلاغة فكان ـ مما يبدو لنا في ديوانه ـ إماماً كبيراً"(٥).

---

(١) . د. عبد الله بن حمد المحارب: أبو تمام بين ناقديه قديماً وحديثاً، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٩٩٢م، ص ٤٩٢.

(٢) . محسن الأمين: أعيان الشيعة، دمشق ١٩٤٦م، (٤٨٥/١٩).

(٣) . عمر فروخ: أبو تمام شاعر الخليفة المعتصم بالله، ص ٤٠.

(٤) . انظر: تاريخ بغداد ٤٨/٨، وسير أعلام النبلاء ٦٤/١١، وسرح العيون، ص٣٢٤، وحسن المحاضرة ٥٥٩/١، ومختصر تاريخ دمشق/ ١٧٩، وتاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، ص٢٦٩. وأبو تمام الطائي، ص٦٦.

(٥) . أبو تمام شاعر الخليفة المعتصم بالله، ص ٤٠.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ويروىٰ عن أبي تمام أنه قال: "لم أنظم شعراً حتىٰ حفظت سبعة عشر ديوانـًا للنساء خاصة دون الرجال"(١)، وقيل: إنه كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب غير القصائد والمقاطيع(٢)، ولما قدم بغداد، جالس بها الأدباء، وعاشر العلماء، واتصل بالشعراء، وكان خيارهَم دينـًا وأدبـًا وشعراً وأخلاقـًا(٣).

وقال محمد بن يزيد المبرد: "ما سمعت الحسن بن رجاء ذكر قط أبا تمام إلا قال : ذاك أبو التمام، وما رأيت أعلم بكل شيء منه"(٤).

مصادر ثقافة أبي تمام:

اعتمد أبو تمام في ثقافته علىٰ عدة مصادر كان من أبرزها القرآن الكريم ، وقد ترددت آياته في كثير من أبياته حتىٰ لقد قال نجيب البهبيتي : "لا أعرف شاعراً من شعراء العربية تأثر بالقرآن تأثر أبي تمام به"(٥).

وترىٰ د. إبتسام مرهون الصفار أن في عبارة البهبيتي مغالاة في تصوير أثر القرآن الكريم في شعر أبي تمام(٦)، كذلك فإن تردد الألفاظ الدينية الإسلامية (الإسلام، الكفر، الأجر، الهدىٰ، الصلاة، الحج، الجهاد، الشرك) إلىٰ آخر تلك الاصطلاحات لا يدخلها في جملة الظواهر التي تدل علىٰ تأثر الشاعر بالقرآن الكريم ؛ فأبو تمام لم يعش في مجتمع غير إسلامي حتىٰ يتميز بتأثره بألفاظ الإسلام وأساليب القرآن ، "ولم يكن شاعراً نصرانيـًا أو يهوديـًا عاش في الدولة العباسية لنستدل بتلك الألفاظ علىٰ تأثره بدين الدولة والمجتمع ، فاستعمال الشاعر لهذه الألفاظ والعبارات كان أمراً تلقائيـًا من شاعر مسلم يعيش في بيئة مسلمة ، ولكن الواضح أن الشاعر استفاد من الأساليب القرآنية في شعره، وكان يجب الالتفات إلىٰ عمق هذه الاستفادة وإلىٰ قدرته الفنية في تطعيم صوره بها كقوله يصف غضب الممدوح:

---

(١) . ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة . القاهرة، (٢٥٢/٣).

(٢) . ابن خلكان: وفيات الأعيان (١٢/٢).

(٣) . تاريخ بغداد ٢٤٨/٨، والبداية والنهاية ٣٠٠/١٠، وانظر: أبو تمام حياته وشعره، ص١٦ وما بعدها.

(٤) . أخبار أبي تمام للصولي، ص ١٧١.

(٥) . أبو تمام حياته وحياة شعره ص ٦٧.

(٦) . أبو تمام ثقافته من خلال شعره ص ١١

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

هم صيَّروا تلك البروقَ صواعقاً فيهم وذاك العفو سوط عذاب(١)

فعبارة (سوط عذاب) اقتبسها أبو تمام من قوله تعالىٰ:﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾(٢)، وهو استخدام ذكي بحيث صار العفو سوط عذاب.

"ومن مصادر ثقافته أيضاً التاريخ الذي وعاه واطلع علىٰ كثير من حوادثه واستطاع أن يبرزها في شعره، وربما انتفع من مواقف بعض الشخصيات أبطال تلك الحوادث فاستخدمها في صوره الشعرية كقوله:

لا تنكرنْ أن يشتكي ثقل الهوىٰ بدني فما أنا من بقية عادِ

كم وقعة لي في الهوىٰ مشهورة ما كنت فيها الحارث بن عُبادِ

وقصة الحارث بن عباد التي ترويها كتب الأدب ويذكرها التبريزي في شرحه مشهورة ، فهو يقول: " يعني أن الحارث بن عباد اعتزل حرب بكر وتغلب في أول الأمر حتىٰ قتل ابن أخيه بجير وحديثه مشهور ، كأنه يقول: صليت بحرها ولم أعتزل عنها"(٣).

ويمدح أبو تمام مالك بن طوق التغلبي ويشفع في (أسامة) وهم حي من تغلب، فيقول:

فأَقِلْ أسامةَ جُرْمَها واصفحْ لها عنه وهبْ ما كان للوهَّابِ

رَفَدوكَ في يوم الكُلاب وشقّقوا فيه المزاد بجحفلٍ غلَّابِ

وهمُ بعين أُباغَ راشُوا للوغىٰ سهمَيْكَ عند الحارث الحرَّابِ

وليالي الحشَّاك والثَّرْثار قد جلبوا الجياد لواحق الأقرابِ

فيوم الكُلاب وعين أباغ والحشّاك والثرثار كلها مواقع في الزمان القديم، يذكرها ليرقِّق قلب الممدوح ويستميله إلىٰ العفو عنهم(٤).

ومن مظاهر ثقافة أبي تمام ما ظهر في شعره من دلائل وشواهد تدل علىٰ تأثره بالثقافات الأجنبية الوافدة، تلك الثقافات التي كانت محط أنظار المثقفين وعقولهم في ذلك العصر، بعد أن نشطت حركة الترجمة من آداب اليونان والفرس والهند، وكانت الفلسفة اليونانية واحدة من أبرز هذه الثقافات التي أصبحت مورداً للمتكلمين والمناطقة وأصحاب المذاهب، يؤصلون

---

(١) . أبو تمام ، ثقافته من خلال شعره ص ١٥٠.

(٢) . سورة الفجر/ ١٣.

(٣) . شرح التبريزي ٢/ ١٢٧.

(٤) . د. عبد الله بن حمد المحارب: أبو تمام بين ناقديه قديماً وحديثاً ،ص ٤٩٥.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بموضوعاتها نظرياتهم، ويعتمدون عليها في تفسير كثير من القضايا الفلسفية التي يطرحها الجدل في ذلك الوقت، وكان أبو تمام من أبرز مثقفي عصره، فلا غرو أن تظهر صبغة هذه الثقافة في شعره، وإليها أعاد الدكتور نجيب البهبيتي الاتجاه نحو البديع عند الشاعر، يقول: "إن أبا تمام حين كان يطلب البديع، وإنه حين كان يريده إرادة إنما كان يطلبه تبعاً لأصول وقواعد موضوعة، وإنه كان في ذلك متأثراً بيونانية أتته عن طريق الثقافة في عصره، وعن طريق العلم المنتشر بين أهل جيله"(١).

إن في تفرد أبي تمام في استعمالاته للمصطلحات العلمية والفلسفية في عصره دليل علىٰ تمتعه بعقلية فلسفية، كما أن فيه دليل "علىٰ ذكائه وحسن استفادته من تلك المعاني، وهذا الأسلوب الذي تميز فيه أبو تمام لم نلاحظه عند البحتري أو مسلم أو أبي نواس، وهو بهذا الوضع جدير بالتسجيل والدراسة، ولاشك أن ثقافة أبي تمام في جانبها الفكري الذي ينهل من عقائد الفلاسفة والمذاهب قد ساعده علىٰ سهولة الوصول إلىٰ كثير من المعاني العميقة ، كذلك فإن الجانب اللغوي والأدبي من هذه الثقافة قد أمده بثروة كبيرة من المفردات والأساليب الأدبية جعلته يطوع هذه اللغة لتلك المعاني العميقة"(٢).

وقد ساق الدكتور شوقي ضيف جملة من الأدلة الشعرية لأبي تمام، تبين وتوضح بجلاء مدىٰ تنوع ثقافته وتعدد مشاربه، يقول ممهدا لهذا الطرح: "وكان أبو تمام يأخذ نفسه بثقافة واسعة حتىٰ قالوا إنه عالم، وقالوا إن شعره يعجب أصحاب الفلسفة والمعاني، ويظهر أنه كان يحذق علم الكلام وأصوله وفروعه، كما كان يحذق كثيراً من الثقافات الفلسفية، والتاريخية، والإسلامية، واللغوية، حتىٰ العقائد والنحل المختلفة علىٰ نحو ما نرىٰ في قوله:

فلو صحَّ قول الجعفرية في الذي تنصُّ من الإلهام خِلناكَ مُلْهَما

يقول التبريزي: الجعفرية قوم من الشيعة يغلون في جعفر بن محمد ويزعمون أنه يُلهَم الأشياء ويعلمها وكذلك يعتقدون في أئمتهم الإلهام وأنهم يطلعون علىٰ الغيب .

وفي شعره ألفاظ كثيرة تدل علىٰ ثقافاته المتنوعة ، فمن ذلك قوله :

كم في الندىٰ لك والمعروف من بِدَعٍ إذا تُصُفِّحت اختيرت علىٰ السننِ

فقد ذكر البدع والسنن، وهما من ألفاظ الفقهاء ، ومن ذلك قوله في الخمر :

خرقاء يلعب بالعقول حبابها كتلاعب الأفعال بالأسماء

فقد تكلَّف لذكر الأفعال والأسماء كأنه من أصحاب النحو، ومن ذلك قوله:

---

(١) . أبو تمام الطائي، حياته وحياة شعره، ص ١٩٩.

(٢) . د. عبد الله بن حمد المحارب: أبو تمام بين ناقديه قديماً وحديثاً، ص ٥٠٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

صاغهم ذو الجلال من جوهر المجـ ـد وصاغ الأنامَ من عَرضهْ

يقول التبريزي : " هذا مأخوذ من الجوهر والعرض اللذين وضعهما المتكلمون؛ لأن الجوهر عندهم أثبت من العرض" ، ومن ذلك :

لن ينال العلا خصوصاً من الفتْـ ـيان من لم يكن نداه عموما

فقد ذكر الخصوص والعموم، وهما من ألفاظ المناطقة، ومن ذلك قوله:

هَبْ من له شيءٌ يريد حجابه ما بالُ لاشيءٍ عليه حجابُ

فقد عبر عن العدم بكلمة لا شيء ، وهي من كلام الفلاسفة، وكان كثيراً ما يتكلف لإشارات تاريخية كقوله يدعو مالك بن طوق التغلبي إلىٰ الصفح عن قوم تألَّبوا عليه :

لك في رسول الله أعظم أسوةٍ وأجلُّها في سُنَّةٍ وكتابِ

أعطىٰ المُؤلَّفةَ القلوب رضاهمُ كرماً وردَّ أخايذَ الأحزابِ

وهو يشير بذلك إلىٰ ما حدث بعد موقعة حنين من تألف الرسول قلوب جماعة من قريش وغيرهم بما أعطاهم من الغنائم ، وكأنه رد إليهم ما سبق أخذه في بعض حروبه منهم.

ونراه يقول في الأفشين وإيقاعه ببابك:

ما نال ما قد نال فرعونٌ ولا هامانُ في الدنيا ولا قارونُ

بل كان كالضحاك في سطواته بالعالمين وأنت أفريدونُ

والضحاك وأفريدون من ملوك الفرس الأسطوريين.

وكان أبو تمام يضيف إلىٰ هذه الثقافة الواسعة ثقافة فنية لا تقل عنها اتساعاً ، كما تشهد بذلك مصنفاته الكثيرة التي اختارها من الشعر القديم والحديث، وقد طُبع منها ديوان الحماسة بشرح التبريزي والمرزوقي"(١).

ولأجل هذا فقد جاء شعره مختلفاً عن كثير من الشعراء ؛ فشعر الكثيرين منهم قد يؤثر فينا، "ويحرك عواطفنا، ويلهب شعورنا، ولكننا مع ذلك نشعر بأن عالمهم الفكري جد محدود، وأفقهم ضيق، ونصيبهم من القوىٰ العقلية غير موفور، وهم مسجلو حالات نفسية تلم بهم علىٰ غير إرادتهم، وليسوا من مشيدي صروح الشعر وبناة قصوره الشامخة، وقوتهم مستمدة من الروح الشعرية التي تهيب بهم وتملىٰ عليهم، وكأنما هي قوة مقبلة من عالم مجهول، وهم كالمزهر تحرك

(١). د. شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ص ٢٢١ - ٢٢٢.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أوتاره أيدي العازفين، والبوق ينفخ فيه النافخون، وليس أبو تمام من هذا الطراز من الشعراء، فهو رجل فن وصنعة لا ينتظر حتىٰ ينزل عليه الوحي ويسعىٰ إليه، وإنما يتوكفه ويستنزله ويأخذ له عدته، وهو لا يعتمد كثيراً علىٰ نفحات ما وراء الوعي، وإنما يعتصر فكره اعتصاراً، ويعنّي نفسه، ويكد خاطره، وهو لا ينطلق في الطريق المعبَّدة، ولا يطير بأجنحة، وإنما يعلو النجود، ويهبط السفوح ، ويجوب الصخر، ويحفر في الأرض ، ففكره اليقظ الجوال أقوىٰ من عاطفته، وما يحصل عليه بعد بذل الجهد أكثر مما يجود به عليه الوحي، ولست أجرد الرجل من أصالة الشاعرية ، فهو عندي شاعر مطبوع ، ما في ذلك شك ، وله نفحات رائعة ، وإلهامات موفقَّة، ولكن همته العالية الطامحة وإرادته القوية، وملكاته العقلية الممتازة لم تكن تكتفي بالتعويل علىٰ الوحي، وتلقين الطبع، فهو شاعر كبير، وانتوىٰ ذلك، وصمم عليه، وأخذ به نفسه، حتىٰ استقام له الشعر، واستتب له ملكه، فهو مثل يضرب في قوة الإرادة ، ومضاء العزم، والمثابرة والدأب، والتوفر علىٰ دراسة الشعر ، والإحاطة بشوارده، والشاعر في أبي تمام هو الباحث الدارس ، والمستبصر المتأمل، وليس الكاهن في المعبد والمحراب ينطق بالأسرار المغلقة، والأحاجي الغامضة، ويستوقد الحماسة، ويستثير الطلعة بغرائب تكهناته، وعجائب ابتكاراته"(١).

كان أبو تمام يزاوج بين العقل والحسّ، ويعبر عنهما تعبيراً زخرفياً، ويمزج بين الثقافات، وألوان الشعر مزجاً طريفاً، إذ أخذ شعره يستوعب عناصر الثقافات المختلفة من عربية وإسلامية وفارسية وهندية ويونانية، ويحوّلها إلىٰ زخرف عقلي جديد، يسيطر عليه التعبير بهذا اللون الفلسفي(٢).

لقد نهل أبو تمام ثقافته الأولىٰ من المساجد، واغترف من بحر اللغة والفلسفة والفقه وبلغ إلىٰ ذروة الثقافة التي عرفها عصره، وكانت ثقافته تمتزج امتزاجاً عميقاً بشعره... إن موقفه الفلسفي من الأشياء جعله يفترض عليها الافتراضات، ويبدع الحيل الذهنية والنفسية، ليخرّجها تخريجاً آخر لم يسبق إليه إلا إلماماً أو أنه بكر، شبه تام.

كما أن قدرته علىٰ التجريد العقلي والنفسي كشفت له أبعاداً أخرىٰ ونوعاً من التآلف بين المعاني، فليس هناك معنىٰ غريب عن الآخر، وإن بدا ظاهره مباينا لسواه؛ فالمعاني تنحدر لديه من رحم واحد، ومن سلالة واحدة، وصلة النسب بينها لا يعرفها غير الشاعر(٣).

---

(١) . علي أدهم: على هامش الأدب والنقد، ص ١١٢ . ١١٣.

(٢) . الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ص٢٥٦- ٢٦٢.

(٣) . مقدمة شرح ديوان أبي تمام، إيليا حاوي، ص٧- ٨.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ويقول الآمدي: "صار كثير مما أتىٰ به من المعاني لا يُعرف، ولا يعلم غرضه منها، إلا مع الكد والفكر، وطول التأمل، ومنه لا يعرف معناه إلا بالظن والحدس"(١).

ولعل الأسباب التي دفعته إلىٰ ذلك تتمثل في ثقافته الواسعة، وخاصة ثقافته في الفلسفة والمنطق، واعتماده علىٰ الحكمة التي تقوم علىٰ الإدراك العقلي، إذ أخذ يقيم الحجة، ويثبت البرهان، ويأتي بالدليل، حتىٰ لا يترك مجالاً لأي دارس أن يشكّ فيما يقول...

ونجد أن أبا تمام في شعره تمثل نوعين، هما: القديم والحديث، يتمثل القديم بالتقليد، ويتمثل الحديث بالتجديد والتطوير، فهو لم يتخلّ عن القديم، ولم يبق أسيراً له، لكنه لم يذمه، ولم يهجره، لأنه يتكئ عليه، وينهل منه، ويتمثّله، ويقلّبه، ويتعمق به، ويسبر غوره، من أجل أن يكسبه حلّة جديدة تساير عصره، إذ اتخذه جسراً ليحلق به في آفاق انتشار العلوم، ونقلها عن الأمم الأخرىٰ، فهو لا ينظر وراءه، بل يتطلع إلىٰ رحاب المعاصرة، آخذاً علىٰ عاتقه تلك النقلة النوعية التي أثارت من حوله المعارك النقدية والأدبية، المتمثلة بين المؤيدة والمعارضة، وفتح باب الاجتهاد في هذا الباب، مما جعله يحمل لواء توظيف معطيات العصر في الفن الشعري فهذا لا يضيره، ولا يقلل من شأنه... وظل ذلك خاضعاً لثقافته، وتجاربه، وخبراته، وملاحظاته، ومشاهداته، ومدرسته التي اختطها لنفسه...(٢).

******

منزلته ومكانته:

أبو تمام في طليعة شعراء العربية النوادر المعدودين، وأحد الشعراء الثلاثة الذين شغل النقاد القدامىٰ بالمفاضلة بينهم والموازنة بين براعاتهم وعبقرياتهم، والآخران هما تلميذيه: البحتري والمتنبي، وهو لا شك إمام أهل الصنعة غير مدافع، يضربون علىٰ قالبه، ويجرون في غباره، ويقتفون آثاره، وقد أخمل الكثيرين من شعراء عصره، وتخرج عليه الكثيرون ممن جاءوا بعده ، ويمتاز شعره بعمق المعنىٰ، وبعد المأتىٰ، وإحكام النسج، وبراعة الصنعة، وقد لا يكون في شعره جمال شعر البحتري وسلاسته، ولا قوة المتنبي وحيويته، ولكنه يفوقهما في تجويد الصنعة، وفحولة النظم .

---

(١) . الموازنة بين الطائيين، ص١٢٥.

(٢) . د. هاشم صالح مناع : الحكمة وتطورها في شعر أبي تمام، بحث بمجلة التراث العربي، الصادرة عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق ، العدد ١٠١ص ١٩١ - ١٩٢.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

روىٰ الصولي عن الحسن بن عبد الله قال: سمعت إبراهيم بن العباس يقول لأبي تمام، وقد أنشده شعراً له في المعتصم: يا أبا تمام، أمراء الكلام رعية لإحسانك، فقال له أبو تمام: ذاك لأني أستضيء برأيك، وأرد شريعتك.

لقد غطت شاعرية أبي تمام في عصره علىٰ شاعرية شعراء كثيرين وردتهم القهقرىٰ، روىٰ الصولي أن أحمد بن يزيد المهلبي قال: سألت أبي عن أبي تمام ، فقال: سمعني أبي وأنا أُلاحي إنساناً في أبي تمام فقال لي: ما كان أحد من الشعراء يقدر أن يأخذ درهماً واحداً في أيام أبي تمام ، فلما مات أبو تمام اقتسم الشعراء ما كان يأخذه(١).

وذكر الصولحي أن ابن الزيات قال لأبي تمام : يا أبا تمام، إنك لتجلي شعرك من جواهر لفظك وبديع معانيك ما يزيد حسناتها علىٰ الجوهر في أجياد الكواعب، وما يدخر لك شيء من جزيل المكافآت، إلا ويقصر عن شعرك في المواساة(٢).

لقد كان لأبي تمام مكانة عظيمة عند ممدوحيه، حتىٰ إن بعضهم كان يقف إجلالاً عندما يلقي أبو تمام قصيدته ، فقد روىٰ الصولي أن الحسن بن رجاء استنشد أبا تمام فأنشده:

كُفِّي وَغَاكِ فإنني لكِ قالي ... ليست هوادي عَزْمَتي بنوالي

أنا ذو عرفتِ فإن عرتكِ جهالةٌ ... فأنا المقيم قيامةَ العُذَّالِ

فلما قال:

عادتْ له أيامه مُسودَّةً ... حتىٰ توهَّم أنهنَّ ليالي

قال له الحسن: والله لا تسود عليك بعد اليوم، فلما قال:

لا تنكري عَطَل الكريم من الغِنىٰ ... فالسيل حربٌ للمكان العالي

وتنظَّري خَبَبَ الركابِ ينُصُّها ... مُحْيي القريض إلىٰ مُميت المالِ

قام الحسن بن رجاء وقال: والله لا أتممتها إلا وأنا قائم، فقام أبو تمام لقيامه، وقال:

لبسط الرجاء لنا برغم نوائبٍ ... كثرت بهن مصارع الآمالِ

أغلىٰ عذارىٰ الشعر إن مهورَها ... عند الكرام إذا رخصن غوالي

تَرِدُ الظنونَ به علىٰ تصديقها ... ويحكِّمُ الآمالَ في الأموالِ

---

(١) . أخبار أبي تمام ص ١٠٤ . ١٠٥.

(٢) . عبد الله بن أسعد اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، تحقيق: خليل المنصور، ط/ ١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م، (٧٩/٢).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أضحىٰ سميُّ أبيك فيك مصدقاً بأَجَلٍّ فائدةٍ وأيمن فالِ
ورأيتَني فسألت نفسك سيْبَها لي ثم جُدْتَ وما انتظرتَ سؤالي
كالغيم ليس له ـ أُريدَ غِياثُه أو لم يُرَدْ ـ بُدٌّ من التهطال

فتعانقا وجلسا، فقال له الحسن: ما أحسن ما جُلِيَت هذه العروس ! فقال: والله لو كانت من الحور العِين لكان قيامُك أوفىٰ مُهُورها، قال محمد بن سعيد : فأقام شهرين فأخذ علىٰ يدي عشرة آلاف درهم ، وأخذ غير ذلك مما لم أعلم به، علىٰ بُخلٍ كان في الحسن بن رجاء(١).

ويروي الصولي أن عمارة بن عقيل(٢) قدم بغداد، فاجتمع الناس إليه، وكتبوا شعره، وسمعوا منه، وعرضوا عليه الأشعار، فقال له بعضهم: هاهنا شاعر يزعم قوم أنه أشعر الناس طراً، ويزعم غيرهم ضد ذلك، فقال: أنشدوني له، فأنشدوه:

غَدتْ تستجيرُ الدمعَ خوفَ نوىٰ غدِ وعادَ قتاداً عندَهَا كلُّ مَرْقَدِ
وأنْقَذَهَا مِنْ غَمْرَةِ الموتِ أَنَّهُ صُدُودُ فِراقٍ لا صُدُودُ تَعَمُّدِ
فأَجْرَىٰ لها الإشْفَاقُ دَمْعاً مُورَّداً من الدَّمِ يَجْرِي فَوْقَ خَدٍّ مُوَرَّدِ
هيَ البدْرُ يُغنِيهاَ تَوَدُّدُ وَجْهِهاَ إلىٰ كُلِّ من لاقَتْ وَإِنْ لم تَوَدَّدِ

ثم قطع المنشد، فقال عمارة: زدنا من هذا، فوصل وقال:

ولكنني لم أحْوِ وَفْراً مُجَمَّعاً ففُزْتُ بِه إلاَّ بشَمْلٍ مُبَدَّدِ
ولم تُعطِني الأيَّامُ نوماً مُسَكَّناً أَلَذُّ به إلا بنَوْمٍ مُشَرَّدِ

فقال عمارة: لله دره، لقد تقدم صاحبكم في هذا المعنىٰ جميع من سبقه علىٰ كثرة القول فيه، حتىٰ لحبب إليَّ الاغتراب، هيه! فأنشده:

وطولُ مُقامِ المرءِ في الحَيِّ مُخْلِقٌ لديباجَتَيْهِ فاغْتَرِبْ تَتَجدَّدِ
فإنِّي رَأيتُ الشَّمسَ زِيدَتْ مَحَبَّةً إلَىٰ النَّاسِ إذْ لَيْسَتْ عليهم بِسَرْمَدِ

فقال عمارة: كَمُل والله، إن كان الشعر بجودة اللفظ، وحسن المعاني، واطراد المراد، واستواء الكلام، فصاحبكم هذا أشعر الناس، وإن كان بغيره فلا أدري!(١).

---

(١) . أخبار أبي تمام ، ص ١٦٧ . ١٧٠.

(٢) . هو عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير بن عطية بن الخطفي، ويكنى أبا عقيل، شاعر متقدم فصيح، وكان يسكن بادية البصرة ويزور الخلفاء في الدولة العباسية فيجزلون صلته، ويمدح قوادهم، وكان النحويون بالبصرة يأخذون عنه اللغة . راجع الأغاني (٢٠/١٨٣ . ١٨٨).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

هذا التردد في العبارة قد أكد الصفات التي أسبغها عمارة علىٰ شعر أبي تمام، وهي وإن كانت معاني مطلقة لا تحديد فيها، وصفات فنية يصعب أن تخضع للتحليل النقدي الفني بالمعنىٰ الحديث ، إلا أنها عبارات كانت شائعة في ذلك العصر ، وُصِف بها الشعر الجيد ، واتخذها العلماء مقياساً لتقويم الشعر(٢).

وعن محمد بن القاسم بن خلادٍ قال: انصرفت يوماً من عند ابن أبي دؤادٍ، فدخلت إلىٰ محمد بن منصور فوجدت عنده عمارة بن عقيل، وكان خلا له، وهو ينشده قصيدةً له في الواثق أولها:

عرَفَ الديارَ رُسُومُها قَفْرُ لَعِبَتْ بها الأرْوَاحُ والقَطْرُ

فلما فرغ منها قلنا له: ما سمعنا أحسن من هذه الرائية، أحسن الله إليك يا أبا عقيل! فقال: والله لقد عصفت رائية طائيكم هذا بكل شعرٍ في لحنها، قلنا له: وما هي؟ قال: كلمته التي هجا بها الأفشين، فقال محمد بن يحيىٰ بن الجهم: أنا أحفظها، فقال: هاتها فأنشده:

الحقُّ أَبلجُ والسيوفُ عَوَارِ فَحَذَار من أَسَدِ العَرينِ حَذارِ

فقال له عمارة: أنشدنا ذكر النار، فأنشد:

ما زالَ سِرُّ الكُفْرِ بين ضُلوعِه حتىٰ اصْطَلَىٰ سِرَّ الزِّنادِ الواري

ناراً يُساورُ جسْمَهُ من حَرِّها لَهَبٌ كما عَصْفَرتَ نِصْفَ إزارِ

طارتْ لها شُعَلٌ يُهدّم لَفحُها أَرْكانَهُ هَدْماً بغيرِ غُبارِ

ففصَلْنَ منه كُلَّ مَجْمَعِ مَفصِلٍ وفَعلْنَ فاقرةً بكُلِّ فَقَارِ

قال أبو بكر: إنما قال: وفعلن، فخص هذه اللفظة لقول الله جل وعز ﴿تظنُّ أَنْ يُفعلَ بِها فَاقِرَةٌ﴾(٣)، ولقول الناس: فعل به الفواقر، أي الدواهي:

رَمَقُوا أَعَالَي جِذْعِه فكأَنَّما وَجدُوا الهِلالَ عَشِيَّةَ الإفطار

ثم ذكر المصلبين فقال:

سُودُ اللباسِ كأنما نَسَجَتْ لُهمْ أَيْدِي الشُّمُوسِ مَدَارِعاً مِنْ قَارِ

بَكَرُوا وأَسْرَوْا في مُتُونِ ضَوامرٍ قِيدَتْ لهم من مَرْبَطِ النجَّارِ

---

(١) . أخبار أبي تمام ، ص ٥٩ . ٦١.

(٢) . أبو تمام بين ناقديه قديما وحديثاً، ص ١٥٨.

(٣) . سورة القيامة/ ٢٥.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لا يبْرَحُون ومَنْ رآهُم خَالَهُم أبداً علىٰ سَفَرٍ من الأسْفارِ
جهِلُوا فلم يستكثِرُوا مِنْ طَاعَةٍ مَعْروفَةٍ بِعمارَةِ الأعْمارِ

فقال عمارة: لله دره، لقد وجد ما أضلته الشعراء، حتىٰ كأنه كان مخبوءاً له، قال محمد بن القاسم: فاعتقدت في أبي تمامٍ من ذلك اليوم أنه أشعر الناس، وما كان ذا رأيي من قبل(١).

ومن الشعراء المشهورين الذين شهدوا لأبي تمام ونصروه علىٰ من يبغضه الشاعر القرشي علي بن الجهم ، فعن محمد بن موسىٰ قال: سمعت علي بن الجهم(٢) ذكر دعبلاً فكفره ولعنه، وطعن علىٰ أشياء من شعره، وقال: كان يكذب علىٰ أبي تمام، ويضع عليه الأخبار، ووالله ما كان إليه ولا مقارباً له، وأخذ في وصف أبي تمام، فقال له رجل: والله لو كان أبو تمامٍ أخاك ما زاد علىٰ مدحك له، فقال: إلا يكن أخاً بالنسب، فإنه أخٌ بالأدب والدين والمودة، أما سمعت ما خاطبني به:

إن يُكْدِ مُطَّرَفُ الإخاءِ فإنَّنَا نَغْدُو وَنَسْرِي في إِخَاءٍ تَالِدِ
أو يَخْتَلِفْ مَاءُ الوِصَال فَمَاؤُنا عَذْبٌ تَحدَّرَ مِنْ غَمَامٍ وَاحِدِ
أو يَفْتَرِقْ نَسَبٌ يُؤَلِّفْ بيْنَنَا أَدَبٌ أَقَمْنَاهُ مَقَامَ الوَالِدِ

قال الصولي: وكان علي بن الجهم من كملة الرجال، وكان يقال: علمه بالشعر أكثر من شعره، فانظر إلىٰ تفضيل هذا الرجل لأبي تمام، مع تقدمه في الشعر والعلم به، وتفضيل عمارة بن عقيلٍ له، والعلماء يقولون: جاء عمارة بن عقيلٍ علىٰ ساقة الشعراء(٣).

وروىٰ الصولي أيضاً عن عبد الله بن محمد بن جرير قال: سمعت محمد بن حازمٍ الباهلي(٤) الشاعر يصف أبا تمام، ويقدمه في الشعر والعلم والفصاحة، ويقول: ما سمعت لمتقدمٍ ولا محدثٍ بمثل ابتدائه في مرثيته:

أصمَّ بك النَّاعِي وإن كانَ أسمَعَا وأصبح مغنىٰ الجود بعدك بلقعا

ولا مثل قوله في الغزل:

---

(١) . أخبار أبي تمام ، ص ٩٣ . ٩٦.

(٢) . هو أبو الحسن علي بن الجهم بن بدر بن الجهم القرشي الشاعر المشهور أحد الشعراء المجيدين، كان متديناً فاضلاً، نفاه المتوكل إلى خراسان سنة ٢٣٩هـ لأنه هجاه، وكان بينه وبين أبي تمام مودة أكيدة ، وله ديوان شعر صغير، توفي سنة ٢٤٩هـ ، انظر: وفيات الأعيان(٣/٣٥٥)، والموشح (٣٤٤)، وسمط الآلي ٥٢٦ .

(٣) . أخبار أبي تمام ، ص٦١ . ٦٢.

(٤) . هو محمد بن حازم بن عمرو الباهلي ويكنى أبا جعفر ، مولده ومنشؤه بالبصرة، شاعر مطبوع إلا أنه كان كثير الهجاء للناس ، ولم يمدح من الخلفاء إلا المأمون، وكان يأتي بالمعاني التي تستغلق على غيره وأكثر شعره في القناعة والتصوف وذم الحرص والطمع انظر: معجم الشعراء ٤٢٩، الأغاني (١٢ / ١٥٨ . ١٦٧).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ما إنْ رَأىٰ الأقْوَامُ شَمْسـاً قَبْلَها أَفَلَتْ فَلَـمْ تُعْقِبْهُمُ بظَـلاَم
لو يَقْدِرُونَ مَشَوْا عَلَىٰ وَجَنَاتِهِمْ وعُيُونِهِمْ فَضْـلاً عَنِ الأقْدَامِ(١)

أما أبو دلف، وهو الشاعر القائد الجواد المشهور، فقد تمنىٰ أن يكون محل محمد بن حميد الطوسي، فيرثيه أبو تمام بمرثيته المشهورة، ويقول أبو دلف: لم يمت من رثي بمثل هذا الشعر.

ويدفع لأبي تمام خمسين ألف درهم ، ويقول: "والله إنها لدون شعره"(٢).

ولعظم مكانة أبي تمام كان بعض الناس ينتحلون اسمه كي ينالوا حظوة أو منزلة أو شهرة أو مالاً، يقول نصير الرومي مولىٰ مبهوتة الهاشمي كنت مع الحسن بن رجاء، فقدم عليه أبو تمام فكان مقيماً عنده، وكان قد تقدم إلىٰ حاجبه ألا يقف ببابه طالب حاجةٍ إلا أعلمه خبره، فدخل حاجبه يوماً يضحك، فقال: ما شأنك؟ فقال: بالباب رجل يستأذن ويزعم أنه أبو تمام الطائي! قال: فقل له ما حاجتك؟ قال: يقول مدحت الأمير – أعزه الله – وجئت لأنشده، قال: أدخله، فدخل فحضرت المائدة، فأمره فأكل معه، ثم قال له: من أنت؟ قال: أبو تمام حبيب بن أوس الطائي، مدحت الأمير أعزه الله، قال: هات مدحك، فأنشده قصيدةً حسنةً، فقال: قد أحسنت، وقد أمرت لك بثلاثة آلاف درهمٍ، فشكر ودعا، وكان الحسن قد تقدم قبل دخوله إلىٰ الجماعة ألا يقولوا له شيئاً، فقال له أبو تمام: نريد أن تجيز لنا هذا البيت، وعمل بيتاً، فلجلج، فقال له: ويحك، أما تستحي، ادعيت اسمي واسم أبي وكنيتي ونسبي، وأنا أبو تمام! فضحك الشيخ وقال: لا تعجل علىَّ حتىٰ أحدث الأمير – أعزه الله – قصتي: أنا رجل كانت لي حال فتغيرت، فأشار علىٰ صديق لي من أهل الأدب أن أقصد الأمير بمدح، فقلت له: لا أحسن، فقال أنا أعمل لك قصيدةً، فعمل هذه القصيدة ووهبها لي، وقال: لعلك تنال خيراً، فقال له الحسن: قد نلت ما تريد، وقد أضعفت جائزتك. قال: فكان ينادمه ويتولعون به فيكنونه بأبي تمام(٣).

هكذا كان معاصرو أبي تمام يعرفون له قدره وعلو شأنه وذيوع صيته في الآفاق ، فالكل يشهد له بعظيم منزلته حتىٰ الذين ناصبوه العداء ، ما ناصبوه هذا العداء إلا لعجزهم عن الوصول إلىٰ مكانته، بل إنهم رغم هذه الغيرة قد شهدوا له في غير مرة ؛ فعن عون بن محمد قال: شهدت دعبلاً عند الحسن بن رجاء، وهو يضع من أبي تمام، فاعترضه عصابة الجَرْجَرائيّ(٤) فقال: يا أبا علي

---

(١) . أخبار أبي تمام ، ص ٦٥ . ٦٦.

(٢) . أخبار أبي تمام ، ص ١٢٤.

(٣) . أخبار أبي تمام، ص١٧٠ . ١٧١.

(٤) . هو إبراهيم بن باذام، له حكايات وأخبار وديوان شعر، روى عنه عون بن محمد الكندي، انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ط/٢ دار صادر ، بيروت، ١٩٩٥م، (٢ /١٢٣).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

اسمع مني مما مدح به أبا سعيد محمد بن يوسف فإن رضيته فذاك، وأعوذ بالله فيك من ألا ترضاه، ثم أنشده:

أمَا إنَّه لولا الخليطُ المودِّعُ

فلما بلغ إلىٰ قوله:

لقد آسَفَ الأعداءَ مجْدُ ابن يوسُفٍ وذُو النَّقْصِ في الدُّنيا بذي الفَضْلِ مُولَعُ

هو السيلُ إنْ واجَهْتَهُ انْقَدْتَ طَوْعَهُ وتَقْتَادُهُ مِنْ جانِبَيهِ فَيَتْبَعُ

ولم أرَ نَفْعاً عند مَنْ لَيْسَ ضَائِراً ولم أرَ ضَراً عِنْدَ مَنْ لَيْسَ ينفَعُ

مَعَادُ الورَىٰ بعدَ الممَاتِ، وسَيْبُهُ مَعادٌ لنَا قبل المَماتِ ومَرْجِعُ

فقال دعبل: لم ندفع فضل هذا الرجل، ولكنكم ترفعونه فوق قدره، وتقدمونه وتنسبون إليه ما قد سرقه، فقال له عصابة: تقدمه في إحسانه صيرك له عائباً، وعليه عاتباً(١).

وجاء دعبل إلىٰ أبي علي الحسن بن وهبٍ في حاجةٍ بعد ما مات أبو تمام، فقال له رجل: يا أبا علي، أنت الذي تطعن علىٰ من يقول:

شَهِدْتُ لقَدْ أَقوَتْ مَغَانيكُمُ بَعْدِي وَمَحَّتْ كما مَحَّتْ وشائِعُ مِن بُرْدِ

وَأَنْجَدْتُمُ مِنْ بَعْدِ إِتْهَامِ دَارِكم فيا دَمْعُ أَنْجِدْني عَلَىٰ سَاكِنِي نَجْدِ

فصاح دعبل: أحسن والله، وجعل يردد:

فيا دَمْعُ أنجِدْني علىٰ ساكني نَجْدِ

ثم قال: رحمه الله، لو ترك لي شيئاً من شعره لقلت إنه أشعر الناس(٢).

حتىٰ العلماء الذين كانوا يأخذون موقفا من أبي تمام شهدوا له بالفضل، وعدلوا عن موقفهم؛ يقول عبد الله بن المعتز: جاءني محمد بن يزيد النحوي فاحتبسته، فأقام عندي، فجرىٰ ذكر أبي تمام، فلم يوفه حقه؛ وكان في المجلس رجل من الكتاب نعماني، ما رأيت أحداً أحفظ لشعر أبي تمام منه، فقال له: يا أبا العباس، ضع في نفسك من شئت من الشعراء، ثم انظر، أيحسن أن يقول مثل ما قاله أبو تمام لأبي المغيث موسىٰ بن إبراهيم الرافقي يعتذر إليه:

شَهِدْتُ لقَدْ أَقوَتْ مَغَانيكُمُ بَعْدِي وَمَحَّتْ كما مَحَّتْ وشائِعُ مِن بُرْدِ

وَأَنْجَدْتُمُ مِنْ بَعْدِ إِتْهَامِ دَارِكم فيا دَمْعُ أَنْجِدْني عَلَىٰ سَاكِنِي نَجْدِ

---

(١). أخبار أبي تمام، ص ١٨١ - ١٨٢.

(٢). أخبار أبي تمام ، ص ٢٠٢.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

ثم مر فيها حتىٰ بلغ إلىٰ قوله في الاعتذار:

أَتانِي مَعَ الرُّكْبانِ ظَنٌّ ظَنَنْتُهُ لَفَفْتُ لَهُ رَأسي حَيَاءً مِنَ المَجْدِ
لقَدْ نَكَبَ الغَدْرُ الوفَاءَ بساحَتِي إِذَنْ، وسَرَحْتُ الذَّمَّ في مَسْرَحِ الحمدِ
وكيفَ وَمَا أَخْلَلتُ بعدَكَ بالحِجَي وأنتَ فلم تُخْلِلْ بمَكْرُمَةٍ بَعْدِي
أُسَرْبِلُ هُجْرَ القَوْلِ مَنْ لو هَجَوْتُهُ إِذَنْ لهجانِي عنهُ معروُفُه عِنْدي؟
كَريمٌ متىٰ أَمدحْهُ أَمدَحْهُ وَالْوَرَىٰ معي، ومتَىٰ مَا لُمْتُهُ لُمْتُهُ وَحْدِي
فإِنْ يكُ جُرْمٌ عَنَّ أَوْ تَكُ هَفْوَةٌ عَلَىٰ خَطإٍ مِنِّي فَعُذْرِي عَلَىٰ عَمْدِ

فقال أبو العباس محمد ين يزيد: ما سمعت أحسن من هذا قط، ما يهضم هذا الرجل حقه إلا أحد رجلين: إما جاهل بعلم الشعر ومعرفة الكلام، وإما عالم لم يتبحر شعره ولم يسمعه قال أبو العباس عبد الله بن المعتز: وما مات إلا وهو منتقل عن جميع ما كان يقوله، مقر بفضل أبي تمامٍ وإحسانه(١).

ولقد شهد المبرد لأبي تمام في موقف آخر، فعبد الله بن المعتز قال: جاءني محمد بن يزيد المبرد يوماً فأفضنا في ذكر أبي تمام، وسألته عنه وعن البحتري، فقال: لأبي تمام استخراجات لطيفة، ومعانٍ طريفةٌ، لا يقول مثلها البحتري، وهو صحيح الخاطر، حسن الانتزاع، وشعر البحتري أحسن استواءً، وأبو تمام يقول النادر والبارد، وهو المذهب الذي كان أعجب إلىٰ الأصمعي، وما أشبه أبا تمام إلا بغائصٍ يخرج الدر والمخشلبة، ثم قال: والله إن لأبي تمامٍ والبحتري من المحاسن ما لو قيس بأكثر شعر الأوائل ما وجد فيه مثله(٢).

وقال الحسن بن رجاء: "ما رأيت أحداً قط أعلم بجيد الشعر قديمه وحديثه من أبي تمام"(٣).

وجعل الزمخشري شعر أبي تمام بمنزلة ما رواه من شعر القدماء في ديوان الحماسة الذي يعدّ أحد مصادر الاستشهاد اللغوي والنحوي، قال الزمخشري:" إنه وإن كان محدثاً لا يستشهد بشعره في اللغة فهو من علماء العربية، فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه"(٤).

---

(١). أخبار أبي تمام ، ص ٢٠٢ . ٢٠٤.

(٢). أخبار أبي تمام ، ص ٩٦ . ٩٧.

(٣). السابق، ص ١١٨.

(٤). الزمخشري: الكشاف، ط/٣ دار الكتاب العربي ، بيروت ١٤٠٧هـ (٨٧/١)، والاقتراح في أصول النحو:٢٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقد وسّع أبو علي الفارسّي دائرة الاستشهاد النحوي فأورد أبياتاً لأبي تمام في كتابه (الإيضاح والتذكرة) وتبعه تلميذه (ابن جني).

وقد نقل البغدادي في خزانته جوانب من اهتمام النقاد بشعر أبي تمام وهذا القاضي الجرجاني صاحب (الوساطة) أنصف أبا تمام بعد أن تحامل عليه فقال:" ولستُ أقول هذا غضّاً من أبي تمام ولا تهجيناً لشعره، ولا عصبية عليه لغيره، فكيف أنا أدين بتفضيله، وتقويمه، وأنتحل موالاته وتعظيمه، وأراه قبلة أصحاب المعاني وقدوة أهل البديع"(١).

ويروي الصولي عن عبد الله بن المعتز قال: حدثني أبو سعيد النحوي المعروف بصعودا عن أبي تمام الطائي قال: خرجت يوماً إلىٰ سر من رأىٰ، حين ولي الواثق، فلقيني أعرابي وقد قربت منها، فأردت أن أسأله عن شيءٍ من أخبار الناس بها، فخاطبته، فإذا أفصح الناس وأفطنهم، فقلت: ممن الرجل؟ قال: من بني عامر، قلت: كيف علمك بأمير المؤمنين؟ قال: قتل أرضاً عالمها، قلت فما تقول فيه؟ قال: وثق بالله فكفاه، أشجىٰ العاصية، وقمع العادية، وعدل في الرعية، وأرعف كل ذي قلمٍ خيانته، قلت: فما تقول في أحمد بن أبي دؤاد؟ قال: هضبة لا ترام، وجندلة لا تضام، تشحذ له المدىٰ، وتحبل له الأشراك، وتبغي له الغوائل، حتىٰ إذا قيل كأن قد، وثب وثبة الذئب، وختل ختل الضب، قلت: فما تقول في محمد بن عبد الملك؟ قال: وسع الدانىٰ شره، وقتل البعيد ضره، له كل يومٍ صريع لا يرىٰ فيه أثر نابٍ، ولا ندب مخلبٍ، قلت: فما تقول في عمرو ابن فرج؟ قال: ضخم لهم، مستعذب للذم، قلت: فما تقول في الفضل بن مروان؟ واستعذبت خطابه، قال: ذاك رجل نشر بعد ما قبر، فعليه حياة الأحياء وخَفْتَةُ الموتىٰ، قلت: فما تقول في أبي الوزير؟ قال: كبش الزنادقة الذي تعرف، ألا ترىٰ أن الخليفة إذا أهمله سنح ورتع، فإذا هزه أمطر فأمرع؟ قلت: فابن الخصيب؟ قال: أكل أكلة نهم، فذرق ذرقة بشم. قلت: فما تقول في إبراهيم أخيه؟ قال: " أموات غير أحياءٍ وما يشعرون أيان يبعثون ". قلت: فما تقول في أحمد بن إسرائيل؟ قال: لله دره، أي قُلْقُلٍ هو؟ غُرِس في منابت الكرم، حتىٰ إذا اهتز لهم حصدوه. قلت: فما تقول في إبراهيم بن رياح؟ قال: أوبقه كرمه، وأسلمه حسبه، وله معروف لا يسلمه، ورب لا يخذله، وخليفة لا يظلمه. قلت: فما تقول في نجاح بن سلمة؟ قال: لله دره، أي طالب وترٍ، ومدرك ثأرٍ! يتلهب كأنه شعلةُ نار، له من الخليفة جلسة تزيل نعماً، وتحل نقماً. قلت: يا أعرابي، أين منزلك؟ قال: اللهم غفراً، إذا اشتمل الظلام فحيثما أدركني الرقاد رقدت! قلت: فكيف رضاك عن أهل العسكر؟ قال: لا أخلق وجهي بمسألتهم، أو ما سمعت قول هذا الفتىٰ الطائي، الذي قد ملأ الدنيا شعره:

ومَا أُبالِي وخَيْرُ القَوْلِ أَصْدَقُهُ حَقَنتَ لي ماءَ وجهي أو حقَنْتَ دَمِي

(١) . الوساطة بين المتنبي وخصومه :٢٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قلت: فأنا الطائي قائل هذا الشعر! فدنا مبادراً فعانقني وقال: لله أبوك، ألست الذي يقول:

ما جُودُ كفِّكَ إن جادت وإن بخِلَتْ من ماءِ وجهي إذَا أخلقتُه عِوَضُ

قلت: نعم، قال: أنت والله أشعر أهل الزمان، فرجعت بالأعرابي معي إلىٰ ابن أبي دؤاد، وحدثته بحديثه، فأدخله إلىٰ الواثق، فسأله عن خبره معي، فأخبره به، فأمر له بمالٍ، وأحسن إليه، ووهب له أحمد بن أبي دؤاد، فكان يقول لي: قد عظم الله بركتك علي(١).

قال ابن المعتز أثناء حديثه عن أبي تمام : "يقال إن له ستمائة قصيدة وثمانمائة مقطوعة، وأكثر ماله جيد، والرديء الذي له إنما هو شيء يستغلق لفظه فقط، فأما أن يكون في شعره شيء يخلو من المعاني اللطيفة والمحاسن والبدع الكثيرة فلا، وقد أنصف البحتري لما سئل عنه وعن نفسه فقال: جيده خير من جيدي، ورديئي خير من رديئه، وذلك أن البحتري لا يكاد يغلظ لفظه، إنما ألفاظه كالعسل حلاوة، فأما أن يشق غبار الطائي في الحذق بالمعاني والمحاسن فهيهات، بل يغرق في بحره، علىٰ أن للبحتري المعاني الغزيرة، ولكن أكثرها مأخوذ من أبي تمام، ومسروق من شعره"(٢).

وقال ابن الأثير : " أما أبو تمّام فربّ معان وصيقل ألباب وأذهان، وقد شهد له بكل معنىٰ مبتكر لم يمش فيه علىٰ أثر، فهو غير مدافع عن مقام الإغراب الذي يبرز فيه علىٰ الأضراب، ولقد مارست من الشعر كل أول وأخير، ولم أقل ما أقول فيه إلّا عن تنقيب وتنقير، فمن حفظ شعر الرّجل وكشف عن غامضه وراض فكره برائضه أطاعته أعنة الكلام، وكان قوله في البلاغة ما قالت حذام: فخذ مني في ذلك قول حكيم، وتعلّم ففوق كل ذي علم عليم.

وأما البحتريّ، فإنه أحسن في سبك اللفظ علىٰ المعنىٰ، وأراد أن يشعر فغنّىٰ، ولقد حاز طرفي الرّقّة والجزالة علىٰ الإطلاق، فبينا يكون في شظف نجد، حتّىٰ يتشبّب بريف العراق.

ومع أن القوم قد عابوا علىٰ أبي تمام ما عابوه إلا أنهم كانوا يدركون أنه رأس في الشعر ، وصاحب مدرسة ، ومبتدئ لمذهب ، وإمام الناس شعراً ومعرفة بالشعر بل ربما اعتبره بعض النقاد أعظم شعراء العربية علىٰ الإطلاق، فذهب إلىٰ أنه أشعر من المتنبي ومن غير المتنبي عند كل عارف يعرف البيان من الفصاحة والبلاغة(٣).

---

(١) . أخبار أبي تمام ، ص ٨٩ . ٩٣.

(٢) . عبد الله بن المعتز: طبقات الشعراء، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، ط/٣ دار المعارف ، القاهرة، ص ٢٨٦.

(٣) . ابن الأثير: الاستدراك في الرد على رسالة ابن الدهان ، تحقيق: حفني محمد شرف، الأنجلو المصرية، ١٩٥٨م، ص٢١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقال ابن خلكان: "وقال العلماء: خرج من قبيلة طيئ ثلاثة، كل واحد مجدي في بابه: حاتم الطائي في جوده، وداود بن نصير الطائي في زهده، وأبو تمام حبيب بن أوس في شعره"(١).

وقال عنه أيضاً: "كان أوحد عصره في ديباجة لفظه ونصاعة شعره وحسن أسلوبه، وله كتاب "الحماسة" التي دلت على غزارة فضله وإتقان معرفته بحسن اختياره، وله مجموع آخر مسماه "فحول الشعراء"، جمع فيه بين طائفة كبيرة من شعراء الجاهلية والمخضرمين والإسلاميين، وله كتاب "الاختيارات من شعر الشعراء"، وكان له من المحفوظ ما لا يلحقه فيه غيره، قيل إنه كان يحفظ أربع عشرة ألف أرجوزة للعرب غير القصائد والمقاطيع، ومدح الخلفاء وأخذ جوائزهم(٢).

ويقال: "إن أبا تمام كان كالقاضي العدل، يضع اللفظة موضعها، ويعطي المعنى حقه بعد طول النظر والبحث عن البينة، أو كالفقيه الورع يتحرى كلامه، ويتحرّج خوفاً على دينه"(٣).

ويمتدح أبو الفرج أبا تمام وشعره فيقول : "وقد فضّل أبا تمام من الرؤساء والشعراء والكبراء من لا يشق الطاعنون عليه عناده، ولا يدركونه وإن جدوا آثاره ، وما رأى الناس بعده إلى حيث انتهوا له في جيده نظيراً ولا شكلا" ثم يمضي في بيان مكانته فيقول عنه: "شاعر مطبوع ، لطيف الفطنة ، دقيق المعاني ، غواص على ما يستصعب منها، ويعسر متناوله على غيره ، وله مذهب في المطابق هو كالسابق إليه جميع الشعراء ، وإن كانوا قد فتحوه قبله، وقالوا القليل منه، فإن له فضل الإكثار فيه، والسلوك في جمع طرقه، والسليم من شعره النادر شيء لا يتعلق به أحد، وله أشياء متوسطة، ورديئة رذلة جداً، وفي عصرنا هذا من يتعصب له فيفرط حتى يفضله على كل سالف وخالف، وأقوام يتعمدون الرديء من شعره فينشرونه ويطوون محاسنه"(٤).

وكما نال شعر أبي تمام عناية القدماء من النقاد ، نال كذلك عناية المحدثين منهم، إذ نجد من المحدثين من يقدمه على كل شعراء العرب، لا يستثني منهم أحداً، ويعلل لهذا التقديم بأن أبا تمام خرج على عمود الشعر وأحسن الخروج، وبلغ من الإجادة والروعة المبتكرة ما لم يبلغه شاعر

---

(١) . ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر ، بيروت ١٩٩٤م، (٢/ ١٤).

(٢) . المصدر السابق، (٢/١٢. ١٣).

(٣) . العمدة (١/ ٢٦٦) .

(٤) . أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٦١م، ١٦ / ٣٨٣،٣٨٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

آخر، كما نجد من المحدثين كذلك من يصفه بقوله: "كان بلا شك يتناسق مع الزمان، والمكان، واللغة، والذوق، والخصائص الاجتماعية والحضارية"(١).

ولعل شعر أبي تمام أوعر شعر للمحدثين ، ويعترف الصولي بذلك في كتابه ، ويقول حين عرض لشعر بشار وأبي نواس ومسلم :"إنه أصعبهم شعراً" ، ويروي أن الحسن بن وهب قال : "قلت لأبي تمام : أفهم المعتصم بالله من شعرك شيئاً ؟ قال: استعادني ثلاث مرات :

وإن أسمج من تشكو إليه هوىً من كان أحسن شيء عنده العذلُ

واستحسنه، ثم قال لابن أبي دؤاد: يا أبا عبد الله، الطائي بالبصريين أشبه منه بالشاميين"(٢).

لقد كان أبو تمام زعيماً ورائداً ، وكان النقاد (من قدماء ومعاصرين) مقرّون لأبي تمام بهذه الزعامة، يقول طه حسين: " أما أبو تمام، فليس من شكّ أنه قد انفرد بالزعامة في وقت من الأوقات، حتىٰ اعترف له بها خصومه، فالبحتري كان يرىٰ نفسه تلميذاً لأبي تمام، وكان يقول: إنما أكلت الخبز بفضل أبي تمام ، " فأبو تمام أوّل شاعر إسلامي، استطاع أن يفرض زعامته فرضاً، وأن يعترف له بها الناس جميعاً، دون أن يزاحمه فيها أحد مزاحمة جدية "(٣).

وليس أدلّ علىٰ مكانة أبي تمام هذه في عصره، من وساطته للبحتري عند أهل معرة النعمان، ومن احتكام الشعراء إليه، واستشفاع المذنبين به، وادعاء البعض أنهم إياه ليحتلّوا مركزاً في القلوب، وأمر المعتصم بعشرة آلاف درهم للشاعر علىٰ قصيدته الرائية في الأفشين ولمن حفظها وأنشدها، بنصف هذا المقدار(٤).

لقد علا أبو تمام بشعره فوق مستوىٰ أوساط الأدباء، ويرىٰ الأستاذ عبد السلام هارون ـ رحمه الله ـ أن هذا يرجع إلىٰ أسباب أربعة:

أولها: ما التزم أبو تمام من صنعة البديع التي أغرق فيها إغراقاً، وخاصة فن التورية التي تستدعي انتباهاً خاصاً.

---

(١) . د. العربي درويش: الشعراء المحدثون في العصر العباسي، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٩م، ص ١١٤.

(٢) . أخبار أبي تمام ، ص٢٦٧.

(٣) . د. طه حسين: من حديث الشعر والنثر ، ط ١٠، دار المعارف بمصر١٩٦٩، ص١٠٠-١٠١.

(٤) . د.عبد العزيز سيد الأهل: عبقرية أبي تمام ، ط ٢، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٢، ص ٦٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وثانيها: ميله إلىٰ الجزالة اللفظية والتأليفية أعني جزالة الأسلوب ، فكثير من ألفاظه قد تفوت ما وصل إلينا من معاجم، وكثير من أساليبه ينسج فيه علىٰ منوال المُغْربين من الأعراب، حتىٰ ليظن المتعجل أن الرجل قد أخطأ ، وهو علىٰ عين الصواب .

وثالثها: فيضان شعره بالإشارات التاريخية، وإلمامه بالأمثال الغريبة التي تشير إلىٰ أدب نادر، ثم إن أبا تمام رجل واسع الثقافة كما يبدو من شعره، وقال محمد بن يزيد المبرد : " ما سمعت الحسن بن رجاء ذكر قط أبا تمام إلا قال: ذاك أبو التمام وما رأيت أعلم بكل شيء منه".

وهو يتحدث عن كثير من المعاني التي لا يكشفها إلا فيلسوف، أو متكلم، أو عالم ديني، أو مؤرخ، أو فلكي، أو منطقي، أو من ينتمي إلىٰ هؤلاء بصلة.

ورابعها: ذكاء أبي تمام وحدة خاطره، فذكاؤه هو الذي مكّنه من النجاح في هذه الصناعة الدقيقة التي سلك في شعره"(١).

الفصل الخامس

علاقته بالشعراء

(أ) ـ تأثره بالشعراء السابقين.

تأثر أبو تمام بكل الشعراء السابقين علىٰ اختلاف عصورهم وبيئاتهم، وهذا التأثر بدا واضحاً في ألفاظه وتراكيبه وصوره، وفي مختاراته التي تدل علىٰ حسن انتقائه، وسعة أفقه ، وتعمق ثقافته، غير أنه كان مولعاً بالمذهب الجديد في الشعر، ذلك المذهب الذي بدأ مع بشار بن برد ومسلم بن الوليد، وأبي نواس، ولهذا كنا نراه كثير الغوص في بحارهم، يقلب في دررهم، ويحاول أن يحذو حذوهم حتىٰ بلغ في ذلك كل مبلغ، ووصل إلىٰ غاية أعيت أقرانه في مواكبته.

دخل أبو الغصن محمد بن قدامة علىٰ حبيب بن أوس بقزوين وحواليه من الدفاتر ما غرق فيه فما يكاد يرىٰ، قال أبو الغصن: فوقفت ساعة لا يعلم بمكاني لما هو فيه، ثم رفع رأسه فنظر إلي فسلم علي، فقلت له: يا أبا تمام إنك لتنظر إلىٰ الكتب كثيراً وتدمن الدرس فما أصيرك عليها! فقال: والله ما لي إلف غيرها ولا لذة سواها، وإني لخليق إن أتفقدها أن أحسن.

وإذا بحزمتين: واحدة عن يمينه وواحدة عن شماله، وهو منهمك ينظر فيهما ويميزهما من دون سائر الكتب، فقلت: فما هذا الذي أرىٰ من عنايتك به أؤكد من غيره؟ قال: أما التي عن يميني

---

(١) . عبد السلام محمد هارون: همزيات أبي تمام ط/ ١ دار الجيل ، بيروت ١٩٩١م، ص ٨ . ١٠.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فاللات، وأما التي عن يساري فالعزىٰ، أعبدهما من عشرين سنة، فإذا عن يمينه شعر مسلم بن الوليد صريع الغواني، وعن يساره شعر أبي نواس(١).

وكان أبو تمام يعلن للناس ما أخذه من الشعراء دون مواربة ولا تضليل، يروي الصولي عن علي الرازي قال: شهدت أبا تمام، وغلام له ينشد ابن أبي دؤاد:

لقد أَنْسَتْ مَسَاوِئَ كلِّ دَهْرٍ محاسِنُ أحمدَ بنِ أبي دُؤَادِ

فما سافرتُ في الآفاقِ إلاَّ ومِنْ جَدْواكَ راحِلتَي وَزَادِي

مُقيمُ الظَّنِّ عندكَ والأَماني وإِنْ قَلِقَتْ رِكابي في الْبِلاَدِ

فقال له: يا أبا تمام، أهذا المعنىٰ الأخير مما اخترعته أو أخذته؟ فقال: هو لي، وقد ألممت بقول أبي نواس:

وإِنْ جَرَتِ الألفاظُ منا بِمدْحَةٍ لغيرِكَ إنساناً فأنتَ الذي نَعْنِي(٢)

ودخل أبو تمام علىٰ أحمد بن أبي دؤاد يوماً ، وقد كان عاتباً عليه في شيء فاعتذر إليه، وقال: أنت الناس كلهم، ولا طاقة لي بغضب جميع الناس! فقال له ابن أبي دؤاد: ما أحسن هذا فمن أين أخذته؟ قال: من قول أبي نواس:

وليسَ للهِ بمُستنكَرٍ أنْ جَمعَ العَالَم في وَاحِدِ(٣)

ومما يدل علىٰ تأثر أبي تمام بمن سبقه من الشعراء ما ورد في شعره من ألفاظ وتراكيب ومعان وصور أخذها ممن سبقه أو عاصره من الشعراء .

كما تأثر أبو تمام ببعض شعراء عصره كابن المعذل ، وذلك واضح في قوله:

فالمجد لا يرضىٰ بأن ترضىٰ بأن يرضىٰ المؤمل منك إلا بالرضا

قال الصولي:" أخذ لفظه من عبد الصمد بن المعذل الذي قال:

أترضىٰ بأنْ أرضىٰ فأرضىٰ تتبعا لمرضاتكم منكم بما ليس بالرضا"(٤)

ونحن نرىٰ كيف أن أبا تمام أخذ من عبد الصمد بيته بلفظه ومعناه دونما تغيير.

وقد تأثر أبو تمام بالفرزدق، ومن أمثلة هذا التأثر قول أبي تمام:

---

(١) . عبد الله بن محمد ابن المعتز: طبقات الشعراء، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، ط/٣ دار المعارف – القاهرة، ص٢٨٤.

(٢) . أخبار أبي تمام، ص ١٤١ . ١٤٢.

(٣) . أخبار أبي تمام ، ص ١٤٦.

(٤) . شرح الصولي (١/٦٠٨).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

أو يختلف ماءُ الوصال فماؤنا عذبٌ تَحَدَّر من غمامٍ واحدِ

قد أخذه أبو تمام من قول الفرزدق:

يا بشرُ أنت فتىٰ قريشٍ كلها ريشي وريشك من جناحٍ واحدِ(١)

ومما يمكن أن يعد تضمينا في هذا الباب قول أبي تمام:

قتلته سرًّا ثم قالت جهرة قول الفرزدق: لا بظبي أعفرا

جاء في النظام : "قال أبو العلاء: اكتفىٰ بعجز بيت الفرزدق؛ لأنه لم يقدر أن يزيد علىٰ ذلك من أجل إقامة الوزن والبيت مشهور، وقد روي للفرزدق ولغيره(٢):

أقول له لما أتاني نعيه به لا بظبي بالصريمة أعفرا

وهذا المثل يقال عند الشماتة؛ أي أنه أحق بالهلكة من ظبي أعفر..."(٣) .

وقال أبو تمام :

والشيب إن طرد الشبابَ بياضُه كالصبح أحدث للظلام أفولا

تأثر فيه بقول الفرزدق:

والشيب ينهض في الشباب كأنه ليلٌ يصيح بجانبيه نهارُ(٤)

ومن الشعراء الذين عاصرهم أبو تمام وتأثر بهم الشاعر العباسي دعبل بن علي ، وذلك في قوله:

وإنَّ امرأً أسدىٰ إليَّ بشافعٍ لديَّ يُرّجِّي الشكر مني لأحمقُ

شفيعك فاشكر في الحوائج إنه يصونك عن مكروهها وهو يخلقُ

أخذ أبو تمام معنىٰ هذين البيتين فقال وألطف وأحسن اللفظ:

فلقيتُ بين يديه حُلْوَ عطائه ولقيتَ بين يديَّ مُرَّ سؤاله

وإذا امرؤٌ أسدىٰ إليَّ صنيعةً من جاهه فكأنها من ماله(٥)

---

(١) . أخبار أبي تمام ، ص ٧٨.

(٢) . ديوان الفرزدق: تحقيق: علي فاعور، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٧م، ص١٨٠.

(٣) . النظام: ٢/٥٩.

(٤) . الموازنة (١/ ٦٤).

(٥) . الموازنة (١/ ٧٠ . ٧١).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقال جرير يرثي الوليد بن عبد الملك:

أمسىٰ بنوه وقد جلَّت مصيبتهم مثل النجوم هوىٰ من بينها القمرُ

فتأثر به أبو تمام في قوله:

كأن بني نبهان يوم وفاته نجوم سماء خرَّ من بينها البدرُ(١)

وقد تأثر أبو تمام بكُثير في قوله:

وركبٍ كأطراف الأسنَّة عرَّسوا علىٰ مثلها والليل تسطو غياهبه

لأمرٍ عليهم أن تتم صدوره وليس عليهم أن تتم عواقبه

فقد أخذ أبو تمام صدر البيت الأول من قول كثير:

وركبٍ كأطراف الأسنَّة عرّجوا قلائص في أصلابهن نحولُ(٢)

وقد يتأثر الشاعر بمعنىٰ من المعاني دون اللفظ فيسمىٰ تضميناً، وهذا النوع من التضمين كثير جداً؛ لأن الشعراء قد يقع بعضهم علىٰ معاني بعض دونما قصد، ومثله قول أبي تمام:

لقد آسف الأعداء مجد ابن يوسف وذو النقص في الدنيا بذي الفضل مولع

قال الصولي:" أخذه من قول مروان بن أبي حفصة :

ما ضرني حسد اللئام ولم يزل ذو الفضل يحسده ذوو التقصير"(٣)

وقد يكون التضمين ألفاظا قد وردت عند بعض الشعراء فأخذها أبو تمام وضمنها في قصائده ومن هذا الضرب قوله:

أحذاكها صنع الضمير يمده جفر إذا نضب الكلام معين

قال الجرجاني: أخذ لفظة " الصنع: من قول أبي حية النميري:

إن القصائد قد علمنَ بأنني صنع اللسانِ بهنّ لا أتنحل"

ونقله إلىٰ الضمير"(٤).

---

(١). الموازنة (١/ ٧٢) .

(٢). الموازنة (٦٢/١).

(٣). شرح الصولي: (١٠/٢).

(٤). عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، ط/٣ مطبعة المدني بالقاهرة ١٩٩٢، (٥١٥/٢).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقوله كذلك :

قبيلٌ وأهلٌ لم ألاق مشوقهم لوشك النوىٰ إلا فُواقا كلا ولا

قال المرزوقي: "فأما الطائي فإنما أخذه من قول جرير، وهو يصف مفازه:

يكون نزول الركب فيها كلا ولا غشاشاً ولا يدنون رحلاً إلىٰ رحل(١)

وقوله كذلك:

حُذيتْ حذاءَ الحضرمية أرهفت وأجادها التخصير والتلسين

قال المرزوقي:" إنما ألمّ في سلوكه في وصف الكلام بقول أبي العيال الهذلي، لما خاطب بدر بن عامر يستحثه في مناقضته، فقال:

قرب حذاءك قاحلاً أو لينا فتمنَّ في التخصير والتلسين"(٢)

وقد يتجلىٰ تأثره بالشعراء السابقين في روايته لأشعارهم، أو التمثل والاستشهاد ببعض أبياتهم علىٰ الرغم من قدرته علىٰ الإتيان بالعجائب من الحكم والأمثال من شعره ، فعن أحمد بن عبد الله طِماس قال: كنت عند عمي إبراهيم بن العباس، فدخل عليه رجل فرفعه حتىٰ جلس إلىٰ جانبه أو قريباً، ثم حادثه إلىٰ أن قال له: يا أبا تمام، ومن بقي ممن يعتصم به ويلجأ إليه؟ فقال: أنت فلا عدمت، قال: وكان إبراهيم تاماً فأنشده:

يَمُدُّ نِجادَ السَّيفِ حَتىٰ كأَنَّهُ بأَعْلَىٰ سَنَامَيْ فَالِجٍ يتَطَوَّحُ

وَيُدْلِجُ في حاجَاتِ مَنْ هُو نَائمٌ وَيُورِي كَرِيَماتِ النَّدَىٰ حِينَ يَقْدَح

إذَا اعْتَمَّ بالبُرْدِ اليَمَانِيِّ خِلْتَهْ هِلاَلاً بدَا في جَانِبِ الأُفْقِ يَلْمَحُ

يَزِيدُ عَلَىٰ فَضْلِ الرِّجالِ فَضِيلَةً وَيَقْصُرُ عَنْهُ مَدْحُ مَنْ يَتَمَدَّحُ

فقال له: أنت تحسن قائلاً وراوياً ومتمثلاً، فلما خرج تبعته، فقلت: أملّ عليَّ هذه الأبيات، فقال: هي لأبي الجويرية العبدي يقولها للجنيد بن عبد الرحمن فأخرجتها من شعره(٣).

******

(ب) ـ علاقته بالشعراء المعاصرين له.

---

(١) ـ المرزوقي: شرح مشكلات ديوان أبي تمام تحقيق: د. عبد الله سليمان الجربوع، ط/١ مكتبة التراث بمكة المكرمة،١٩٨٦م، ص ٧٧.

(٢) ـ المرجع السابق، ص ١٩٠ ـ ١٩١.

(٣) ـ أخبار أبي تمام ، ص ٢٧٠ ـ ٢٧١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كان أبو تمام رجلاً اجتماعياً وفياً ودوداً يألف ويؤلف علىٰ الرغم من تفرده وتميزه عن أقرانه بصفات وقدرات تجعل من يتميز بها ـ إن لم يكن علىٰ قدر كبير من الأخلاق والتدين ـ يتعالىٰ علىٰ من هم دونه رتبة ومنزلة وموهبة، ولهذا أحبه كل من رآه أو تعامل معه من قريب أو بعيد، لقد كان مخلصاً في أخوته وصداقته، لا يحمل في قلبه موجدة ولا ضغينة علىٰ أحد ممن عرفهم أو ممن يعرفونه.

لم يستخدم جاهه ولا مكانته عند الأمراء والخلفاء في إيذاء أحد ممن تطاولوا عليه كدعبل ابن علي، أو مخلد بن بكار الموصلي، أو عبد الصمد بن المعذل، أو غيرهم من الشعراء الذين امتلأت نفوسهم غيظاً وغيرة وحسداً، فجعلوا يتقولون عليه ، ويضعون الأكاذيب والافتراءات ، ويطعنون في نسبه و شعره، وأخلاقه وإيمانه ،حتىٰ لقد أضحىٰ أبو تمام شغلهم الشاغل، وبات همهم الذي يقض مضجعهم بين الحين والآخر.

إن صفة الوفاء من أهم الصفات التي تميز بها أبو تمام طوال حياته، ومن ثم كان أكثر قدرة علىٰ وصف عاطفة الصداقة والتغني بها في شعره عن وصف عاطفة الحب أو ما يعرف بالغزل ؛ فقد كان أبو تمام "بسمته الرزين، ونظرته الهادئة، ومنطقه المتئد، ونفسه السمحة الكريمة، وحسه المرهف، أقدر علىٰ وصف عاطفة الصداقة وأعرف بها، فالحب عاطفة ثائرة غلابة لا يحتملها طبعه الهادئ، ونفسه المطبوعة علىٰ التفكير والتروية ، وقد وصف الفيلسوف الألماني القدير إدوارد فون هارتمان في كتابه القيم (فلسفة اللاوعي) الفرق بين الحب والصداقة فقال: "الصديقان الحميمان مثل الحبيبين لا يستطيع أحدهما أن يعيش في غيبة الآخر وكلاهما يقوم بتضحيات من أجل الآخر، ولكن ما أبعد البون بين الحب والصداقة، فالصداقة مثل أمسية من أماسي الخريف هادئة الألوان، والحب كعاصفة هوجاء من عواصف الربيع الثائرة الرهيبة، والصداقة مرحة طروب، والحب صخب مثير للزوابع مثل المردة، والصداقة واثقة بنفسها راضية قانعة، والحب يعاني الألم بين الأمل واليأس، والصداقة تعرف حدودها، والحب نزاع إلىٰ اللانهاية، يسمو به الأمل إلىٰ سمائه المنيرة ، ويهبط به اليأس إلىٰ قرارته المظلمة، والصداقة توازن وتجاوب صافٍ رائق، والحب صليل وحفيف غامض مبهم لا يدركه الوعي، والصداقة معبد مشرق الجنبات، والحب محفوف بالألغاز وغوامض الأسرار..."

وعند هارتمان أن الصداقة تستمد قوتها من العقل الواعي، أما الحب فمصدر قوته ما وراء الوعي، والوعي واليقظة والإمعان ـ أحياناً ـ في التكلف والتحامل علىٰ النفس هي الصفات البارزة في شعر أبي تمام، وليس غريباً بعد ذلك أن يكون هذا الرجل أقدر علىٰ وصف عاطفة الصداقة الهادئة الملائمة لطبعه ومزاجه منه علىٰ وصف الحب وثوراته العاصفة ونيرانه اللافحة ، وقد نرىٰ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مصداق ذلك في هذه الأبيات البليغة المؤثرة التي ودع بها صديقه الشاعر المعروف علي بن الجهم لما أراد السفر :

هي فرقة من صاحبٍ لك ماجدٍ فغدا إذابة كل دمع جامد

فافزع إلىٰ ذخر الشؤون وعذبه فالدمع يذهب بعض جهد الجاهد

وإذا فقدت أخا فلم تفقد له دمعاً ولا صبراً فلست بفاقد

أعلي يا ابن الجهم إنك دفت لي سما وجمراً في الزلال البارد

لا تهلكن أبداً ولا تبعد فما أخلاقك الخضر الربىٰ بأباعد

إن يكد مطرف الإخاء فإننا نغدو ونسري في إخاء تالدِ

أو يختلف ماء الوصال فماؤنا عذب تحدّر من غمام واحدِ

أو يفترق نسبٌ يؤلف بيننا أدبٌ أقمناه مقام الوالدِ

ما أدّعي لك جانباً من سؤددٍ إلا وأنت عليه أعدل شاهد

وكان أبو تمام يلوم نفسه ويعنفها إذا خطر له أن يلهو بمتعة يستأثر بها دون أصدقائه الذين ألف صحبتهم وحمد معاشرتهم ، وقد وصف شعوره هذا في قوله :

طوتني المنايا يوم ألهو بلذة وقد غاب عني أحمد ومحمدُ

وإن تخلو دوني بأنس ولذة فإني بطول الشوق والبث مفرد

وقد صور لنا أبو تمام مثلاً أعلىٰ للصديق في قوله:

من لي بإنسان إذا أغضبته وجهلت كان الحلم رد جوابه

وإذا طربت إلىٰ المدام شربت من أخلاقه وسكرت من آدابه

وتراه يصغي للحديث بقلبه وبسمعه ولعله أدرىٰ به

ويروىٰ أن الخليفة المأمون لما سمع هذه الأبيات قال إنه يرضىٰ أن يقاسمه مثل هذا الصديق ملكه ونفوذه.

وكان أبو تمام لا يضن علىٰ أصدقائه بالاستفادة من جاهه ومكانته في نفوس أعيان الأمة ودعائم الدولة ، وقد انتهز فرصة مدحه لسليمان بن وهب ليشفع في رجل من أصدقائه ويزكيه ويشيد بفضله، وقد أشار إلىٰ ذلك في أبيات تدل علىٰ ما كانت تفيض به نفسه من العطف علىٰ أصدقائه ومناصرتهم والوفاء لهم ، ويقول فيها مخاطباً ممدوحه :

ذو الود مني وذو القربىٰ بمنزلة وإخوتي أسوة عندي وإخواني

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

إلىٰ قوله:

ورب نائي المغاني روحه أبداً لصيق روحي ودانٍ ليس بالداني

والصديق في رأي أبي تمام شيء كبير القيمة عظيم النفاسة ، ننعم في ظلال مودته السابغة ونسير في ضوء آرائه الثاقبة ، وقد عبر عن ذلك في الأبيات التي خاطب بها صديقه إسحاق بن أبي ربعي:

يا عصمتي ومعولي وثمالي بل يا جنوبي غضة وشمالي

بل لأُمتي ألقىٰ بها حد القنا بل كوكبي أسري به وهلالي

إني أعدك معقلاً ما مثله كهفٌ ولا جبلٌ من الأجبالِ

وأرىٰ كتابك بالسلامة مغنياً عن كتب غيرك باللهىٰ والمالِ

وكانت في أبي تمام ناحية إنسانية ملحوظة ودماثة في الأخلاق، ورقة في الطباع ، يسرت له أن يكون صديقاً وفياً، وخلاً محبوباً، ولذا أجاد في هذا الباب الذي يسميه نقاد العرب (الإخوانيات)(١).

ويروي لنا الصولي في كتابه "أخبار أبي تمام" بداية تعرف مجموعة من الشعراء علىٰ أبي تمام وكيف توطدت علاقتهم به، فيروي عن علي بن الجهم قوله: "كان الشعراء يجتمعون في كل جمعة في القبة المعروفة بهم بجامع بغداد ، ينشدون الشعر ويعرض كل منهم علىٰ أصحابه ما يكون قد نظمه بعد مفارقتهم في الجمعة التي قبلها، فبينا أنا في جمعة من تلك الجمع ودعبل ، وابن أبي الشيص وابن أبي فنن ، والناس مجتمعون يسمعون إنشاد بعضنا بعضاً ، أبصرت شاباً في أخريات الناس جالساً في زي الأعراب وهيئتهم ، فلما فرغ كل منا وقطع إنشاده، التفت الشاب إلينا وقال: قد سمعت إنشادكم منذ اليوم فاسمعوا إنشادي ، فقلنا: هات، فأنشد:

فَحْوَاكَ عَيْنٌ علىٰ نجواكَ يا مَذِلُ حتام لا يتقضىٰ قولك الخطل

فإن أسمج من يشكو إليه هوىٰ من كان أحسن شيء عنده العذل

ما أقبلت أوجه اللذات سافرة مذ أدبرت باللوىٰ أيامنا الأول

إن شئت أن لا ترىٰ صبرا لمصطبر فانظر علىٰ أي حال أصبح الطلل

كأنما جاد معناه فغيره دموعنا يوم بانوا فهي تنهمل

ولو ترانا وإياهم وموقفنا في موقف البين لاستهلالنا زجل

---

(١) . علي أدهم: على هامش الأدب والنقد، ص ١١٤ . ١١٩ . باختصار.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

من حرقة أطلقتها فرقة أسرت قلبا ومن عذل في نحره عذل

وقد طوىٰ الشوق في أحشائنا بقر عين طوتهن في أحشائها الكلل

ثم مر فيها حتىٰ انتهىٰ إلىٰ قوله في مدح المعتصم:

تغاير الشعر فيه إذ سهرت له حتىٰ ظننت قوافيه ستقتتل

قال فعقد أبو الشيص عند هذا البيت خنصره ثم مر فيها إلىٰ آخرها فقلنا زدنا فأنشدنا:

دمن ألم بها فقال سلام كم حل عقدة صبره الإلمام

ثم أنشدها إلىٰ آخرها وهو يمدح فيها المأمون فاستزدناه فأنشدنا قصيدته التي أولها

قدك اتئب أربيت في الغلواء كم تعذلون وأنتم سجرائي

حتىٰ انتهىٰ إلىٰ آخرها فقلنا له لمن هذا الشعر؟ قال لمن أنشدكموه ، قلنا: ومن تكون؟ قال أنا أبو تمام حبيب بن أوس الطائي ، فقال له أبو الشيص تزعم أن هذا الشعر لك ، وتقول:

تغاير الشعر فيه إذ سهرت له حتىٰ ظننت قوافيه ستقتتل

قال نعم لأني سهرت في مدح ملك ، ولم أسهر في مدح سوقة، فرفعناه حتىٰ صار معنا في موضعنا ، ولم نزل نتهاداه بيننا ، وجعلناه كأحدنا ، واشتد إعجابنا به لدماثة أخلاقه، وفصاحة منطقه، وظرفه، وكرمه، وحسن طبعه، وجودة شعره، وكان ذلك اليوم أول يوم عرفناه فيه ثم تراقت حاله حتىٰ كان من أمره ما كان"(١).

ومنذ ذلك الاجتماع انعقدت أواصر الصداقة والمحبة بين علي بن الجهم وبين أبي تمام الطائي، وأعجب كل بصاحبه ، وأعرب له بشعره، عما يكنّه له من الود، وبقيا متحابين حتىٰ فرق بينهما الموت.

إن أبا تمام يؤكد هذه الصداقة في أبيات وجّهها لعليّ بن الجهم الشاعر وكان من أقرب أصدقائه إلىٰ قلبه:

إن يُكد ، مطّرف الإخاء فإننا نغدو ونسري في إخاء تالد

أو يختلف ماء الوصال فماؤنا عذب تحدّر من غمام واحد

أو يفترق نسب ، يؤلّف بيننا أدب أقمناه مقام الوالد

---

(١) . علي بن الحسن المعروف بابن عساكر: تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٥ م، (١٢ / ٢٠ . ٢١).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كانت هذه معايير أبي تمام في علاقاته بالناس، وهي معايير راقية صاغها في أبيات رقيقة بهيجة صارت فيما بعد دستوراً لرابطة الأدباء بعضهم ببعض، ربما ظن بعض الناس أن مثل هذه المعاني هروب من رباط الشاعر بقبيلته، ذلك الرباط الذي شك بعض الناس في مبلغ ثقته ومتانته الأمر الذي دفع ببعض شانئيه إلىٰ أن يطعنوا في صحّة نسبه العربي الطائي(١).

ويحكي البحتري عن أول علاقة تربطه بأستاذه أبي تمام فيقول: كان أول أمري في الشعر ونباهتي أني صرت إلىٰ أبي تمام وهو بحمص فعرضت عليه شعري ، وكان الشعراء يعرضون أشعارهم ، فأقبل عليّ وترك سائر من حضر ، فلما تفرقوا قال: أنت أشعر من أنشدني، فكيف حالك؟ فشكوت إليه خَلة ، فكتب إلىٰ أهل معرة النعمان وشهد لي بالحذق في الشعر ، وقال امتدحهم، فصرت إليهم فأكرموني بكتابه، ووظفوا لي أربعة آلاف درهم فكانت أول مال أصبته(٢).

وكانت تربط أبا تمام بأبي العميثل(٣) شاعر عبد الله بن طاهر صداقة قوية ، ويروي الصولي أنه لما قدم أبو تمام علىٰ عبد الله بن طاهر أمر له بشيءٍ لم يرضه ففرقه، فغضب عليه لاستقلاله ما أعطاه، وتفريقه إياه، فشكا أبو تمام ذلك إلىٰ أبي العميثل شاعر آل طاهر، وأخص الناس بهم، فدخل علىٰ عبد الله بن طاهر فقال له: أيها الأمير، أتغضب علىٰ من حمل إليك أمله من العراق، وكد فيك جسمه وفكره، ومن يقول فيك:

يقُولُ في قُومَسٍ صَحْبي وَقدْ أَخَذَتْ مِنَّا السُّرَىٰ وخُطَىٰ المَهْرِيَّةِ القُودِ
أَمَطْلِعَ الشّمْسِ تَنْوِي أَنْ تَؤُمَّ بنَا؟ فَقُلتُ: كلاّ، ولكنْ مَطْلِعَ الجُودِ

قال: فدعا به ونادمه يومه ذلك، وخلع عليه، ووهب له ألف دينار وخاتما كان في يده له قدر(٤).

وذات مرة استبطأ أبو تمام صلة عبد الله بن طاهر، فكتب إلىٰ صديقه أبي العميثل شاعر عبد الله، وكان دفع إليه رقعةً ليوصلها إلىٰ عبد الله:

لَيْتَ الظِّبَاءَ أَبَا العَمَيْثَلِ خَبَّرَتْ خَبَراً يُرَوِّىٰ صَادِيَاتِ الْهَامِ

---

(١) . د. مصطفى الشكعة : الشعر والشعراء في العصر العباسي، ص ٦٣٣.

(٢) . يوسف البديعي: هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام ،تعليق وشرح : محمود مصطفى مطبعة العلوم بالسيدة زينب، القاهرة ١٩٣٤م، ص ١٣.

(٣) . هو عبد الله بن خليد مولى جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس، ويقال أصله من الري، كان كاتب عبد الله بن طاهر وشاعره منقطعاً إليه، وكاتب أبيه طاهر من قبله، وكان مكثراً من نقل اللغة عارفاً بها شاعراً مجيداً ، توفي ٢٤٠هـ ، انظر: هبة الأيام ١٣٩، سمط اللآلي ٣٠٨.

(٤) . أخبار أبي تمام ، ص ٢١٢.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إِنّ الأَمِيرَ إذا الحَوَادِثُ أَظْلَمَتْ نُورُ الزَّمَانِ وَحِليَةُ الإِسْلاَمِ
واللهِ مَـا يَـدْرِي بِأَيَّةِ حَالَةٍ يُثْنِي مُجَـاوِرُهُ عَلَىٰ الأَيَّـامِ
أَلِمَا يُجَامِعُهُ لَدَيْهِ مِنَ الْغِنَىٰ أَمْ مَا يُفَارِقُهُ مِنَ الإِعْدَامِ؟
وَأَرَىٰ الصَّحِيفَةَ قَدْ عَلَتْهَا فَتْرَةٌ فَتَرَتْ لَهَا الأَرْوَاحُ في الأَجْسَامِ
إِنَّ الجِيَاد إذا عَلَتْهَا صَنْعَـةٌ رَاقَتْ ذَوِي الآدَابِ وَالأَفْهَـامِ
لِتَزَيُّدِ الأَبصَارِ فِيهَا فُسْحَةٌ وَتَـأَمُّلٌ بإِشَـارَةِ القُـوَّامِ
لَوْلاَ الأَمِيرُ وَأَنَّ حَاكِمَ رَأْيِهِ في الشِّعْرِ أَصْبَحَ أَعْدَلَ الحُكّامِ
لَتَكِلْتُ آمَالِي لَـدَيْهِ بأَسْـرهَا ولكَانَ إِنْشَادِي خَفِـير كلاَمي
وَلَخِفْتُ في تَفَرِيقِهِ مَا بَيْنَنَا مَا قِيلَ في عَمْرٍو وفِي الصَّمْصَامِ

فكتب إليه أبو العميثل:

أَفْهَـمْتَنَا فَنَقَعْتَ بِالإِفْـهامِ فَاسْمَعْ جَوَابَكَ يَا أَبَا تَمـامِ
إِنّ الظِّبَـاءَ سَنِيحُـهَا كبَرِيحهَا في جَهْـلِهَا بِتَصَـرُّفِ الأقوَامِ
جَفَّـتْ بِأَيَّامِ الفَتَىٰ وَبِرِزْقِهِ في اللَّوْحِ قَبْلُ سَـوَابِقُ الأَقْلاَمِ
قَدْ كُنْتُ حَاضِرَ كُلِّ مَا حَبَّرْتَهُ مِنْ مَنْطِقٍ مُسْتَحْكَمِ الإِبْرَامِ
فِيهِ لَطَائِفُ مِنْ قَـرِيضٍ مُونِقٍ نَطَقَتْ بِذَلِكَ أَلْسُنُ الْحُكَّامِ
مُلْسُ المتُونِ لَدىٰ السَّماعِ كأَنَّهَا لَمْسـاً ومَنْظَرَةً مُتُونُ سِلاَمِ
وَشَهِـدْتُ مَا قَالَ الأميرُ بِعَقْبِهِ مِنْ أَنَّهُ عَسَـلٌ بِمَـاءِ غَمَـامِ
وشَهِدْتُ أَجْمَلَ محضَرٍ من مَعْشَرٍ مَنَحُوا كريمَ القَوْلِ نَجْلَ كِرَامِ
فَعَلَيْكَ مَحْـمُودَ الأَنَاءَةِ، إِنَّهَـا وَالنُّجْحَ في قَـرَنٍ علىٰ الأَيَّامِ
وَذَكَـرْتَ عَمْـراً قَبْلَنَا وَفِرَاقَهُ صَمْصَـامةَ النَّجَدَاتِ وَالإِقْدَامِ
وَاللهُ يَنْظِـمُنَا بِعِـزِّ أَمِـيرِنَـا وَطَـوَالِ مُدَّتِهِ أَتَمَّ نِظَـامِ(١)

******

(ج) ـ تأثر الشعراء المعاصرين واللاحقين به.

(١) . أخبار أبي تمام ، ص ٢٢٣ . ٢٢٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

تأثر بأبي تمام شعراء كثيرون علىٰ مر العصور، وعلىٰ اختلاف الأماكن والبيئات، ولعل البحتري كان أكثرهم تأثراً بأبي تمام لدرجة أنه قيل له يوماً: الناس يزعمون أنك أشعر من أَبِي تمام فَقَالَ: وَالله ما ينفعني هذا القول وَلا يضير أبا تمام، وَالله ما أكلت الخبز إِلا به، وَلوددت أن الأمر كما قالوا، وَلكني وَالله تابع له، لائذ به، آخذ منه، نسيمي يركد عند هوائه، وَأرضي تنخفض عند سمائه"(١).

وهذه حقيقة لا مراء فيها ؛ فقد كان أبو عبادة البحتري يتشبه بأبي تمام ويحذو مذهبه، وينحو نحوه في البديع الذي كان أبو تمام يستعمله، ويراه صاحباً وإماماً ويقدمه علىٰ نفسه.

قال البحتري: أول ما رأيت أبا تمام أني دخلت علىٰ أبي سعيد محمد بن يوسف بالقصيدة التي أولها:

(أأفاق صب من هوىٰ فأفيقا أَو خانَ عهدا أَو أطَاع شفيقَا)

وعدة أبياتها ثلاثة وسبعون بيتاً ، فسُرَّ أبو سعيد ، وقال : أحسنت والله يا فتىٰ ، وكان في مجلسه رجل نبيل رفيع المجلس منه فوق كل من حضر، يكاد يمس ركبته، فأقبل عليَّ وقال: يا فتىٰ أما تستحي ؟! هذا شعري تنتحله، وتنشده بحضرتي، فقال أبو سعيد: أحقاً تقول؟ قال: نعم ، وإنما علقه مني فسبقني به إليك، ثم اندفع فأنشد القصيدة حتىٰ شككني (علم الله) في نفسي ، وبقيت متحيراً ، فأقبل عليّ أبو سعيد وقال: يا فتي لقد كان في قرابتك منا وودك لنا ما يغنيك عن هذا ، فجعلت أحلف بكل محرجة من الأيمان أن الشعر لي ما سبقني إليه أحد ، ولا سمعته، ولا انتحلته، فلم ينفع ذلك شيئاً، وأطرق أبو سعيد وقطع الكلام حتىٰ تمنيت أني سخت في الأرض فقمت منكسر البال أجرّ رجليّ، فخرجت فما هو إلا أن بلغت باب الدار ، حتىٰ خرج الغلمان إليّ فردوني ، فأقبل عليّ الرجل، وقال: الشعر لك يا بني ، والله ما قلته قط، ولا سمعت به إلا منك، ولكن ظننت أنك تهاونت بموضعي فأقدمت علىٰ الإنشاد بحضرتي من غير معرفة كانت بيننا تريد بذلك مضاهاتي ومكاثرتي حتىٰ عرّفني الأمير نسبك وموضعك ولوددت ألا تلد طائية إلا مثلك ، وجعل أبو سعيد يضحك ، فدعاني أبو تمام فضمني إليه وعانقني وأقبل يقرظني ، ولزمته بعد ذلك وأخذت عنه واقتديت به"(٢)، فهذه الرواية تؤكد أن البحتري قد لقي أبا تمام عند محمد بن يوسف الثغري ، بعد طول انقطاع بينهما نتيجة كثرة ترحال أبي تمام ، وقد غيّر الزمن وكثرة الأسفار، وطول التفكر والتبصّر والتأمل من ملامح أبي تمام حتىٰ اشتعل رأسه شيباً وهو لا يزال في عقده الثالث، فظن البحتري أنه لا يعرفه، مع أنهما التقيا قبل ذلك حينما كتب أبو تمام لأهل معرة النعمان يوصيهم بالبحتري، فكان أول مال يصيبه البحتري، وبعد هذا اللقاء الذي تم عند أبي سعيد محمد بن يوسف

(١) . الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، مرجع سابق، (١٥٧/٩) .

(٢) . هبة الأيام ، ص ١٣ . ١٤. ، معاهد التنصيص (١/ ٢٣٦).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الثغري توطدت العلاقة بينهما، وراح أبو تمام يقدم النصائح لتلميذه، وهي نصائح مرتجلة لكنها تحتوي علىٰ خلاصة تجاربه.

قال البحتري: كنت في حداثتي أروم الشّعر، وكنت أرجع فيه إلىٰ طبع، ولم أكن أقف علىٰ تسهيل مأخذه، ووجوه اقتضابه، حتىٰ قصدت أبا تمام، وانقطعت فيه إليه، واتّكلت في تعريفه عليه؛ فكان أول ما قال لي: يا أبا عبادة؛ تخيّر الأوقات وأنت قليل الهموم، صفر من الغموم، واعلم أن العادة جرت في الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شيء أو حفظه في وقت السّحر؛ وذلك أن النّفس قد أخذت حظّها من الراحة، وقسطها من النوم، وإن أردت التشبيب فاجعل اللفظ رشيقا، والمعنىٰ رقيقا، وأكثر فيه من بيان الصّبابة، وتوجّع الكآبة، وقلق الأشواق، ولوعة الفراق، فإذا أخذت في مديح سيّد ذي أياد فأشهر مناقبه، وأظهر مناسبه، وأبن معالمه، وشرف مقامه، ونضدّ المعاني، واحذر المجهول منها، وإيّاك أن تشين شعرك بالألفاظ الرديئة، ولتكن كأنك خيّاط يقطع الثياب علىٰ مقادير الأجساد، وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك، ولا تعمل شعرك إلّا وأنت فارغ القلب، واجعل شهوتك لقول الشعر الذّريعة إلىٰ حسن نظمه ؛ فإن الشهوة نعم المعين، وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين، فما استحسن العلماء فاقصده، وما تركوه فاجتنبه، ترشد إن شاء الله، قال: فأعلمت نفسي فيما قال فوقفت علىٰ السياسة(١).

فهذه النصيحة موجهة من أستاذ إلىٰ تلميذه، يضع فيها خلاصة تجاربه في الأدب والشعر، وجدير بالذكر أن هذه النصيحة قد تعرضت لهجوم من قبل المتعصبين علىٰ أبي تمام، بل إن بعض الباحثين المعاصرين أنكر نسبتها إلىٰ أبي تمام، يقول د. خليفة الوقيان: " أما وصية أبي تمام للبحتري، فقد اتخذ منها الباحثون أقوىٰ دليل علىٰ أن أبا تمام كان أستاذاً تعهد تلميذه الناشئ بالتوجيه والرعاية، وعلمه كيف يتقن النظم، ويحذق صناعته، وتقول الوصية..."(٢).

وتعقب الوقيان عرض الوصية بقوله: " وبعدُ فهل يصح أن يستدل من نص هذه الوصية أنها كانت المنهاج الذي وجه البحتري الوجهة التي ارتضاها له أستاذه، وأن أبا تمام اكتسب صفة الأستاذية بفضل هذه التوجيهات، وأن البحتري كان يجهل مقومات النظم حتىٰ تفضّل عليه أبو تمام برسم الأسس السليمة لصفة الشعر، يبدو أن الأمر لم يكن كذلك؛ فالوصية في معظم فقراتها لا تتغلغل في أسرار صناعة الشعر، بل تحوم حول الموضوع من الخارج، فهي تتعرض لاختيار أوقات النظم...ولعل أقرب نصائحه اتصالاً بالنظم قوله: فإن أردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقاً... وهذه

---

(١) . إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري، أبو إسحاق الحُصري: زهر الآداب وثمر الألباب، دار الجيل، بيروت، (١/ ١٥٢ . ١٥٣)، وانظر: ابن حجة الحموي: خزانة الأدب وغاية الأرب، تحقيق: عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال-بيروت ٢٠٠٤م (٢ /٣٢).

(٢) . د. خليفة الوقيان: شعر البحتري دراسة فنية، ط/١ المؤسسة العربية للدراسات، بيروت ١٩٨٥م، ص ٢٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

النصائح المتصلة بالنظم لا تأتي بجديد، وليس يجدر أن يتصور جهل البحتري بها، إذ كيف يتصدّىٰ شاعر لمدح سيد ذي أيادٍ دون أن يشهر مناقبه؟! وكيف يعرض للنسيب دون انتقاء اللفظ الرقيق، والمعنىٰ الرشيق"(١).

بعد أن عرض ما تقدم توهم أنه لم يقنع متلقيه بحقيقة موقفه من النص، فقال مصرحاً: "ويبقىٰ بعدئذٍ أن نناقش مدىٰ صحة صدور هذه الوصية عن أبي تمام، ذلك أن مثل هذا النص لا يجوز أن يصدر عنه؛ لأنه مخالف لمذهبه في النظم، وإذا ما كان أبو تمام مقتنعاً بالآراء الواردة في الوصية فقد كان الأجدر به أن يلتزم بها ويطبقها علىٰ نفسه"(٢).

وقال أيضاً: "ويبدو أن هذه الوصية كانت مفصلة علىٰ مذهب البحتري في النظم، فضلاً عن كونها لم ترد في أهم مصدرين عرضا لحياته، وهما أخبار البحتري لأبي بكر الصولي، والموازنة للآمدي"(٣).

ورد عليه د.عبد الكريم محمد حسين الذي وثّق الوصية من خلال ستة مصادر وردت فيها الوصية،ثم أكد أن البحتري عاصر أبا تمام ما يقارب ربع قرن من الزمان أو بمعنىٰ أدق ما يربو علىٰ عشرين عاماً ، وحيث إنهما من قبيلة واحدة هي قبيلة طيىء فلابد أنهما قد التقيا أكثر من مرة ، وهذا ما أكده كتاب الأغاني، وغيره من الكتب التي ذكرت الوصية، كما أكد أن البحتري قد تعلم وأخذ الكثير من أبي تمام، ثم يعقب بقوله: "أود لو أن الوقيان تبصّر قليلاً في أمره، وقال ما قاله باحث جاد (د. محمود الربداوي) تناول أبا تمام بدقة وموضوعية، وعرض للوصية، وفكرة التلمذة بقوله: (وإذا تركنا عمارة بن عقيل، ووصلنا إلىٰ البحتري نكون قد التقينا بأكثر الشعراء صلة بأبي تمام، وبتلميذه الذي تتلمذ علىٰ فنه، وهو علىٰ الرغم من أنه لم يشاركه في فنه تمام المشاركة إلا أنه أخذ بوصية أستاذه، وطبقها علىٰ حين لم يستطع أستاذه نفسه تطبيقها، وهذا التفاوت بين مذهب الأستاذ والتلميذ مثار حركة نقدية جدية)(٤).

يقول د. عبد الكريم: "فالوصية ليست موضع شك، والتلمذة ثابتة، واقتدار التلميذ علىٰ تمثلها في شعره هو الذي دعا كتابها ورواتها للقول علىٰ لسان البحتري: فأعملت نفسي فيما قال فوقفت علىٰ السياسة ، أي سياسة الشعر.

---

(١) . شعر البحتري ، ص ٢٩.

(٢) . شعر البحتري، ص ٣٠.

(٣) . المرجع نفسه.

(٤) . د. محمود الربداوي: الحركة النقدية حول مذهب أبي تمام (تاريخها، وأثرها في النقد العربي) دار الفكر ١٩٦٧م، ص٧٠.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

"مما تقدم يتبين أن الوقيان لم يكن راضياً بقبول نسبة الأستاذية لأبي تمام علىٰ البحتري ، انطلاقاً من رؤية جاهزة في عقله الباطن بمفهوم الند والمساوي والنظير بين البحتري وأبي تمام، مما تتركه أصداء الدراسات التي توازن بين مذهبي الشاعرين في الطبع والصنعة، وليس بين زمن كل منهما وسنه، علىٰ أنه لا يرىٰ البحتري شاعراً مطبوعاً، وليذهب نقادنا القدامىٰ ، ومن وافقهم من أهل العلم إلىٰ أودية الخلط والهذيان..

"والوصية عند الوقيان لا تتغلغل في أسرار صناعة الشعر بل تحوم حول الموضوع من الخارج، مما يجعل موضوعاتها غير لائقة بأستاذ كأبي تمام، ولا جديرة بطالب شاعر كالبحتري.

أما جدارة البحتري بها فمتعلقة بسنه ودربته أو تجربته الفنية في ذلك الزمن، وأما أنها لا تتغلغل في صناعة الشعر فقياس الوقيان غير سليم؛ ذلك أن أبا تمام يراعي حال تلميذه وسنه، وقدرته علىٰ الاستيعاب، ومتىٰ كان الأساتذة يلقنون الطلبة أسرار الصناعة العميقة التي يدركها الشيوخ؟ وهل كانوا يلقنونهم أكثر من مفاتيح العلم؟(١)

وراح الباحث يفند كل نقطة من نقاط الوقيان ، ويرد عليها بالأدلة الدامغة ، لا رغبة في الجدال والمراء بل رغبة في إحقاق الحق ودفع الباطل وتبيين الصواب.

والأدلة علىٰ أستاذية أبي تمام لكثير من الشعراء وخاصة البحتري كثيرة منها: ما رواه الصولي عن عبد الله بن الحسين قال: "قلت للبحتري: إنك احتذيت في شعرك أبا تمام وعملت كما عمل من المعنىٰ، وقد عاب هذا عليك قوم، فقال لي: أيعاب علىٰ أن أتبع أبا تمام، وما عملت بيتاً قط حتىٰ أخطر شعره ببالي؟ ولكنني أسقط بيت الهجاء من شعري"(٢).

يقول البهبيتي : "ومذهب البحتري في وصف الطبيعة امتداد مستفيض لمذهب أبي تمام في ذلك علىٰ فارق بين الاثنين يأتي من ناحية اعتماد أبي تمام علىٰ عقله، ونظره في الأشياء، أكثر من اعتماده علىٰ خياله، علىٰ حين يقوم فنّ البحتري علىٰ نصيب من الخيال أوفر من نصيبه من العقل: فتتقدم الألوان، والأضواء قوية ساطعة، تلوح من ورائها الفكرة خافتة، بعض الخفوت"(٣).

---

(١) . د. عبد الكريم محمد حسين: وصية أبي تمام للبحتري الإسناد والتوثيق، بحث منشور بمجلة جامعة دمشق، مجلد ١٩. العدد (٣ ، ٤) ٢٠٠٣م، ص٣٧ . ٣٨.

(٢) . أخبار أبي تمام ص ٧٠.

(٣) . تاريخ الشعر العربي، ص ٥٠٧.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقال الصولي: "ومن تبحر شعر أبي تمام وجد كل محسنٍ بعده لائذاً به، كما أن كل محسنٍ بعد بشارٍ لائذ ببشار، ومنتسب إليه من أكثر إحسانه"(١)، ثم ساق الصولي جملةً من الأبيات التي تأثر فيها البحتري بأبي تمام من مثل قول أبي تمام:

فَسَواءٌ إِجَابَتِي غَيْرَ دَاعٍ وَدُعَائي بالقَاعِ غَيْرَ مُجيبِ

فقال البحتري نسخاً له:

وسأَلْتَ مَنْ لا يستجيبُ فكنتَ في اسـ ـتِخْبارِهِ كمجيبِ مَنْ لا يَسْأَلُ

وقال أبو تمام:

إذا القصائدُ كانتْ مِن مدائِحِهِمْ يوماً فأَنْتَ لَعَمْرِي من مدائِحها

فقال البحتري:

ومَنْ يَكنْ فاخِراً بِالشعرِ يُذكر في أَصنافِهِ فَبِكَ الأَشْعارُ تَفتخِر

وقال أبو تمام:

وإذا أرادَ اللهُ نَشْرَ فَضيلةٍ طُويتْ أَتاحَ لها لِسَانَ حَسُودِ

فقال البحتري:

ولنْ تَسْتبينَ الدهرَ مَوْضعَ نِعْمةٍ إذا أنت لم تُدْلَلْ عليها بحَاسِدِ

وقال أبو تمام:

أَوْ يَخْتَلِفْ مَاءُ الوِصَالِ فَماؤُنَا عَذْبٌ تَحَدَّرَ مِنْ غَمامٍ وَاحِدِ

وإنما أخذه أبو تمام من قول الفرزدق:

يا بشْرُ أَنْتَ فَتَىٰ قريشٍ كُلِّها رِيشِي وريشُكَ من جناحٍ واحِدِ

فقال البحتري:

وَأَقَلُّ ما بيْني وبينَكَ أَننا نَرْمِي القبائلَ عَنْ قَبيلٍ واحدِ

وقال أبو تمام:

ونَغْمَةُ مُعْتَفِي جدْوَاهُ أَحْلَىٰ علىٰ أُذُنيْهِ مِنْ نَغَمِ السَّماعِ

فقال البحتري:

---

(١). أخبار أبي تمام ص ٧٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

نَشْوانُ يطَربُ للسؤَالِ كأنما غَنَّاهُ مالكُ طيبِ أوْ معبدُ

فأما الذي نقله البحتري نقلاً، فأخذ اللفظ والمعنىٰ، فقول أبي تمام يصف شعره:

مُنزَّهَةٌ عن السَّرَقِ الموَرَّي مكرَّمةٌ عن المعْنَىٰ المُعادِ

فقال البحتري يصف بلاغةً:

لا يَعْملُ المْعنَىٰ المكَرَّ رَ فِيهِ واللفظَ المردَّدْ

وقال أبو تمام:

البيدُ والعِيسُ والليلُ التَّمام معاً ثَلاثةٌ أَبداً يُقْرَنَّ فِي قَرَنِ

فقال البحتري:

اطلُبَا ثالثاً سِوَايَ فإِنِّي رَابعُ العِيسِ والدُّجَىٰ والبِيدِ(١)

كل هذه الشواهد وغيرها تدل بما لا يدع مجالاً للشك علىٰ تأثر البحتري بأستاذه أبي تمام، كما تدل علىٰ أن البحتري لم يكن ليكتب بيتاً حتىٰ يخطر شعر أبي تمام بباله.

ويقول أبو الحسن الكاتب: كان إبراهيم بن الفرج البُنْدنيجي الشاعر يجيئنا كثيراً، وكان أعلم الناس بالشعر، ويجيئنا البحتري، وعليٌّ بن العباس الرومي، وكانوا إذا ذكروا أبا تمام عظّموه، ورفعوا مقداره في الشعر حتىٰ يقدموه علىٰ أكثر الشعراء، وكلٌّ يقرُّ بأستاذيته، وأنه منه تعلم ، وقال: هؤلاء أعلم أهل زمانهم بالشعر، وأشعر من بقي(٢).

وكان أبو الطيب المتنبي جالساً ذات مرة عند سيف الدولة ، فروىٰ أحد الجالسين شعراً ألمَّ فيه بمعنىٰ لأبي تمام، فقال أبو الطيب هذا يشبه قول أبي تمام، وأتىٰ بالبيت المأخوذ منه المعنىٰ، تعجب الحاضرون وقالوا : قد سررنا لأبي تمام إذ عرفت شعره، فقال:" أو يجوز للأديب ألا يعرف شعر أبي تمام، وهو أستاذ كل من قال الشعر بعده ؟!"(٣).

لقد ذاع صيت أبي تمام وتناقلت أخباره وأشعاره في الآفاق، ولم يقف أمر الاتصال به والاغتراف من منهله والتأثر بأشعاره عند شعراء المشرق بل تعداه إلىٰ شعراء المغرب العربي، والأندلس، فقد عرف أهل الأندلس أبا تمام، ووصل إليهم شعره في حياته، وفتنوا به، وشغلوا بفنه وصنعته، وأدرك لديهم من القبول والحظوة ما لم يدركه إلا المتنبي بعد ظهوره.

---

(١). أخبار أبي تمام ، ص ٧٦ - ٨٣.

(٢). أخبار أبي تمام ، ص ٦٧ - ٦٨.

(٣). يوسف البديعي الدمشقي: الصبح المنبي عن حيثية المتنبي، (مطبوع بهامش شرح العكبري)، المطبعة العامرة الشرفية الطبعة: الأولى، ١٣٠٨ هـ، (١/ ١٧٤).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فهذا عثمان بن المثنىٰ المؤدب والشاعر القرطبي المتوفىٰ (٢٧٣هـ) قال ابن الفرضي في ترجمته: "وقرأ علىٰ حبيب بن أوس ديوان شعره وأدخله الأندلس رواية عنه"(١)، وقال الزبيدي في الطبقات: "رحل إلىٰ المشرق فلقي حبيب بن أوس فقرأ عليه شعره وأدخله الأندلس"، وقال ابن سعيد في المغرب: "وذكر أنه رحل ولقي أبا تمام الطائي، وأخذ عنه شعره" ، وقال ابن الأبار: "حكي أن عثمان بن المثنىٰ جمعه مركب في بحر القلزم (البحر الأحمر) مع حبيب بن أوس الطائي فأنشده شعره الذي يقول فيه:

الله أكبر جاء أكبر من مشىٰ فتعثَّرت في كنهه الأوهامُ

وكان هذا البيت مبتدأ الشعر فقال له ابن المثنىٰ: "شعر حسن لولا أنه لا ابتداء له ، فوقذت في نفس حبيب وابتدأ الشعر بقوله:

دِمَنٌ ألمَّ بها فقال سلامُ كم حلَّ عُقْدَةَ صبرهِ الإلمامُ

ثم أنشده في اليوم الثاني الشعر بهذا الابتداء إلىٰ تمامه، فقال له ابن المثنَّىٰ : أنت أشعر الناس، فعظُم في نفس حبيب، ثم لقيه في انصرافه، وحبيب قد عظم قدره ، وجلّ خطره، فكان يؤثره، ويعرف له فضله، وكان أول من أدخل شعره"الأندلس، وهذا الخبر يصور الصلة بين الرجلين علىٰ أنها صلة شاعر بشاعر ، أو ناقد بشاعر، وهو خبر له أشباه ونظائر كخبر عباس بن ناصح مع أبي نواس، وخبر يحيىٰ الغزال مع أدباء بغداد(٢)

وثمة راوية أندلسي آخر لشعر أبي تمام وهو الشاعر الفحل مؤمن بن سعيد الذي لقي أبا تمام ببغداد وأخذ عنه شعره وأدخله الأندلس وكانت له حلقة يقرئ فيها هذا الشعر ، ورواية أتم من رواية ابن المثنىٰ ، إذ يبدو أنه أدرك أبا تمام في آخر حياته، وقد ذكر أنه لقيه في بغداد.

وعناية الأندلسيين برواية شعر أبي تمام وحفظه وتدريسه وشرحه ونقده أدت في آخر الأمر إلىٰ تأثيره في الحركة الأدبية والشعرية بالأندلس ، وبلدان المغرب، ويتمثل هذا التأثير علىٰ الخصوص في مظهرين :أولهما: يتجلىٰ في المعارضة التي أصبحت ظاهرة عامة في شعر الأندلس والمغرب، ويمكن القول بأن معارضة أبي تمام بدأت مع جيل ابن عبد ربه، فقد حذا هو وشعراء عبد الرحمن الناصر حذو أبي تمام في بناء القصيدة ولا سيما قصيدة المدح، ويعتبر أبو تمام الشاعر

(١) . تاريخ العلماء (٣٤٦/١)، والسيوطي: بغية الوعاة، المكتبة العصرية ، لبنان (١٣٦/٢).

(٢) . د. محمد ابن شريفة: أبو تمام وأبو الطيب في أدب المغاربة، دار الغرب الإسلامي، بيروت١٩٨٦م، ص ١١. ١٢.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المبرز في هذا المنحىٰ كما يقول الشريشي في شرح المقامات، وقد أعجب ابن عبد ربه بشعر أبي تمام في وصف القلم وعارضه بشعر له في الموضوع نفسه(١).

ومن قصائد أبي تمام التي عارضها الأندلسيون البائية المشهورة :

السيف أصدق أنباءً من الكتب في حده الحدُّ بين الجدِّ واللعبِ

فقد كانت وما تزال من شعره المشهور المحفوظ، وبها مثَّل المعتمد بن عبَّاد عندما فخر بشعره فقال مضمِّناً مطلعها:

فهاكها قطعةً تطوي لها حسداً "السيف أصدق أنباءً من الكتبِ"

وكانت كتب الفتوح في الأندلس والمغرب تُصدَّر بقول أبي تمام في هذه القصيدة:

فتحٌ تفتح أبوابُ السماء له وتبرز الأرض في أثوابها القُشُبِ

ولعل أشهر من عارضها من شعراء الأندلس والمغرب هو الشاعر المدعو بالأصم المرواني، وذلك بقصيدته في مدح عبد المؤمن وتهنئته بفتح جبل طارق، ومطلعها:

ما للعدىٰ جُنَّةٌ أوقىٰ من الهربِ أين المفرُّ وخيل الله في الطلبِ

وهي مثل العمورية جوا ومناسبةً، ولا تقصر عنها حوكاً وجودة.

ومن أطرف المعارضات لهذه البائية المشهورة قول ابن الخطيب يهجو خصمه النباهي:

يا كوكب النحس من قربٍ علىٰ الحقبِ تلك الذُّنابَىٰ أتتْ بالحرْب والحرَبِ

لما رأيناك حققنا الذي وصفوا للناس من حدثان جاء في الكتبِ

إذ قال شاعرُ طيٍّ في قصيدته وهو المقلَّدُ في علم وفي أدبِ

"وخوَّفوا الناس من دهياء داهيةٍ إذا بدا الكوكبُ الغربيُّ ذو الذنَبِ"

وعرض بعض شعراء الأندلس رائية أبي تمام في وصف الربيع:

رقَّتْ حواشي الدهر فهي تمرمرُ وغدا الثرىٰ في حليه يتكسَّرُ

---

(١) . قال ابن عبد ربه في العقد الفريد: ومن قولنا في القلم:

بكفّه ساحر البيان إذا أداره في صحيفة سحرا

ينطق في عجمة بلفظته نصمّ عنه ويسمع البصرا

نوادر تقرع القلوب بها إن تستبنها وجدتها صورا

نظام درّ الكلام ضمّنه سلكا لخطّ الكتاب مستطرا

انظر: ابن عبد ربه: العقد الفريد، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٤هـ (٢٧٦/٤).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فقال ابن نصير الكاتب:

انظر نسيمَ الزهر رقَّ فوجهه لك عن أسرَّته السرية يسفرُ

خَضِلٌ بريعان الربيع وقد غدا للعين وهو من النضارة منظرُ

وحذا ابن قَلَّبيل البجَّاني حذو أبي تمام أيضاً في هذه القصيدة فقال:

ضحك الربيع بروضة وسميَّةٍ وافترّ عن روضٍ أنيقٍ يزهرُ

فكأنه زُهْر النجوم إذا بدا وكأنها في الترب وشْيٌ أخضرُ

وكأنَّ عَرْفَ نسيمها عند الصبا عَرْف العبير يفوح فيه العنبرُ(١)

وقد علق د. إحسان عباس علىٰ تأثر الأندلسيين بأبي تمام في مجال وصف الطبيعة قائلاً: "ومن أغرب الأمور أن يكون شعر أبي تمام محركا في وصف الطبيعة وأنموذجاً للأندلسيين في هذا المقام"(٢).

وقد قلّد ابن عبد ربه سينية أبي تمام في مدح أحمد بن المعتصم ، ومنها قوله:

الله جرَّد للندىٰ والباسِ سيفاً فقلَّده أبا العباسِ

وقد حذا الأعمىٰ التطيلي حذو أبي تمام في قصيدته السينية(٣)، وكذلك الشاعر المغربي محمد بن إبراهيم الفاسي(٤)، كما نجد لشعراء أندلسيين ومغاربة آخرين قصائد علىٰ وزن بعض قصائد أبي تمام ومن بحرها وقافيتها ، وإذا لم تكن نية المعارضة فيها حاصلة ، والقصد إليها قائماً، فإن استحضارها يفضحه تضمين بيت أو اقتباس شطر من النموذج المحكي كقول المعتمد في آخر شعر له: فهاكها قطعةً تطوي لها حسداً "السيف أصدق أنباءً من الكتبِ"(٥)

وكتب أبو الحسن بن أضحىٰ إلىٰ بعض أصحابه معتذراً بهذين البيتين:

ومستشفعٍ عندي بخير الورىٰ عندي وأولاهم بالشكر مني وبالحمدِ

---

(١) . ابن أبي نصر الميورقي الحميدي: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الدار المصرية للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٦٦م، ص ٣٩٠.

(٢) . د. إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي ط/٢ (١/١١١) .

(٣) . ومطلع سينية الأعمى التطيلي: (شعري وجودك يا أبا العباس مَثَلانِ قد سارا بنا في الناسِ)

(٤) . ومطلع قصيدته: (أسقيط طلٍّ في حديقةِ آسِ أم ذا حبابٌ دار فوق الكاسِ).

(٥) . أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: د. إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس ١٩٧٨م، (٣ / ٦٨).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

وصلتُ فلما لم أقم بجزائه: "لففتُ له رأسي حياءً من المجدِ"(١)

ثانيهما: أن شعر أبي تمام كان من المحفوظ الذي تجري ألفاظه ومعانيه علىٰ ألسنة الشعراء وأقلام الكتاب في الأندلس والمغرب ، وكانوا لا يستطيعون التخلص من تأثيره حينما يكتبون أو يشعرون ، ومن هنا نجدهم يقعون علىٰ معانٍ وصور وصيغ سبق إليها أبو تمام، وقد شغل بعض دارسي الأدب وشراح الشعر بهذا الموضوع وتناولوه في إطار السرقات.

وتوارد شعراء الأندلس والمغرب مع أبي تمام ونظرهم إلىٰ معاني شعره كثير نحيل في مجموعه علىٰ ذخيرة ابن بسام، وقراضة الذهب لابن رشيق، وشرح المقامات للشريشي"(٢).

****

(١) . شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر ، بيروت ١٩٩٧م، (١٦٣/٤).

(٢) . د. محمد بن شريفة: أبو تمام وأبو الطيب في أدب المغاربة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت١٩٨٦، ص٥٦ . ٦٨.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

الباب الثالث

شعر أبي تمام

الفصل الأول

مذهب أبي تمام الشعري

يقسم النقاد الشعر إلىٰ نوعين : مطبوع ومصنوع، ولعل الجاحظ أول من أذاع هذه الفكرة ودعا إليها حين كان يعارض الشعوبية في بيانه، فادعىٰ عليهم أنهم يقولون الشعر عن صناعة، أما العرب فيقولونه عن طبع وسجية إذ يقول: "وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف وهمه إلىٰ الكلام وإلىٰ رجز يوم الخصام، أو حين يمتح علىٰ رأس بئر، أو يحدو ببعير، أو عند المقارعة والمناقلة، أو عند صراخ أو في حرب، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلىٰ جملة المذهب، وإلىٰ العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني أرسالاً، وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً، ثم لا يقيّده علىٰ نفسه، ولا يدرِّسه أحداً من ولده"(١).

وقال ابن رشيق: "ومن الشعر مطبوع ومصنوع، فالمطبوع هو الأصل الذي وضع أولاً، وعليه المدار، والمصنوع وإن وقع عليه هذا الاسم فليس متكلفاً تكلف أشعار المولدين، لكن وقع فيه هذا النوع الذي سموه صنعة من غير قصد ولا تعمل، لكن بطباع القوم عفواً، فاستحسنوه ومالوا إليه بعض الميل، بعد أن عرفوا وجه اختياره علىٰ غيره، حتىٰ صنع زهير الحوليات علىٰ وجه التنقيح والتثقيف: يصنع القصيدة ثم يكرر نظره فيها خوفاً من التعقب بعد أن يكون قد فرغ من عملها في ساعة أو ليلة، وربما رصد أوقات نشاطه فتباطأ عمله لذلك، والعرب لا تنظر في أعطاف شعرها بأن تجنس أو تطابق أو تقابل، فتترك لفظة للفظة، أو معنىٰ لمعنىٰ، كما يفعل المحدثون،

---

(١) . الجاحظ: البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ١٤٢٣هـ (٣/ ٢٠).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولكن نظرها في فصاحة الكلام وجزالته، وبسط المعنىٰ وإبرازه، وإتقان بنية الشعر، وإحكام عقد القوافي وتلاحم الكلام بعضه ببعض... واستطرفوا ما جاء من الصنعة نحو البيت والبيتين في القصيدة بين القصائد، يستدل بذلك علىٰ جودة شعر الرجل، وصدق حسه، وصفاء خاطره؛ فأما إذا كثر ذلك فهو عيب يشهد بخلاف الطبع، وإيثار الكلفة، وليس يتجه البتة أن يتأتىٰ من الشاعر قصيدة كلها أو أكثرها متصنع من غير قصد؛ كالذي يأتي من أشعار حبيب والبحتري وغيرهما، وقد كانا يطلبان الصنعة ويولعان بها: فأما حبيب فيذهب إلىٰ حزونة اللفظ، وما يملأ الأسماع منه، مع التصنيع المحكم طوعاً وكرهاً، يأتي للأشياء من بعد، ويطلبها بكلفة، ويأخذها بقوة، وأما البحتري فكان أملح صنعة، وأحسن مذهباً في الكلام، يسلك منه دماثة وسهولة مع إحكام الصنعة وقرب المأخذ، لا يظهر عليه كلفة ولا مشقة.

وما أعلم شاعراً أكمل ولا أعجب تصنيعاً من عبد الله بن المعتز؛ فإن صنعته خفية لطيفة لا تكاد تظهر في بعض المواضع إلا للبصير بدقائق الشعر، وهو عندي ألطف أصحابه شعراً، وأكثرهم بديعاً وافتناناً، وأقربهم قوافي وأوزاناً، ولا أرىٰ وراءه غاية لطالبها في هذا الباب، غير أنا لا نجد المبتدئ في طلب التصنيع ومزاولة الكلام أكثر انتفاعاً منه بمطالعة شعر حبيب وشعر مسلم بن الوليد؛ لما فيهما من الفضيلة لمبتغيها، ولأنهما طرقا إلىٰ الصنعة ومعرفتها طريقاً سابلة، وأكثرا سهلها عند الناس، وجسرهم عليها.

علىٰ أن مسلماً أسهل شعراً من حبيب، وأقل تكلفاً، وهو أول من تكلف البديع من المولدين، وأخذ نفسه بالصنعة، وأكثر منها... وقالوا: أول من فتق البديع من المحدثين بشار بن برد، وابن هرمة، وهو ساقة العرب وآخر من يستشهد بشعره. ثم أتبعهما مقتدياً بهما كلثوم بن عمرو العتابي، ومنصور النمري، ومسلم بن الوليد، وأبو نواس. واتبع هؤلاء حبيب الطائي، والوليد البحتري، وعبد الله بن المعتز؛ فانتهىٰ علم البديع والصنعة إليه، وختم به"(١).

ويعزو د. شوقي ضيف ظهور التصنيع في الشعر العربي في العصر العباسي الأول بعامة وعند أبي تمام بخاصة إلىٰ الحياة التي كان يعيشها الشعراء في هذا العصر فقد "كان ذوق التصنيع أو الزخرف والزينة يعم في كثير من جوانب الحياة العباسية فقد كانت قصور الخلفاء والأمراء وكثير من القواد والوزراء والأشراف تكتظ بالستور والبُسُط المعلَّقة علىٰ الحوائط والنوافذ متنافسة بألوانها الزاهية، وما عليها من التصاوير المذهبة ، وكانت الحيطان والسقوف والأبواب تُذَهَّب وتفضَّض، كما كانت الغرف والأبهاء تزدان بالأثاث النفيس والفُرُش الأنيقة، ويصف أحمد بن حرب المعروف بأبي هفان مجلساً للأمين، فيقول : إنه دعا الشعراء ، فدخلوا إليه في "إيوان

(١) . ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط/٥ دار الجيل١٩٨١م، (١/١٢٩ - ١٣١).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

مشرف فائح فاسح، يسافر فيه البصر، جعل كالبيضة بياضاً، ثم ذُهِّب بالإبريز المخالف بينه باللازورد، ذي أبواب عظام ومصاريع غلاظ تتلألأ فيها مسامير الذهب، قد قُمِّعت رءوسها بالجوهر النفيس، وقد فرش بفرش كأنها صبغ الدم، مُنَقَّش بتصاوير الذهب وتماثيل العقيان، ونُضِّد فيه العنبر الأشهب، والكافور المصعَّد،وعجين المسك وصنوف الفاكهة والشمامات والتزايين"(١).

ويصف آخر داراً للواثق فيقول: "إنها كانت مُلبَّسة الحيطان بالوشي المنسوج بالذهب، وإنه رآه يجلس علىٰ سرير مرصَّع بالجواهر، وعليه ثياب منسوجة بالذهب، وإلىٰ جانبه فريدة تغنيه وعليها مثل ثيابه"(٢).

وعلىٰ نحو ما تأنقوا في قصورهم وفرشهم تأنقوا في أطعمتهم وثيابهم، وبالغ النساء في أزيائهن وفي زينتهن، وخاصة الجواري من فارسيات وروميات، فكن يصبغن شفاههن وخدودهن ويسدلن شعورهن علىٰ وجوههن بصور مختلفة تثير الإغراء والفتنة.

ولم يكن الشعراء بعيدين عن هذه الحياة، فلقد توفرت الأموال لديهم وعاشوا في عالم مترف زاخر بالحلية والزينة، يقول الجاحظ: "وكانت الشعراء تلبس الوشي والمقطّعات والأردية السود وكل ثوبٍ مشهَّر، "ويقول إنهم كانوا يتندرون علىٰ من يتزيّىٰ بزي الماضين(٣).

"وأخذ هذا التصنيع والتنميق يتسرب من حياة الشعراء العامة إلىٰ حياتهم الفنية الخاصة ، وهي حال طبيعية توجد دائما في الصنائع حين يعم الترف، فإذا هي تتحول إلىٰ زخارف دقيقة، وليس الشعر وحده الذي أخذ يسود فيه هذا التصنيع فقد كان يشيع في فن العمارة وبناء المساجد والقصور كما كان يشيع في التصوير الذي كان يستخدم زينة وزخرفاً للكتب والقصص، فلا عجب أن ينتقل إلىٰ الشعر والشعراء ، وأن ينمو مع الزمن حتىٰ تصبح القصيدة كأنها واجهة لمسجد مزخرف بديع، قد تألّق في وشي مرصع كثير"(٤).

ومما لاشك فيه أنه اجتمع لأبي تمام الطبع والملكة والثقافة المتنوعة التي عج بها عصره الذي كان محطاً ومجتمعاً لعناصر ثقافية متنوعة فأصبح شاعراً ذا مذهب شعري تقبله قوم ولم

---

(١) . عبد الله بن محمد ابن المعتز العباسي: طبقات الشعراء ، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج/ ط/٣، دار المعارف – القاهرة، ص٢٠٩.

(٢) . أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ، ط. دار الكتب ، (١١٦/٤).

(٣) . الجاحظ: البيان والتبيين (١١٥/٣).

(٤) . د. شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ص ١٧٢ . ١٧٤، باختصار.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يرتضه آخرون، ويستطيع الدارس لشعر أبي تمام أن يستنتج أنه كان عارفاً لصناعته، عالماً بها، رأىٰ نفسه أهلاً لمذهب شعري فاتبعه لميل نفسه إليه، وسار علىٰ هديه في جميع قصائده.

وكان من مذهبه الغوص وراء المعاني، والتعقيد في الخيال، ولعل ذكاؤه هو الذي أغراه بالغوص وراء المعاني فيستوحيها ويستخرجها، وقد شاعت أيضاً في قصائده الصور المركبة المعقدة، التي ربما بدت للذهن العادي نوعاً من الهذيان، غير أنه كثيراً ما يثير الإعجاب بانتزاعه لصور في غاية البراعة، وبتركيبه للاستعارات بحيث يصبح المجرد محسوساً ، و"هذه القدرة العظيمة علىٰ النفاذ إلىٰ المعاني واستحضارها لا تعتمد فقط علىٰ ذلك الذهن الوقّاد ، بل إن هذا الذهن كان يأخذ مواده من تلك الثقافة العريضة التي تهيأت لأبي تمام من خلال اطلاعاته علىٰ علوم عصره، ذلك العصر الذي انتشرت فيه العلوم النظرية، فتعددت المعارف، وتشعبت المدارك، وتعقدت الحياة، واحتفل فيه بالترجمة لآداب اليونان والأمم الأخرىٰ، وأخذ شاعرنا ينهل من هذا كله بنهم شديد، ساعده في هذا ذكاؤه المفرط، وقدرته الفائقة علىٰ الاستيعاب، ثم براعة في الاستخدام"(١).

وكان أبو تمام صادقاً في صناعة شعره، ومما يشهد له بذلك ما رواه الصولي عن ابن الدقاق قال: "قرأنا علىٰ أبي تمام أرجوزة أبي نواس التي مدح بها الفضل بن الربيع: "وبلدة فيها زور" فاستحسنها، وقال: سأروض نفسي في عمل نحوها، فجعل يخرج إلىٰ الجنينة، ويشتغل بما يعمله، ويجلس علىٰ ماءٍ جارٍ، ثم ينصرف بالعشيّ، فعمل ذلك ثلاثة أيام، ثم خرق ما عمل، وقال: لم أرض ما جاءني"(٢).

إن أبا تمام حين يتعمد التصنيع من الوهلة الأولىٰ قبل أن ينطلق طبعه لا يمكن أن يرضىٰ عما وصل إليه بحال من الأحوال، ولهذا خرق ما صنعه؛ لأنه وجد نفسه يقلد دون أن ينفعل، لكنه في الأعم الأغلب يترك نفسه علىٰ سجيتها، وينطلق مع الملكة الشعرية بعد أن يسيطر عليه شعور ما، فيهيم معها إلىٰ أن ينقضي ما أوحت به إليه، وهنالك يتأمل الأبيات بفكره الثاقب، وذكائه الحاد، ويعيد قراءتها مرة بعد مرة، ثم يعمد إلىٰ تغيير في الألفاظ والتراكيب بما يعطي جرساً موسيقيا قوياً رناناً يتميز به عن غيره، ويتلاءم مع شخصيته العربية البدوية الحادة، وبما يشكل صوراً جديدة مبتكرة، ويخلق معاني عميقة تحتاج إلىٰ بذل جهد في الوصول إليها.

ولعل مما يترجم عن مدرسة أبي تمام في فكرة الشعر رسالة صديقه وممدوحه الحسن بن وهب إليه، يقرر فيها أن أبا تمام يحتذي معانيه في الشعر احتذاء الكتاب في النثر، فتكون قدرة أبي

---

(١) . د. عبد الله بن حمد المحارب: أبو تمام بين ناقديه قديماً وحديثاً، ص ١٠٥.

(٢) . أخبار أبي تمام ص ٢٤٦ . ٢٤٧.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تمام أسمىٰ لأنه ينظم من الأفكار ما يجري علىٰ أقلام الكتاب نابعاً من فيض قرائحهم، وفكرة الكاتب كانت ولا تزال أيسر تناولاً في المنثور منها في المنظوم، وهنا تكمن عبقرية أبي تمام.

يكتب الحسن بن وهب إلىٰ أبي تمام:

"أنت ـ حفظك الله ـ تحتذي من البيان في النظام مثل ما نقصد نحن في النثر من الإفهام، والفضل لك ـ أعزَّك الله ـ إذ كنت تأتي به في غير الاقتدار، علىٰ غاية الاقتصار، في منظوم الأشعار، فتحل متعقده، وتربط متشرده، وتضم أقطاره، وتجلو أنواره، وتفصله في حدوده، وتخرجه من قيوده، ثم لا تأتي به مهملاً فيستبهم، ولا مشتركاً فيلتبس، ولا متعقداً فيطول، ولا متكلفاً فيحول، فهو منك كالمعجزة تضرب فيه الأمثال، وتشرح فيه المقال، فلا أعدمنا الله هداياك واردة، وفوائدك وافدة"(١).

وفي تعليقه علىٰ هذه الرسالة يقول د. مصطفىٰ الشكعة: "إن الحسن بن وهب يقدم لنا هذا التحليل الدقيق لفكرة الشعر أو شعر الفكرة عند أبي تمام منذ عصر بعيد، عصر أبي تمام نفسه، فجنب الكثيرين من النقاد أن يتعبوا عقولهم ويكدوا خواطرهم لكي يصلوا بشعر أبي تمام إلىٰ نتائج وموازين وتقييمات وصل إليها معاصروه، فجنبونا تلك المشقة، اللهم إلا إذا كنا نسعىٰ نحن إليها مختارين بدافع نشوة البحث ومتعة الدرس، والالتذاذ بما يسر المرء من قراءته ويفيد من استقصائه ويرتاح إلىٰ استقرائه(٢).

وبهذه الطريقة ـ التي وصفها الحسن بن وهب ـ خرج أبو تمام علىٰ الناس "بنوع جديد من الشعر أخرجه من رأسه لا من قلبه، فهو يغوص علىٰ المعاني العقلية غوصاً، ثم يرفعها إلىٰ السماء، ويعمل فيها خياله البعيد، ويختار لها الألفاظ، ويعنىٰ ببديعها وجناسها، فتتم له من معانيه العميقة إلىٰ القاع، وخياله المرتفع إلىٰ السماء، وألفاظه المتجانسة المزوقة، نوع جديد من الشعر لم يسبق إليه، نعم إن كل جزئية من هذه الجزئيات قد سُبق إليها، فقد سبقه مسلم بن الوليد بكثرة البديع والجناس في شعره، وسبقه أبو نواس وبشار بكثرة المعاني وغزارتها، ولكن كل هذه الجزئيات ـ مبالغاً فيها ـ لم تجتمع لأحد قبل ما اجتمعت لأبي تمام.

وشأن الجديد في كل عصر، وفي كل علم وفن أن يثير جدالاً، وأن يقسم الناس إلىٰ معسكرين: معسكر ينصره، ومعسكر يخذله، وأن يشتد القتال بين المعسكرين.

وكذلك كان الحال في أبي تمام؛ فقد أتىٰ بجديد فتنازع العلماء والأدباء فيه، فأما من تعصب للقديم كابن الأعرابي، فكرهوا أبا تمام، وكرهوا ما جاء به من شعر جديد، وقالوا إنه خرج عن

(١) ـ أبو إسحاق الحصري: زهر الآداب وثمر الألباب، دار الجيل ، بيروت، د. ت. (٣ /٨٩١).

(٢) ـ د. مصطفى الشكعة: الشعر والشعراء في العصر العباسي، ط/٦ دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٦م، ص ٦٥٩ ـ ٦٦٠.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عمود الشعر المعروف، وأما من مرن ذوقه وعقله ولم يتقيد بقديم، فقد أعجب بأبي تمام أيما إعجاب، وخاصة من تفلسف ذوقه وعمق فكره وبعد خياله واستطاع أن يفهمه؛ لأن أبا تمام كان يغوص في الغالب أو يرتفع حتىٰ لا يدركه إلا الخاصة"(١).

وكان الإكثار من فنون البديع في شعر أبي تمام من الاستعارة والطباق والجناس والتفنن فيها، والبحث عن أوجه الشبه بين المعاني والأشياء، هو ما جعل فريقاً من العلماء يقولون إنه صاحب مذهب اخترعه وصار فيه أولاً، وإماماً متبوعاً، وشهر به حتىٰ قيل: هذا مذهب أبي تمام، وطريقة أبي تمام"(٢).

وجعل آخرين ينفرون منه لمخالفته سنن المتقدمين، وابتعاده عن النهج المعروف، وارتبطت ظاهرة النفور من شعر أبي تمام بقضية فهم معانيه، وإدراكها واستساغتها لدىٰ طبقات الناس، ولعل هذا هو المقصود من قول الآمدي في الموازنة: "وذلك كمن فضل البحتري، ونسبه إلىٰ حلاوة اللفظ، وحسن التخلص، ووضع الكلام في مواضعه، وصحة العبارة، وقرب المأتىٰ، وانكشاف المعاني، وهم الكتاب والأعراب والشعراء المطبوعون وأهل البلاغة، وميل من فضل أبا تمام، ونسبه إلىٰ غموض المعاني ودقتها، وكثرة ما يورد مما يحتاج إلىٰ استنباط وشرح واستخراج، وهؤلاء أهل المعاني والشعراء أصحاب الصنعة ومن يميل إلىٰ التدقيق وفلسفي الكلام، وإن كان كثير من الناس قد جعلهما طبقة، وذهب إلىٰ المساواة بينهما، وإنهما لمختلفان لأن البحتري أعرابي الشعر، مطبوعٌ، وعلىٰ مذهب الأوائل، وما فارق عمود الشعر المعروف، وكان يتجنب التعقيد ومستكره الألفاظ ووحشي الكلام؛ فهو بأن يقاس بأشجع السلمي ومنصور النمري وأبي يعقوب المكفوف الخريمي، وأمثالهم من المطبوعين أولىٰ، ولأن أبا تمام شديد التكلف، صاحب صنعةٍ، ويستكره الألفاظ والمعاني، وشعره لا يشبه أشعار الأوائل، ولا علىٰ طريقتهم؛ لما فيه من الاستعارات البعيدة، والمعاني المولدة، فهو بأن يكون في حيز مسلم بن الوليد ومن حذا حذوه أحق وأشبه، وعلىٰ أنىٰ لا أجد من أقرنه به ؛ لأنه ينحط عن درجة مسلم لسلامة شعر مسلم ، وحسن سبكه وصحة معانيه، ويرتفع عن سائر من ذهب هذا المذهب وسلك هذا الأسلوب؛ لكثرة محاسنه وبدائعه واختراعاته(٣).

يقول د. البهبيتي: " وهذه الإشارات في كتب النقد إلىٰ مذهب أبي تمام كثيرة، وتتلخص جميعاً فيما يأتي:

---

(١) . انظر: مقدمة أخبار أبي تمام لأبي بكر الصولي بقلم الدكتور أحمد أمين.

(٢) . أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي: الموازنة بين أبي تمام والبحتري، تحقيق: السيد أحمد صقر،ط/٤دار المعارف القاهرة، (١٣/١).

(٣) . الموازنة ، (١/ ٤ . ٥).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

١ ـ طلب المعنىٰ البعيد، واللطيف الجديد المبتدع، وتحري ذلك تحريـًا مكدوداً متواصلاً.

٢ ـ محاولة ٰخفاء المعنىٰ المنقول عن الغير بكثير من التغميض، والتعقيد والالتواء في التعبير، واستخدام الأساليب الجديدة في ذلك.

٣ ـ نشأ عن هذا كثرة الاستعارات، والإفراط في استعمالها، مع خفاء العلاقة، وبعدها أحيانـًا، وأصبح اللفظ في كثير أشبه بالمنقول إلىٰ معنىٰ جديد، لا علىٰ قواعد الاستعارة القريبة المعروفة ، كما اضطره ذلك إلىٰ الإفراط والمبالغة، حتىٰ ليتهمه دعبل بأن ثلث شعره محال.

٤ ـ كان من وراء هذا كله، مع تكلف إدماج الفكرة في الشعر، نقص ماء الشعر في كثير منه ، وتبدي الكلفة، ولم تكن هناك وسيلة إلىٰ تحقيق هذا إلا التجميل الصناعي، فتحرىٰ أبو تمام أنواع البديع، والمحسنات اللفظية من كل وجه وبكل سبيل، وكان من نتائج اقتران طلب المعنىٰ بطلب اللفظ إلىٰ الوجه الذي أسلفته، جور يلحق بأحدهما، فتكون الثمرة الغموض أو الغريب"(١).

وتابع د. عمر فروخ سلسلة الاهتمام بمذهب أبي تمام فعقد له مبحثـًا خاصـًا في كتابه اعتبر فيه أبا تمام علمـًا من أعلام بيئة شعرية كانت هذه طريقتها، ومنها استقىٰ أبو تمام طريقته في النظم، فقال: "يقول بروكلمان: (إن أبا تمام يمثل بشعره شعراء المقاطعات تمثيلاً صحيحـًا، وهو المثال المحتذىٰ في ذلك)، وعلىٰ هذا جعل بروكلمان شعراء العصر العباسي قسمين : شعراء بغداد خاصة، وشعراء المقاطعات كالشام وخراسان، وتأثر به جرجي زيدان، واتبعه في ذلك أحمد حسن الزيات"(٢).

ثم يوضح د. عمر فروخ المقصود بشعراء المقاطعات أو بالأدق الشعراء الشاميين، ومذهبهم في الشعر، فيقول: "فالشعراء الشاميون هم المحافظون علىٰ عمود الشعر القديم، وهم المحافظون ذوو العصبية العربية البدوية، والسالكون في الشعر مسلك الشعراء الجاهليين من أصحاب المعلقات خاصة، علىٰ أن الشعراء الشاميين قد زادوا علىٰ الجاهليين في تكلف المعاني البعيدة وملئوا أشعارهم بالبديع، بالجناس وبالطباق، وأوغلوا في التشابيه والاستعارات، أما البغداديون فهم المجددون المتساهلون في أمر العصبية لأن معظمهم من الفرس، ثم إنهم ميالون إلىٰ الحضر وما فيه من ترف كارهون للبادية، ثم إنهم مالوا في قصائدهم إلىٰ المقاطع ووحدة المعنىٰ فيها

(١) . د.البهبيتي: أبو تمام الطائي حياته، وحياة شعره، ص ١٩٢ ـ ١٩٣.

(٢) . د. عمر فروخ: أبو تمام شاعر الخليفة المعتصم بالله، ص ٨٥.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والتساهل في الألفاظ والتراكيب، وتركوا التكلف، وجروا علىٰ السجية، وقد كرهوا البديع إلا ما جاء في شعرهم عفواً"(١).

وبعد أن أفاض في الحديث عن المذهب الشامي وعمود الشعر قال:

"فيما يلي موجز للآراء المبسوطة في الصفحات السابقة منسوقة نسقاً ظاهراً:

١ ـ شكل القصيدة: إطالة القصيدة وتعدد الأغراض فيها، والقصيدة الشامية تبدأ عادة بالنسيب.

٢ ـ تثقيف الشعر: العناية بالأبيات بتنقيحها.

٣ ـ التأنق والتصنيع: العناية باللفظ والتركيب والإكثار من البديع، مع الحرص علىٰ ألا تخلو قصيدة ولا بيت من أبيات قصيدة من هذا التصنيع ما أمكن.

٤ ـ الإيغال في التشبيه والاستعارات إلىٰ ما يشبه الرمز حتىٰ ليكاد يغمض المعنىٰ وتخفىٰ الصور البلاغية.

٥ ـ جمع المعاني الكثيرة في الأبيات القليلة، والوقوف علىٰ المعنىٰ الواحد بالتقليب له علىٰ وجوهه وبإقامة الأدلة علىٰ صحته، وبضرب الأمثلة.

٦ ـ لزوم الجد أو التظاهر به علىٰ الأقل، فقلما يميل الشاعر الشامي إلىٰ اصطناع المرح واللهو وقلما يحسنهما في شعره.

٧ ـ إدخال فنون العلم في الشعر، فالشاعر الشامي شاعر مثقف تظهر ثقافته في شعره، وهو يطوي شعره علىٰ إشارات إلىٰ أغراض من اللغة والنحو والأدب والفقه والمنطق والفلسفة والفلك وما إليها.

٨ ـ يلتزم الشاعر الشامي في حياته وشعره مسلكاً معيناً يحاول أن يفرضه في صلاته بالناس ويصبر علىٰ المشاق ويتشدد في المصائب، وكان معظم الشعراء الشاميين يتشيعون لآل البيت.

٩ ـ الشاعر الشامي شاعر مقتدر ينظم الشعر في جميع الأغراض التي يريدها، أما الطبع عنده فقليل البروز.

١٠ ـ يؤلف المديح الجزء الأوفر من ديوان الشاعر الشامي، ثم إن خصائص المديح تغلب عنده علىٰ سائر فنونه، وهو يجيد الفخر، وربما أجاد الرثاء، ووصف المعارك إجادة كبيرة، ثم إنه لا

---

(١) . المرجع السابق ، ص ٩١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يجيد الهجاء ، وقلما برع في الغزل، وكذلك تكثر الحكمة عند الشاعر الشامي كثرة ظاهرة، أما المجون فلا يكاد يظهر عنده.

١١ ـ الإكثار من الأعلام الجغرافية، إما بالوقوف علىٰ الأطلال تقليداً لشعراء الجاهلية، وتملحاً بذكرها، أو اعتماداً عليها لتبيان التنقل وتقييد الحوادث.

١٢ ـ الإكثار من ذكر الإشارات التاريخية: رجال التاريخ والحوادث والمعارك والأنساب وما إليها.

ولا ريب أبداً في أن الشعراء الشاميين يتفاوتون في هذه الخصائص اقتصاداً وإسرافاً، وقد يشترك الشاعر الشامي والشاعر البغدادي في بعض هذه الخصائص(١).

تلك كانت خصائص المذهب الشامي الذي يرىٰ بعض الباحثين أن أبا تمام كان ينتمي إليه بحكم نشأته، وثقافته، وسيره علىٰ رسومه في كثير من قصائده.

لكن ثمة باحثون آخرون يرون أن أبا تمام كان يتبع المذهب المصري، تأثراً بيوسف السراج الشاعر المصري، وأخذ عنه مذهبه في الشعر(٢).

ويرىٰ د. طه حسين أن أبا تمام لم يتبع المذهب المصري ولا المذهب الشامي ولكنه اتبع المذهب البغدادي، يقول د. طه حسين: "ومهما يكن الوطن الذي ولد فيه أبو تمام وعاش وتعلم تعليمه الأول فالوطن العقلي الأول إنما هو العراق ، البصرة أو الكوفة ومدينة بغداد بوجه خاص.

إذن فلتختلف مصر والشام في أبي تمام فلن يجدي عليهما هذا الخلاف شيئاً، فليس أبو تمام مصرياً ولا شامياً، ولا يدين بشعره لمصر ولا للشام ، وإنما يدين بشعره قبل كل شيء لبغداد"(٣).

والحق أن شعر أبي تمام لا يمكن أن يحصر في تحديد جغرافي ضيق فقد "أصبح شاعراً عربياً مسلماً لا يصطبغ بصبغ إقليمي، فلا يقال عنه إنه شامي الطريقة أو المنزع فقط ولا إنه مصري الثقافة، ولا عراقي الأسلوب والصوغ ولا هو بين الميل"(٤)، فأبو تمام "يستعصي شعره تماماً علىٰ الحبس في واحد من هذين الاتجاهين، ذلك لأنه كان متخطياً لكل هذه القوانين التي

---

(١) . أبو تمام شاعر الخليفة المعتصم بالله، ص ٩٢ . ٩٣.

(٢) . د. نجيب البهبيتي: أبو تمام الطائي حياته وحياة شعره، ص ٨٦.

(٣) . د. طه حسين: من حديث الشعر والنثر، ط/١٠ دار المعارف ، مصر ١٩٦٩م، ص ٩٦.

(٤) . د. جميل سلطان: أبو تمام، المطبعة الهاشمية ، دمشق ١٩٥٠، ص ١١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

حددها أصحابها، وكان أقرب إلىٰ الفكرة الإسلامية الشاملة منه إلىٰ القومية الوطنية مهما كان شكل هذه الوطنية القومية"(١).

وهذا ما أعلنه أبو تمام نفسه؛ إذ رفض أن ينسب مذهبه الشعري إلىٰ مذهب فني إقليمي، فوطنه فسيح مترامي الأطراف، يشمل كل أرجاء الدولة الإسلامية يقول في إحدىٰ قصائده:

خليفةُ الخِضْرِ مَنْ يَربَع علىٰ وطنٍ في بلدةٍ فظُهورُ العِيسِ أوطاني

بالشام أهلي وبغدادُ الهوىٰ وأنا بالرَّقَّتَيْنِ وبالفُسطاطِ إخواني

وما أظنُّ النَّوَىٰ ترضىٰ بما صَنَعَتْ حتىٰ تُطَوِّحَ بي أقصىٰ خراسانِ(٢)

وقصائده حرة طليقة يحبرها بأسلوب يشمل كل خصائص القصيدة العربية يذكر هذا فيقول:

نيطَتْ قلائدُ عزمه بِمُحَبِّرٍ مُتكَوِّفٍ مُتَدَمْشِقٍ مُتَبَغْدِدِ(٣)

******

الفصل الثاني

أبو تمام في ميزان النقد

أولًا: النقاد القدامىٰ:

(١) . د. عبده بدوي: أبو تمام وقضية التجديد في الشعر، ص ١٦٨.

(٢) . التبريزي: شرح ديوان أبي تمام ، تحقيق: عزام (٣/٣٠٩ . ٣١٠).

(٣) . المرجع السابق (٢/٥٥).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

"كان الشاعر الجاهلي يلتزم منهجاً واضحاً لا يعدوه في بناء قصيدته الموضوعي، يبدأ بالنسيب ثم وصف منازل الأحبة والوقوف عليها، ثم يذكر رحلته ويختم القصيدة بمدح أو وصف أو غير ذلك من الأغراض الشعرية.

هذا المنهج المحدد الذي التزمه معظم شعراء الجاهلية لابد أن يكون قد مر بمراحل متعددة إلىٰ أن استقر هذا الاستقرار، وأصبح تقليداً وأنموذجاً يتمثله شعراء ذلك العصر، وإذا كانت الظروف المختلفة لم تسمح للعرب أن يدونوا آثار ذلك العصر بطريقة منظمة، فإنه لا يصح لنا أن نستنتج أنه لم تكن لهم حياة أدبية تصور ميولهم وأذواقهم...

ولأن التاريخ لم ينقل لنا قصائد تمثل هذا الأنموذج وتلتزم بذلك المنهج إلا القصائد التي رويت عن امرئ القيس، ولهذا فقد عُدَّ سابقاً في كل شيء(١)، فقد " سبق الْعَرَب إِلَىٰ أَشْيَاء ابتدعها واستحسنتها الْعَرَب، واتبعته فِيهَا الشُّعَرَاء: استيقاف صَاحبه، والتبكاء في الديار، ورقة النسيب، وَقرب المأخذ، وَشبّه النِّسَاء بالظباء وَالْبيض، وَشبه الْخَيل بالعقبان والعصي، وَقيد الأوابد، وأجاد فِي التَّشْبِيه ،وَفصل بَين النسيب وَبَين الْمَعْنىٰ"(٢).

هكذا توقف مؤرخو الأدب عند امرئ القيس باعتباره أول من ظهر علىٰ يديه هذا المنهج مكتملاً، لكن الحقيقة قد تكون غير ذلك؛ إذ إن هذه المحاولة الناضجة لابد أن تكون قد سبقت بمراحل أولية ومحاولات متعثرة، وهذا ما أكده الدكتور "نجيب محمد البهبيتي" الذي يرىٰ أن "النمو الطبيعي للقصيدة العربية، وأوزانها وموضوعاتها، واللغة ونحوها وأساليبها وإيجازها، يستدعي أن تكون مرت قبل زمن امرئ القيس بأطوار كثيرة ، وتعثرت تعثرات جمة حتىٰ اكتمل لها هذا الشكل الذي نجدها عليه في شعر امرئ القيس ، ومن سبقه أو جاء بعده"(٣).

التزم القدماء ذلك البناء الذي بنىٰ عليه امرؤ القيس قصائده ، وجاءوا به في أسلوب رصين وخيال خصب، واستخدموا فيه ألواناً من التشبيه القريب والاستعارة الواضحة المصورة، أما المعاني فقريبة حسية ساذجة، لا تعقيد فيها، وكان محصلة هذا كله اتجاهاً فنياً طبع الشعر الجاهلي بطابعه، حتىٰ استطاع نقاد القرن الرابع والخامس تحديد ملامحه داخل شكل الاتجاه العمودي.

وذلك العمود الشعري والمنهج المحدد للقصيدة الجاهلية هو الذي اتخذ مقياساً للموازنة والتفضيل، فقد "كانت العرب إنما تُفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنىٰ

---

(١) . د. عبد الله بن حمد المحارب: أبو تمام بين ناقديه قديماً وحديثاً، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٩٩٢م، ص ١٨ . ١٩.

(٢) . محمد بن سلّام الجمحي : طبقات فحول الشعراء، تحقيق : محمود محمد شاكر، دار المدني – جدة ١٩٧٤م (١/٥٥).

(٣) . د. نجيب محمد البهبيتي: تاريخ الشعر العربي حتى القرن الثالث الهجري، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٥٠، ص٥.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وصحّته، وجزالة اللفظ واستقامته، وتسلّم السّبْق فيه لمَنْ وصف فأصاب، وشبّه فقارب، وبدَهَ فأغزَر، ولمَن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته؛ ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة، ولا تحفِل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر، ونظام القريض.

وقد كان يقع ذلك في خلال قصائدها، ويتّفق لها في البيت بعد البيت علىٰ غير تعمد وقصْد، فلما أفْضىٰ الشعر إلىٰ المحْدَثين، ورأوْا مواقعَ تلك الأبيات من الغرابة والحسن، وتميّزَها عن أخواتها في الرشاقة واللطف، تكلّفوا الاحتذاء عليها فسمّوْه البَديع؛ فمن محسن ومسيء، ومحمود ومذموم، ومقتصد ومُفرط"(١).

"لقد كانت المعايير التي تناولت شعر أبي تمام تنبع من بيئات مختلفة نستطيع أن نحصرها في بيئات ثلاثة : العلماء الرواة ، أدباء الكتاب، البلاغيون، وقد كانت كل بيئة من هذه البيئات تنحو نحواً خاصاً في تناولها للشعر ، فإذا كانت بيئة العلماء الرواة تؤكد علىٰ ضرورة مراعاة قوانين الموروث الشعري عند العرب ، فإن بيئة أدباء الكتاب قد اهتمت بالذوق العام والجانب الإيصالي للغة وقرنت بين الرسالة والقصيدة ، في الوقت الذي حاول فيه المناطقة والمتكلمون ورجال البلاغة تطبيق المقولات العقلية علىٰ الشعر وإجراء جمله مجرىٰ القضايا مما أفضىٰ بهم إلىٰ التعلق باحتمالات الصدق والكذب ، وكذلك قرنوا بين الشعر والخطابة فانتهوا إلىٰ ما انتهىٰ إليه الكتاب من اهتمام كلي بالمخاطب وضرورة مراعاة المقام ، ومقتضىٰ الحال.

ولم تكن الحدود بين معايير تلك البيئات صارمة إذ إنها أشبه ما تكون بالأصول التي يصدر عنها الموقف في تناول النص الشعري إذ سرعان ما آلت نظراتهم النقدية إلىٰ ما عرف باسم عمود الشعر الذي اتفقوا علىٰ أن أبا تمام قد خرج عنه(٢).

وكان هذا الخروج بمثابة صدمة كبيرة للوعي السائد "سواء أكانت تلك الصدمة علىٰ مستوىٰ الخروج علىٰ عمود الشعر أم علىٰ مستوىٰ لغة الشعر الجديدة، لذلك اجتهد النقاد كلٌّ يعمل علىٰ شاكلته لاستكشاف حقيقة هذه اللغة الشعرية الجديدة التي لم يألفوها، فما ولّد لديهم جدلاً كبيراً فظهرت آراء وأقوال واسعة أريق فيها كثيرٌ من المداد، إذ خاف التقليديون علىٰ الذوق من أن يفسد بهذا التجديد"وأضحوا غير آمنين علىٰ عاداتهم في تذوق الشعر من التغيير وعلىٰ قيمهم في تصور

(١) . علي بن عبد العزيز الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، وعلي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، ص ٣٣ . ٣٤.

(٢) . سعيد مصلح السريحي الحربي: شعر أبي تمام بين النقد القديم ورؤية النقد الجديد، رسالة ماجستير بكلية اللغة العربية جامعة أم القرى ١٤٠٢هـ، ص ١٠.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

الشعر من الانقلاب(١)"، فكان أبو تمام غرضاً لسهام هؤلاء اللغويين ومَن تابعهم من النقاد، فقد حاروا في شعره، وما سبب ذلك إلاّ لأن اللغويين ألفوا شعر القدماء، فذللت لهم سبله، ووضحت أمامهم معالمه، أما شعر أبي تمام فقد كان جديداً عليهم، وكانت هذه الجِدّة سبب حيرتهم فيه، وإعراضهم عنه.

ولم يكن أبو تمام بدعاً ممن قبله ولكنه مَخّضَ تجارب المجددين قبله فأرسىٰ رسوم التجديد ووضعه علىٰ المحجة البيضاء،"وقد تصدّر أبو تمام حركة التجديد وأعطىٰ لها من ثقافته واطلاعه وذكائه ما قرر منهجها وقوّم فخامة لغتها علىٰ جزالة اللسان العربي سالكاً في التوليد والتجديد والبديع ما فتق أبواب البلاغة للأجيال بعده"(٢)؛ ولذلك تداعىٰ عليه النقد كما تتداعىٰ الأكلة علىٰ قصعتها،هذا يمدح وذاك يقدح،وهذا مثنٍ وذاك هاجٍ.

ومما لاشك فيه أن هذا الموقف من حركة التجديد عامة ولغة شعر أبي تمام خاصة قد خدمت الحركة النقدية أيما خدمة، إذ إنها دفعت الشعراء المحدثين إلىٰ شد أنفسهم بثقافة واسعة من لغة وآثار للأوائل للتزود بالأسس الضرورية للبناء الفني الشعري، ولكننا لا ننكر ضرر التعصب للقديم من دون وجه حق،ذكر الصولي في أخبار أبي تمام:" ومن الإفراط في عصبيتهم عليه ما حدثني أبو العباس عبد الله بن المعتز قال: حدثت إبراهيم بن المدير ورأيته يستجيد شعر أبي تمام ولا يوفيه حقّه بحديث حدثنيه أبو عمر أبي الحسن الطوسي وجعلته مثلاً، قال: وجّه بي أبي إلىٰ أبن الأعرابي لأقرأ عليه أشعاراً، وكنت معجباً بشعر أبي تمام فقرأت عليه من أشعار هذيل، ثم قرأت أرجوزة أبي تمام علىٰ أنها لبعض شعراء هذيل:

وعـاذل عذلته في عـذلهِ فظَنَّ أني جاهلٌ من جَهِلهِ

حتىٰ أتمتها، فقال: اكتب لي هذه، فكتبها له، ثم قلت: أحسنةٌ هي ؟! قال: ما سمعت بأحسنَ منها. قلت: إنها لأبي تمام. فقال: خَرق،خّرِق"(٣).

ومع أن طريقة أبي تمام في قول الشعر ونسجه لم يرتضها بعض أهل العلم بالشعر، فإننا نجد من تعصب لها ، وانبروا للذب عنها، وفي هذا السياق يقول الصولي: "وما أحسب شعر أبي تمام مع جودته وإجماع الناس عليه ينقص بطعن طاعن عليه في زمننا هذا ، لأني رأيت جماعة من العلماء المتقدمين ممن قدمت عذرهم في قلة المعرفة بالشعر ونقده وتمييزه ، ورأيت أن هذا ليس من

---

(١) . بحوث في النص الأدبي: ٦٩.

(٢) . العصر العباسي الأول: ١٣٩.

(٣) . أخبار أبي تمام : ١٧٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

صناعتهم ، وقد طعنوا علىٰ أبي تمام في زمانهم وزمانه، ووضعوا عند أنفسهم منه، فكانوا عند الناس بمنزلة من يهذي، وهو يأخذ بما طعنوا عليه الرغائب من علماء الملوك، ورؤساء الكتاب، الذين هم أعلم الناس بالكلام منثوره ومنظومه، حتىٰ كان هو يعطي الشعراء في زمانه ويشفع لهم؛ وكل محسنٍ فهو غلام له، وتابع أثره(١).

إلا أن وقوف النقاد والبلاغيين عند أحكام ومعايير محددة قد قصر بهم عن استيعاب لغة أبي تمام الشعرية علىٰ ما يتصورها النقد الحديث، ولعل مرد ذلك إلىٰ جملة من العوامل من أهمها: التشبث بنموذجية محددة للتعبير استخلصوها من الشعر القديم وأضفوا عليها صفة الثبات بحيث لا يصح الخروج عنها إلىٰ سواها وبهذا لا يستوعب البعد الشعري الجديد لأي تركيب لغوي إلا في ضوء استجابته لما استقر في الأنفس من إدراك للشعر القديم، ومن تلك العوامل الجمود علىٰ المعنىٰ الوضعي للكلمات وأساس الشعر أن يفر الشاعر بالكلمة إلىٰ معانٍ أخرىٰ يتلمس بها إعادة الشاعرية إلىٰ اللغة التي تفقدها تدريجياً بسيطرة الجانب العقلي في الكلمات علىٰ سواه وخاصة الجانب الانفعالي الذي يستبطن تجربة الإنسان الأولىٰ مع الأشياء وتعاطيه الوجداني لها، ومن تلك العوامل سيطرة الواقع الخارجي والمعيارية العقلية علىٰ عالم الشعر والاحتكام إليها في الكشف عن مستوىٰ الصحة والخطأ في الرؤية الشعرية للأشياء ، ومن هنا اعتبر الخيال الذي يعد الأصل في الصورة الشعرية تالياً للمعنىٰ العقلي والمنطقي، واتخذت الاستعارات علىٰ أنها نقل للألفاظ لا تخرج به عن حدودها العقلية ثم تجزئتها علىٰ وجه لا تتضح فيه وظيفتها في الشعر فلا تزيد عن كونها مجالاً لتحسين المعنىٰ الأصلي وتزيينه أو تقريبه وتبريره، وفي إطار سيطرة المعنىٰ العقلي نظر إلىٰ الجناس والطباق وسواهما من عناصر لغة أبي تمام الشعرية علىٰ أنه من باب الصنعة التي تزين الشعر وبذلك فقدت لغة الشعر أصالتها في منظور الفكر البلاغي والنقدي القديم وظلت جملة كبيرة من أبيات أبي تمام تتداولها كتب النقد والبلاغة وأخبار الشعراء كأمثلة علىٰ أخطائه وإحالاته وإسرافه في الصنعة وبعده في طلب الغريب(٢).

لقد وقف العباسيون طويلاً أمام شعر أبي تمام، وتحدثوا كثيراً عما فيه من صعوبة والتواء ، ولم يتحدثوا عما فيه من بدع وجمال، يقول الآمدي عنه إنه: "ينسَب إلىٰ غموض المعاني ودقتها وكثرة ما يورده مما يحتاج إلىٰ استنباط وشرح واستخراج"(٣).

---

(١) . أخبار أبي تمام ، ص ١٧٤ . ١٧٥.

(٢) . سعيد مصلح السريحي: شعر أبي تمام بين النقد القديم ورؤية النقد الجديد، رسالة ماجستير مقدمة إلى قسم الدراسات العليا بكلية اللغة العربية جامعة أم القرى ١٤٠٢هـ ، المقدمة.

(٣) . الآمدي: الموازنة، (٤/١).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ويروي الرواة أن أعرابياً سمع قصيدته (طلَلَ الجميع لقد عَفَوت حميداً) فقال: إن في هذه القصيدة أشياء أفهمها وأشياء لا أفهمها، فإما أن يكون قائلها أشعر الناس، وإما أن يكون جميع الناس أشعر منه، وليس من شك في أن هذا الأعرابي كان صاحب حس مرهف دقيق، ويقصُّ الآمدي أن ابن الأعرابي اللغوي المعروف سمع شعره فقال: "إن كان هذا شعراً فكلام العرب باطل"، ولعل من الطريف أن أبا العميثل سمعه ينشد إحدىٰ قصائده فقال له: لماذا لا تقول ما يُفهم؟ فأجابه علىٰ البديهة: وأنت لماذا لا تفهم ما يقال؟

ويعلق د. شوقي ضيف علىٰ رد أبي تمام بقوله: "وكأني بأبي تمام يعلن عن اتجاه جديد في الشعر العربي فقد تطور هذا الشعر وتطور معه صاحبه، ولم يعد عملاً شعبياً بل أصبح عملاً عقلياً راقياً، فالشاعر ليس من واجبه أن ينزل إلىٰ الجمهور بل يجب علىٰ الجمهور أن يصعد إليه.

وهذه الفكرة فكرة ارتفاع الشعر عن الجمهور نراها عند أبي تمام لأول مرة في تاريخ الشعر العربي، وهي إحدىٰ الأفكار المهمة التي تثار في النقد الحديث ، فهل يحسن بالشاعر أن يسير وراء الجمهور أو يحسن به أن يصعد بالجمهور إلىٰ آفاقه العليا من الفلسفة والثقافة والعمق والدقة؟

إن الشعر يكون في أول أمره شعبياً ثم يظهر النثر ويرقىٰ الفكر ويصبح ترفاً، فلا يكون لعامة الناس إنما يكون لخاصتهم من المثقفين ثقافة عميقة، وهذا ما حدث في العصر العباسي عند أبي تمام، فقد أصبح الشعر ترفاً، وأصبح الشاعر لا يقصد إليه إلا ليرضي الطبقة المثقفة الممتازة، لا ليعبر عن شعور الجمهور كما كان الشأن في القديم، وإذن فليس من حق ناقد غير مثقف بالثقافة الحديثة أن يطلب إلىٰ أبي تمام النزول من هذا الأفق الذي اختاره لنفسه، ليس ذلك من حق أبي العميثل ولا من حق اللغويين أمثال ابن الأعرابي، وإنما هو من حق المثقفين في عصره بالثقافة الحديثة الذين يسميهم الآمدي أصحاب المعاني والفلسفة، وهل يجوز في هذا العصر الذي نعيش فيه أن نحكِّم في شاعر مثقف بالثقافة الحديثة ناقداً لم يتثقف بهذه الثقافة ولم يأخذ بحظ منها، كما هو الشأن عند أبي العميثل وابن الأعرابي بالقياس إلىٰ أبي تمام ؟ إننا لا نشك في أن مثل هذا الناقد لا يصلح للحكم علىٰ شاعر يختلف عنه في المزاج والثقافة"(١).

إن أبا تمام حينما خرج علىٰ تقاليد العرب في أشعارهم لم يكن خروجه جهلاً بتلك التقاليد التي ضمنها وصيته للبحتري، وكشف عن معرفته بها في اختياراته الشعرية، وسعة اطلاعه وثقافته، فقد "كان له من المحفوظات ما لا يلحقه فيه غيره، حتىٰ قيل أنه كان يحفظ أربعة عشر ألف

(١). د. شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ص ٢٤٠ - ٢٤١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أرجوزة ، غير المقاطيع والقصائد"(١)، وكان "مُسْتَهْتَراً(٢) بالشعر، مشغوفاً به، مشغولاً مدة عمره بتبحره، ودراسته، وله كتب اختيارات مؤلفة فيه، مشهورة معروفة... وإنه ما فاته كبير شيء من شعر جاهلي ولا إسلامي ولا محدث إلا قرأه ، وطالع فيه"(٣).

والذين انتقصوا تجديد أبي تمام في الشعر كانوا يدركون ثقافته الواسعة، إلا أنهم لم يعطوا الفرصة لأسباب التجديد ـ التي يفترض فيها أن تخرج عن دائرة التقليد والمألوف ـ أن تؤسس لها مكانها الطبعي في منظومة الإبداع، ولن يتحقق لها أن تؤصّل قيماً جديدة ما لم تخترق المألوف والماثل من جنس مادة الإبداع لغة، وأفكارًا(٤).

ويرىٰ د. عبد الحكيم راضي أن كل ما قيل في الهجوم علىٰ أبي تمام "كان يصدر عن نظرة واحدة، ويقوم علىٰ مبدأ واحد هو رفض الخروج علىٰ ما تحتمله اللغة في الاستعمال، سواء في التركيب، أو في معاني الكلمات ، وفيما عدا هذه الناحية لم يتعرض أبو تمام لأي من ألوان الهجوم أو النقد، لقد كان الحديث كما اعترف مندور دائراً حول اختلاف الشاعرين في طريق الصياغة فحسب(٥)، ويذكر شكري عياد أن مشكلة اللفظ والمعنىٰ التي ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالخصومة بين أنصار أبي تمام وأنصار البحتري، "كانت تدور في الواقع حول درجة الحرية المسموح بها للشاعر أو للأديب في التعبير عن معانٍ هي في أصولها واحدة، فكان أنصار المعنىٰ هم أنصار الحرية في التعبير، وأنصار اللفظ هم أنصار التقيد في التعبير"(٦).

"فالجدال كان قائماً حول ما أثاره أصحاب البحتري من أن في الإمكان تحقيق الابتداع والاختراع مع المحافظة علىٰ عمود الشعر، وقد اتضح من النقد الذي وجهوه إلىٰ أبي تمام أنهم لم يتمسكوا من عمود الشعر ذلك إلا بما يتصل باللغة وضرورة تناولها في حدود ما تحتمل من وجوه الاستعمال، وأنهم عندما وصفوا أبا تمام بالخروج علىٰ ذلك العمود لم يكونوا يعنون غير هذا الخروج علىٰ ما تحتمله اللغة في المعاني والتراكيب، الخروج الذي يحول دون فهم المراد، وهو ما يخل بهدف الشاعر، أو القائل عموماً من الأساس، من هنا وضعوا هذه القاعدة المقبولة من النقاد

---

(١) . العباسي: معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، (١/٣٨).

(٢) . مولعاً ومُغرما.

(٣) . الآمدي: الموازنة (١/ ٥٨ . ٥٩).

(٤) . د. محمد بن مريسي الحارثي: عمود الشعر العربي ، النشأة والمفهوم، ط/ نادي مكة الثقافي الأدبي ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م، ص ٢٤٠.

(٥) . د. محمد مندور: النقد المنهجي عند العرب، نهضة مصر ٢٠٠٤م، ص ٧٥.

(٦) . د. شكري عياد: كتاب أرسطوطاليس في الشعر، دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٩٦٧م، ص ٢٨٨.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

العرب جميعاً من أنه (إذا اعتمد الشاعر الإبداع فمن سبيله ألا يخرج عن سنن القوم، فإنه لم يُحظر عليه مستغرَب المعاني ومستطرَفَها"(١).

موقف الآمدي من أبي تمام:

ينبغي علىٰ الناقد أن يكون موضوعياً لا متحيزاً لشاعر أو فكرة، ولا متعصباً علىٰ أيٍّ منهما، غير أن الملاحظ علىٰ الآمدي أنه كان متحاملاً علىٰ أبي تمام، متعصباً عليه، ورغم ما أبداه في بداية كتابه من منهج علمي موضوعي إلا أنه لم يلتزم به ؛ لقد راح "يتتبع ما يعدّ من حسنات أبي تمام ومزاياه فيحيله إلىٰ سيئات، ومآخذ حتىٰ يحمل مناصري أبي تمام علىٰ التسليم بأنه قد زلّ وأخطأ، والتماس العذر له بأن الخطأ والزلل أمر يعرض لكل الشعراء القدماء منهم والمحدثين فإذا تم له ذلك قال: إن أخطاء الشعراء إنما تقع في البيت الواحد والبيتين والثلاثة، وربما سلم الشاعر المكثر من ذلك ألبتة، وأبو تمام لا تكاد تخلو له قصيدة واحدة من عدة أبيات يكون فيها مخطئاً أو محيلاً، أو عن الغرض عادلاً، أو مستعيراً استعارة قبيحة، أو مفسداً للمعنىٰ الذي يقصده بطلب الطباق والجناس أو مبهماً له بسوء العبارة والتعقيد حتىٰ لا يفهم ثم تساءل: "كيف يكون ما أخذ علىٰ الشعراء من الوهم وقليل الغلط عذراً لمن لا تحصىٰ معايبه ومواقع الخطأ في شعره"(٢).

غير أنه حرصاً منه علىٰ الظهور بمظهر العدالة والإنصاف آثر أن يورد هذه الردود علىٰ لسان صاحب البحتري مؤكداً في بداية الأمر أنه إنما يذكر ما سمعه من احتجاج كل فرقة من أصحاب هذين الشاعرين علىٰ الفرقة الأخرىٰ إلا أننا لا نلبث خلال الجدل أن نلمس أن صاحب البحتري ليس سوىٰ الآمدي نفسه، فإذا ما أوشك أن ينتهي اختلط حديث الآمدي بحديث صاحب البحتري وتساهل الآمدي في الحذر فأماط شيئاً من اللثام عن وجهه"(٣).

وهذا الذي فعله الآمدي جعله متعصباً في نظر كثير من النقاد القدماء والمحدثين؛ فقد تعقب الشريف المرتضىٰ نقده لبعض أبيات أبي تمام بالرد عليه ووصف نقده لها بأنه "من قبح العصبية"(٤).

---

(١) . د. عبد الحكيم راضي: النقد العربي وشعر المحدثين في العصر العباسي، محاولة لقراءة جديدة، دار الشايب للنشر، ١٩٩٣م، ص ١٧٨.

(٢) . الموازنة، (١/ ٥٢).

(٣) . د. السريحي: شعر أبي تمام بين النقد القديم ورؤية النقد الجديد، ص ٧٩ . ٨٠.

(٤) . الشريف المرتضى : طيف الخيال ، ص ١٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ووصف ياقوت الحموي كتاب الموازنة بأنه "كتاب حسن وإن كان قد عيب عليه في مواضع منه ونسب إلىٰ الميل مع البحتري فيما أورده والتعصب علىٰ أبي تمام فيما ذكره، الناس بعد فيه علىٰ فريقين: فرقة قالت برأيه حسب رأيهم في البحتري وغلبة حبهم لشعره، وطائفة أسرفت في التقبيح لتعصبه، فإنه جد واجتهد في طمس محاسن أبي تمام وتزيين مرذول البحتري، ولعمري إن الأمر كذلك"(١).

وانتماء الآمدي إلىٰ فئة الكتاب جعله يلهج بما كانوا يشيعونه من معايير في نقد الشعر كالوضوح والسلاسة ومناسبة المقام وملاءمة الغرض وحسن الابتداء والتخلص ووضع الكلام في مواضعه وقرب المأتىٰ وانكشاف الغرض والبعد عن غريب اللفظ وبعيد الصورة وغامض المعنىٰ ، ولذلك كان علىٰ رأس الفئة التي تناصر البحتري وتنكر علىٰ أبي تمام مذهبه "جماعة الكتاب وأهل البلاغة" وقد كان الآمدي أحد هؤلاء الكتاب وواحداً من أهل البلاغة ونحوياً بصرياً درس النحو ودرّسه، وانتماءاته هذه أملت عليه معاييرها الخاصة سواء في نظرته إلىٰ اللغة عموماً وإلىٰ لغة الشعر خاصة، وقد اتخذ من الموازنة ميداناً رحباً يطبق فيه هذه المعايير فأفضت به إلىٰ أن أبا تمام كان شديد التكلف صاحب صنعة ويستكره الألفاظ والمعاني وشعره لا يشبه الأوائل ولا علىٰ طريقتهم خلافاً للبحتري الذي كان أعرابي الشعر مطبوعاً وعلىٰ مذهب الأوائل، وما فارق عمود الشعر، يتجنب التعقيد ومستكره الألفاظ، ووحشيّ الكلام(٢).

وباختصار كان ما أخذه عليه النقاد هو ما أخذه عليه أهل اللغة جميعاً، وقد انصب حديثهم لا علىٰ شعر أبي تمام في جملته، وإنما علىٰ مجموعة من الأبيات يعترف الدارسون المحدثون أنفسُهم بتعسّفه وسوء عباراته في كثير منها، فلم يتناولوا شعره تحت شعار أنه مجدد مبدع، ولكن حديثهم دار حول قضية خروجه علىٰ عمود الشعر(٣).

فن أبي تمام مركب، جميل عذب، وقد يعتريه في حالاته بعض الضعف الذي لا يسلم منه إنسان، ولكنه كان شاعراً خرج بالشعر العربي من دائرته الضيقة، وأجراه مجرىٰ القصص، وتتبع فيه المعنىٰ، وراعىٰ فيه اللفظ، ووفق في أن يكسو فنه بهذا الحس الشعري الرائع(٤).

ويرىٰ الدكتور إحسان عباس(٥) أن الركن الذي يأوي إليه الآمدي في نقده وهو (عمود الذوق)

---

(١) . ياقوت الحموي: معجم الأدباء، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٩٣م، (٢ / ٨٥٢).

(٢) . الموازنة (١/٤)، انظر: د. السريحي: شعر أبي تمام بين النقد القديم ورؤية النقد الجديد، ص ٩٠.

(٣) . انظر: د. عبد الحكيم راضي: النقد العربي وشعر المحدثين في العصر العباسي، القاهرة ١٩٩٣م، ص٢٠٠-٢٠١.

(٤) . د. نجيب البهبيتي: أبو تمام الطائي، حياته وحياة شعره، ص ٢٤٢.

(٥) . تاريخ النقد الأدبي عند العرب (١٦٧-١٦٨).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أي الرجوع في كل أمر يختلف فيه المتذوقون والنقاد إلىٰ ما تعارفته العرب وأقرته وأثر عنها، قانون متعسف لأنه يفترض اللجوء إلىٰ قاعدة لا يمكن تحديدها، وهذا القانون يقتل الاستعارة، لأن تعقبها يعني التدخل في التشخيص والقدرة الخيالية لدىٰ الشاعر... فالذي لا شك فيه أن أبا تمام قد هزَّ العقول في عصره، وأثار من حوله ضجة كبيرة، إذ خرج علىٰ مألوف العرب في الصياغة وفي التماس المعاني التي تعبر عما يريد قوله، كما يقول الدكتور مندور(١).

والحقيقة أن شعرية أبي تمام وقوامها لغته، هي نتيجة موهبته وقدرته علىٰ الابتكار وخصوصية العصر، فموهبة الشاعر كانت فائقة لأنها استندت إلىٰ ثقافة واطلاع واسعين، فضلاً عن دقة نظره، ووعيه لخصائص اللغة العربية، وأن الاحتفاء باللفظ كان يرمي أولاً إلىٰ إدراك دلالته المعنوية بدقة متناهية، مستفيداً من مباحث الفقه والفلسفة القائمين علىٰ التحسين والتقبيح(٢).

ومذهب أبي تمام الشعري مرحلة طبيعية وصل إليها الشعر من خلال النزاع بين الثابت والمتغير، بيد أن الشعر أضاف إلىٰ المتغير جديداً هو التزامه الدائم به مذهباً عاماً في شعره، كما يقول مصطفىٰ عليان(٣)؛لأن المعنىٰ في شعر أبي تمام لا يبقىٰ فكرة محضة ثابتة، فالشاعر يتجاوز الخطوط العامة للأشياء ويقلب الحقائق إلىٰ أخيلة ليجعلنا أمام تجربة واحدة لا فصل فيها بين ما ندركه وما نشعر به وما نتلقاه صياغة، أي أنَّ قوالب الشعر عنده لم تعد قوالب جاهزة بل كانت من فيض الحياة، ومن فيض النفس التي تعيش وقع الحياة والفكر الذي يتجاوز حدود الأشياء إلىٰ نقاطها الحاسمة؛ فالشاعر كان يبدع نتيجة حالة من التوحد الطريف بين المحسوس والمعقول، وبين القلب والعقل.

فكما يقول عبد العزيز سيد الأهل: مذهب أبي تمام نظرية جديدة في اللغة قائمة علىٰ تملكها تملكاً مطلقاً بحقيقتها ومجازها(٤).

******

(١) . النقد المنهجي عند العرب، ص (٨٨-١٢٠- ١٢٧).

(٢) . د. عبده بدوي: أبو تمام وقضية التجديد في الشعر، القاهرة ص١٠.

(٣) . د. مصطفى عليان: منهج المرزوقي في الخصومة النقدية حول أبي تمام، دار القلم ، دمشق ١٩٨٦م، ص١٢

(٤) . د. عبد العزيز سيد الأهل: عبقرية أبي تمام، ص٨٠، نقلاً عن: د. أحمد علي دهمان: شعرية أبي تمام ولغته الشعرية، بحث منشور بمجلة الموقف الأدبي الصادرة عن اتحاد الكتاب العرب ، دمشق العدد ٣٧١ مارس ٢٠٠٢م..

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

النقاد المحدثون

وإذا حاولنا أن نلتمس مواقف النقاد المحدثين من شعر أبي تمام،وجدنا أن أكثرها لا يكاد يخرج عن أحكام النقاد القدماء؛ لأنهم خضعوا للمقولات التي قصرت بالقدماء عن استيعاب اللغة الشعرية عنده فظلت بحوثهم محصورة في دائرة ضيقة تهيمن عليها المعايير النقدية التي هيمنت علىٰ دراسات النقاد القدماء فقد رفض(عباس محمود العقاد) أن يعد أبا تمام شاعرًا إنسانيـًا ممتازاً؛ لأن المقياس الإنساني الصحيح للشاعرية الممتازة لديه هو أن يكون للشاعر(عالم)،وليس أبو تمام بصاحب عالم ولكنه صاحب إجادات يجيد في هذا المعنىٰ أو ذاك من دون أن يعرض لك العالم في حالة من حالاته(١).

والذي حدا بالعقاد إلىٰ مثل هذا الحكم هو تصوره أن البديع لا يزيد عن أن يكون حلية للشعر ليست بذات قيمة في حد ذاتها، وقد كان يرىٰ أن النقاد الثقات قد عابوا الإكثار من المحسنات البديعية الصناعية وعدوها بدعة مستحدثة علىٰ اللغة العربية واستحبوا فيها أن تكون في الكلام كالخيلان في الوجنات، أو كالحلية في الثياب، وأن تجيء عفواً بلا كلفة مصنوعة أو تقصد قصداً ولكن لتوضيح المعنىٰ وتجميله وليس للعرض علىٰ الأنظار والمباهاة بالاحتيال والاقتدار(٢).

ووصف الدكتور محمد مندور أبا تمام بالإسراف وصفاقة الذوق والصنعة الباطلة، ومع أنه يؤمن أن الاستعارة أمر أصيل في الشعر إلا أنه كان يخضعها للمقولات العقلية مطالبـًا بما طالب به النقاد الأوائل، ألا يكون هناك تنافر بين الشيء المستعار والشيء المستعار له، ولذا رفض أن يتقبل استعارة أبي تمام (ماء الملام) لأنه لا يمكن في رأيه أن يعبر عن الشيء المر بالماء العذب، ولذلك وسم أبا تمام بالإسراف وصفاقة الذوق والصنعة الباطلة (٣).

أما التجنيس فلم يكن عند الدكتور مندور سوىٰ عبث لفظي يعتمد علىٰ الاشتقاق، ولا يستند إلىٰ غير التداعي الشكلي، أو لعب بالمعاني ومهارة في استخدام مفردات اللغة المتحدة في اللفظ المختلفة في المعنىٰ، والطباق مجرد مقابلات بين المعاني ورد أعجاز الكلام علىٰ ما تقدمها وهو الآخر حلية لفظية ولباقة في طرق الأداء.، ولذلك ذهب إلىٰ أن نزعة أبي تمام في التجديد في الصياغة

---

(١) . عباس محمود العقاد: يسألونك، دار الكتاب العربي ، بيروت ط/٣ ١٩٦٨م، ص٥٧-٦٢.

(٢) . عباس محمود العقاد: مراجعات في الآداب والفنون، دار الكتاب العربي، بيروت ، ط/١ ١٩٦٦م.

(٣) . د. محمد مندور: النقد المنهجي عند العرب، دار نهضة مصر ، القاهرة، ص٩٨.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قد جرته إلىٰ التكلف والإحالة والإسراف والإغراب في المعاني المألوفة، وقد كان يرىٰ أن "فيصل التكلف هو أن يفكر صاحبه مرتين: مرة للفكرة ، ومرة لتحويرها والتلطف بها حتىٰ تسكن للبديع، وفي هذه الحالة يغلب أن تكون مادة الشعر نفسه متكلفة كاذبة، بل وطبع الشاعر فاسداً ؛ إذ نحس بزيف الإحساس وعدم أصالة الخاطر وقسر الصورة فيأتي الشعر أجوف متنافر النغمات يقف عند الأذن وقد نفضه الإحساس، ورده الذوق كالبهرج المرذول، وهذه الصنعة كثيراً ما نجدها عند أبي تمام(١).

أما أنيس المقدسي فقد عد ظاهرة التأنق البديعي من أهم سمات أبي تمام وتتجلىٰ في الاستعارة والطباق والجناس، وهو يرىٰ أنها لا تخرج عن باب الزينة والحلية للمعنىٰ ولذلك قال: "إن اهتمام أبي تمام بها قد قاده إلىٰ الإسراف والخروج عن جادة المعقول، وبعد أن تحدث عن مآخذ النقاد علىٰ شعر أبي تمام قال: "والذي يطالع ديوانه تحريـًا لهذه التهم يتضح له أن أكثر ما ذكروه حق وأن أبا تمام كثيراً ما يأتي بالاستعارة أو الكناية دون أن يراعي التناسب بين الحقيقة والمجاز(٢).

ولا يخرج تصور الدكتور نجيب البهبيتي للاستعارة والتشبيه والمجاز عموماً عن تصور من سبقه من القدماء والمحدثين فهي عنده وسائل للأداء المنمق التي أدىٰ غلو أبي تمام في طلبها إلىٰ وقوعه في كثير من الاضطراب حينما جعل صوره مكونة من أجزاء مختلفة لا تناسق بينها حتىٰ تكاد تذهب مثلاً في شناعتها(٣).

ومع أن الدكتور محمود الربداوي قد أكد في مقدمة كتابه (الفن والصنعة في مذهب أبي تمام) أنه قد بدأ من حيث وقف الآخرون من المؤلفين عن أبي تمام وأن كتابه يختلف عن ذلك السيل المفعم من الكتب التي ألفت حول أبي تمام(٤)إلا أنه لم يستطع أن يخرج ـ في الحقيقة ـ عن مسلمات النقد والبلاغة فظل يدور في فلكها متحدثـًا عن الطبع والصنعة فاصلاً بين الألفاظ والمعاني آخذاً البديع مأخذ الزخرف والزينة(٥)، وينظر إلىٰ جناس أبي تمام فيراه علىٰ نوعين: نوع حسنٌ وهو قليل قرّظه النقاد وأثنوا علىٰ صانعه، ونوع سيء وهو كثير جعل النقاد يثلبونه لما استقبح منه لدرجة أنهم كادوا يكفرون بالقليل الذي حسن منه(٦)، وتحدث عن الطباق عند أبي تمام فذكر

---

(١) . د. محمد مندور: النقد المنهجي عند العرب، ص ٤٠ . ٤١.

(٢) . أمراء الشعر العباسي، ص ٢٩٧.

(٣) . د. نجيب البهبيتي: أبو تمام الطائي، ص ٢٣٠ ، ٢٣١.

(٤) . د. محمود الربداوي: الفن والصنعة في مذهب أبي تمام ، المكتب الإسلامي، ١٩٧١م، د، هـ.

(٥) . المرجع نفسه ص٢٣.

(٦) . د. محمود الربداوي: الفن والصنعة في مذهب أبي تمام، ص ٥٠.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أنه قد أسرف فيه إسرافاً لم يسرفه شاعر قبله ولم يكن موفقاً فيه كله ، فكانت بعض المطابقات مقتسرة اقتساراً فوقعت قلقة في مكانها شائنة وجه الصورة الشعرية(١).

أما الدكتور عمر فروخ فقد ذكر أن أبا تمام هو أول من أوجد طريقة الشاميين، وكان أول من حلّىٰ الشعر العربي بالصناعة اللفظية المقصودة(٢).

لكنه يعود فيقول عن شعر أبي تمام : " نحن نعلم أن شعر أبي تمام ليس من هذا النوع الذي يقرُب فهمه ويعذُبُ النطق به، ولكنه من ذلك النوع الذي تطرب له العقول المثقفة والأفكار النيرة وأهل الاطلاع الواسع ، وكل ذنب أبي تمام عند قوم آخرين أنه بحث عن أوجه للشبه جديدة واستعارات بعيدة عن المألوف أوحىٰ بها إليه اطلاعه الواسع وفكره القوي وروحه الوثاب، فاستبعدها الناس واستغربوها وحملوا عليها من أجلها"(٣).

أما الدكتور جميل سلطان فقد كان يرىٰ أن تكلف أبي تمام للصنعة كان سبباً في فساد معانيه وسخفها(٤)، ولذلك راح الدكتور جميل يكرر ما سبق أن عده القدماء علىٰ أبي تمام من سخيف النظم وكراهة الاستعارة وشدة المبالغة وتكلف الجناس وقبح الابتداء وما إلىٰ ذلك.

"وهكذا ظل البديع ـ بمعناه الواسع ـ وما يشتمل عليه من استعارة وجناس وطباق وما إلىٰ ذلك أموراً خارجة عن المعنىٰ تنزل منه منزلة الحلية والزينة التي لا تستساغ إلا إذا جاءت بمقدار، وظلت التهمة الموجهة من المحدثين إلىٰ أبي تمام هي تلك التهمة التي وجهها القدماء إليه وهي الإسراف في الصنعة والإغراق في طلب البديع إلىٰ درجة تخرجه إلىٰ الإحالة وتؤدي إلىٰ تشويه صوره وتراكيبه"(٥).

ولم يعدم شعر أبي تمام نقادا منصفين من المحدثين تحروا تطبيق المنهج النقدي الحديث في الكشف عن أبعاد الرؤية الشعرية عند أبي تمام فاعتدت بلغته الشعرية بعد أن تحررت من معيارية النقد القديم وتجاوزت حتمية النظريات النقدية المتأخرة، ففي كلمات وجيزة تحدث أدونيس عن أن أبا تمام قد انطلق من أولية اللغة الشعرية، ثم تحدث عن الكلمة في شعر أبي تمام: أنها تشكل بنية عضوية تصل بنيوياً بين ذات الشاعر وأشياء العالم وأنها تحتضن من الشيء فعاليته فترينا الأشياء في اندفاعها وتفجرها وبكارتها وبهذا تقيم علاقة جديدة بين الإنسان وبينها فتزول الثرثرة القديمة

---

(١) . المرجع نفسه ، ص٥٥.

(٢) . أبو تمام شاعر الخليفة المعتصم، ص٤٠.

(٣) . أبو تمام شاعر الخليفة المعتصم بالله ، ص ٦٢.

(٤) . د. جميل سلطان: أبو تمام، ص ١١٣.

(٥) . د. السريحي: شعر أبي تمام بين النقد القديم ورؤية النقد الجديد، ص ١٠٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وتدخل إلىٰ الكلام شرارة لغوية جديدة هي شرارة الشعر الذي يعيد كل شيء إلىٰ بدايته الأصلية(١).

كما حلل الدكتور (أحمد أسعد علي) مجموعة من أبيات أبي تمام وفق منهج حدده بأنه يرتكز علىٰ التفهم اللغوي والموسيقي والتصويري والرمزي للشعر وذلك للكشف عن رؤية أبي تمام الشعرية لجوهر الإنسان الحي، وقد انتهت به دراسته لمجموعة منتقاة من عدة قصائد من شعره إلىٰ القول بأن الإنسان في شعر أبي تمام لا يكف عن الترقي فهو يسأل ويعشق العلم ويباري الدهر ويغترب ليتجدد ويتعاطف مع الغير حتىٰ يلقح أفكار الرجال بالطموح الشامل ولكنه في كل ذلك ثائر من أجل الروح باحثٌ عما يؤنسها، ولذلك تتجلّىٰ ثورة أبي تمام روحية تسعىٰ لتغيير الواقع الذي تستوحش فيه الروح(٢).

وقد حلل الدكتور كمال أبو ديب قصيدة أبي تمام (رقت حواشي الدهر) في مدح المعتصم تحليلاً بنيوياً كاشفاً عن صورة التحول التي تتمحور حولها القصيدة والتي تتنامىٰ من خلال سلسلة من الثنائيات الضدية أهمها: الزمان الماضي والزمان الحاضر، الانقطاع والاستمرار، الأرض والسماء، الربيع والإنسان، وقد كشفت دراسته للعلاقات بين هذه الثنائيات كنه الفاعلية الشعرية وديناميكيتها عند أبي تمام وكيف أنها تستقي من تصور للوجود علىٰ أنه شبكة من علاقات التشابه والتضاد ، وأن تميز الفاعلية الشعرية لديه أنها لا تؤكد التشابه المطلق وتعمل من خلاله علىٰ تنمية بنية شعرية بل تؤكد التضاد أيضاً ثم إنها لا تنمّي خيوط التشابه في عزلة عن خيوط التضاد بل تطرح التشابه والتضاد بنية واحدة وتفعل من خلال شبكة العلاقات التي يؤسسها تصادم التشابه بالتضاد وتفاعله معه، ثم ذكر أبو ديب أن هذه الجدلية العميقة في تصور أبي تمام للوجود هي التي جعلت رؤياه الشعرية بديعاً وحداثة جديدة أثارت عليه نزعة المحافظة التي تتمسك بوحدانية البعد وتميز الأبعاد ومحدودية الأشياء"(٣).

ويرىٰ (الدكتور عبد الكريم اليافي): أن أبا تمام هو أبو الجدل الحديث المستند إلىٰ التغيير وإلىٰ الحركة ولكنّه انتهج الجدل في شعره، فقد كان ذا مذهب شعري مبتكر وإن مسَّ هذا المذهب الشعري الفلسفة كما أن هيجل بعده بأحقاب كان ذا مذهب فلسفي جديد وإن كانت دعائمه تستند إلىٰ بعض الاعتبارات الفنية(٤).

---

(١). علي أحمد سعيد (أدونيس): الثابت والمتحول، ط/١ دار العودة، بيروت ١٩٧٧م، (٢/١١٥-١١٦).

(٢). د. أحمد أسعد علي: الإنسان والتاريخ في شعر أبي تمام ، ط/٢، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٧٢، ص١٠٤.

(٣). د. كمال أبو ديب : جدلية الخفاء والتجلي، ص ٢٢٩ . ٢٥٩.

(٤). د. عبد الكريم اليافي : جدلية أبي تمام، ص٥٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وتأتي أطروحة الدكتور سعيد مصلح السريحي الذي لاحظ أن انصراف النقاد المحدثين إلىٰ المواضيع المحددة التي توجهت إليها دراساتهم لم يكن ليسمح لهم بالتعرض لبحث الظواهر التي عابها النقاد القدماء علىٰ أبي تمام بحثاً نقدياً مستفيضاً فكانت ردودهم لا تتجاوز الملاحظات العامة دون أن تحظىٰ مواطن الإشكال في شعره بتحليل نقدي حديث يكشف أبعاد الرؤية الشعرية التي تجلت فيها فأخرجتها مما هو مألوف ومعتاد .

ومن ثم رأىٰ الدكتور السريحي أن يتناول هذه الظواهر تناولاً حديثاً يكشف ما تشتمل عليه من أصالة في الرؤية التي تحرك أبيات الشعر عند أبي تمام شكلاً ومضموناً وتسمها بسمة التفرد والتميز، فكان الباب الثاني من رسالته منعقداً حول رؤية النقد الجديد لشعر أبي تمام ، متناولاً التحليل البنيوي للأبيات المشكلة من شعر أبي تمام، ذلك التحليل الذي كشف له أن الأشياء لا تظهر قيمتها "إلا إذا اقترنت بأضدادها، ولذا كانت كل سمة يتعرض لها تقابلها سمة أخرىٰ تناقضها صراحة أو ضمناً، وكأنما لا يتأتىٰ إثبات لشيء إلا بنقض ما يقابله أو إسقاطه، وأن تحديد أبعاد الأمور لديه لا يتأتىٰ إلا من خلال علاقتها الضدية بالأشياء الأخرىٰ"(١)، ثم تناول الاستعارة وكيف أن أبا تمام أوجد لها علاقات جديدة تتمشىٰ من المناهج النقدية الحديثة ولهذا لم يفهما القدماء وأخذوها عليه، يقول د. السريحي:"ودور الشاعر الأصيل يصبح عندئذٍ هو مقاومة الاعتياد علىٰ الأشياء بنزعها من الإطار الذي تؤلف فيه وغرسها في إطار آخر غير منتظر ولا متوقع ليدفعنا إلىٰ تلقي الحياة وعناصرها تلقياً جديداً يعيد إلىٰ الإنسان براءته الأولىٰ التي كان يتلمس بها معالم الحياة علىٰ الأرض فتتجلىٰ له في أدق مظاهرها وأبسطها"(٢) ثم تناول الجناس والطباق في شعر أبي تمام وتوصل إلىٰ أن أبا تمام كان يقيم الوجود في شعره أزواجاً متقابلة تربط بينها علاقة جدلية يتم من خلالها الكشف عن ملامح الانسجام من خلال التنافر ربما عمدت هذه الرؤية الشعرية لديه إلىٰ التسلط علىٰ ما يبدو للوهلة الأولىٰ منسجما ففضحت مكان التنافر فيه وأقامت منه أجزاء متقابلة متضادة"(٣).

وأخيراً يمكن القول بأن شاعراً حاز علىٰ مثل هذا الاهتمام جدير بأن يدرس ويسبر أغوار لغته للكشف عن أهميته من خلال نظرة ناقديه إليه؛ لأن هذه النظرة تساعد علىٰ فهم كثير من جوانب إبداع أي شاعر؛ قال الشاعر:

ومَن ذا الذي تُرضىٰ سجاياه كلُّها كفىٰ بالمرءِ نبلاً أن تُعدَّ معايبه

---

(١) . د. السريحي: شعر أبي تمام بين النقد القديم ورؤية النقد الجديد، ص ٢٤٣.

(٢) . شعر أبي تمام بين النقد القديم ورؤية النقد الجديد، ص ٢٢٥.

(٣) . شعر أبي تمام بين النقد القديم ورؤية النقد الجديد ، ص٢٤٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

وأبو تمام شاعر حقق حضوره النقدي من خلال هذه الثورة النقدية – إنْ صح التعبير– التي أثيرت حوله، والتي كانت عصارة لفتق كثير من الآراء اللغوية والنحوية الهامة التي دلت بوضوح علىٰ عمق شاعريته وأصالتها الفنية.

والذي أجده جديراً بالقول:إن هذه الحركة النقدية علىٰ ضخامتها لم تستطع أن تفهم التطور الذي تحقق في الشعر العربي وأثر الحضارة في الآداب، لذلك جاءت معظم الأحكام النقدية مقيدة بمعايير توخي أصحابها منها أن يحافظوا علىٰ اللغة ومعانيها، ولكن كان عليهم أن يدركوا أن اللغة كائن حي يستحيل وضعه في قالب جامد لا يجوز لأحد أنْ يحيَد عنه أن مثل هذا الحكم العام يتنافر هو والفهم الصحيح للفن، وحركة تطوره المستمرة التي لا تنتهي عند حد، كما أنه لا يؤثر في منهج الناقد الذي قد يمهل في حدود هذه النظرة المحافظة الكثير من الجديد الذي قد يحققه الفنان(١).

وكفىٰ بأبي تمام فخرًا أن يكون شاعراً يستحوذ علىٰ اهتمام اللغويين فدفعهم إلىٰ التأليف بينما نجد الأمر مختلفاً عند بقية الشعراء سواء الذين سبقوه أو الذين عاصروه أو جاؤوا بعده،ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا: إن الحركة النقدية التي دارت حول أبي تمام تمثل المكانة الأولىٰ في تاريخ حركة النقد العربي علىٰ مَرّ العصور.

****

(١). قضايا النقد الأدبي والبلاغة:٣٨٢-٣٨٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الخاتمة والنتائج

تبين لنا من خلال هذا البحث النتائج التالية:

١ ـ أبو تمام شاعر كبير يعد رائد حركة التجديد في العصر العباسي الأول، بل في العصر الحديث أيضاً.

٢ ـ حاول كثير من الباحثين الطعن في نسبه، إيماناً منهم بأن هذه العبقرية الفذة لا يمكن أن تكون أصولها عربية.

٣ ـ حاول بعض الباحثين المعاصرين أن يجعله نصرانياً ، وهنا اصطدموا بدفاعه المستميت عن الإسلام في شعره، فادعوا أن هذا الدفاع كان لمجرد النفاق والممالأة كي يحظىٰ بمنصب في الدولة العباسية الإسلامية.

٤ ـ كان أبو تمام محباً للعلويين لأنهم آل بيت النبي ﷺ وحبه لهم كحب كل أهل السنة لآل النبي ﷺ، ولكن أحد الباحثين أراد أن ينسبه إلىٰ الشيعة فضمه إلىٰ أعيان الشيعة اعتزازاً أن يكون منهم مثل هذا الرجل.

٥ ـ أبو تمام صاحب مذهب جديد في الشعر، كان وراءه ثقافة غير محدودة ، وخبرات كثيرة، وبحث وصبر ودأب ، ورغبة في تحقيق التفرد والتميّز.

٦ ـ أبرز ما يميز أبا تمام هو لغته الشعرية التي اتسمت بكونها جاءت علىٰ وفق ما تتطلبه لغة الحضارة وإن خرجت عن الإطار المألوف للغة مما هيأ لها حركة نقدية واسعة تضم بين دفتيها نقاداً وبلاغيين وأدباء ونحويين مشهوداً لهم بالكفاءة والثقافة العلمية.

٧ ـ الحركة النقدية لم تكن بمجملها موضوعية إذ التجني علىٰ شاعرنا في أحيان كثيرة واضح يراه أبسط من له أدنىٰ بصيرة علمية، وقد سخرنا الله – سبحانه وتعالىٰ– للدفاع عن هذا الشاعر إزاء تلك الآراء علىٰ نحو ما فعل المعري الذي كان يجد العلل والأسباب التي يدفع بها عن الشاعر، ولو خضعت تلك المآخذ التي أخذها عليه النقاد لمقاييس العلم الحديث لوجدنا الحق كل الحق مع أبي تمام .

٨ ـ تراوحت مواقف النقاد من شعر أبي تمام بين رفض لهذا الشعر لأنه خارج علىٰ طريقة العرب مخالف لها في الصياغة وبين تقبل له لأنه يصور أصدق تصوير حياة التأنق والزخرفة التي

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

شاعت في العصر العباسي ، وكلا الحكمين مجحف فالأول يسلبه حريته في الإبداع والآخر ينتزع منه حقيقته المنبثقة من لغته الشعرية، وبين هذين الحكمين تتوزع المواقف المختلفة التي صدرت عنها الأحكام المتعددة علىٰ شعر أبي تمام بين استحسان واستهجان وقدح ومدح عند القدماء وعند جلّ المحدثين.

ومن هنا كان هناك ما يشبه التسليم بأن ثمة جملة من أبيات أبي تمام تمثل إحالاته في المعاني وبعده في الاستعارة ومعاظلته في التركيب، وإغراقه في الصنعة والتكلف، وقد ظلت هذه الأبيات تساق في مضمار التمثيل علىٰ أخطائه وهفواته للانتقاص منه تارة وللكشف عما يقع فيه الشعراء من سهو وزلل تارة أخرىٰ(١).

وفي الختام فإني أدعو إلىٰ ضرورة الاستفادة مما حققه التقدم العلمي من إنجازات في مجال الدراسات الإنسانية بصورة عامة والأدبية بصورة خاصة ، وذلك في دراستنا لتراثنا الشعري ، فمن شأن هذه المناهج النقدية الحديثة أن تنصف شعراءنا العظام الذين طالما عاملناهم معاملة غير منصفة لا ترىٰ في أشعارهم إلا خطأ يجب إصلاحه أو مبالغة ينبغي أن يطامن منها ، وهم أمراء الكلام.

*****

المصادر والمراجع

١ ـ إبراهيم أنيس: موسيقىٰ الشعر، ط/ ٢ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٢م.

٢ ـ إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي والحضاري، ط/ ١، الشركة العالمية للكتاب ، بيروت ١٩٨٩م.

٣ ـ إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري، أبو إسحاق الحُصري: زهر الآداب وثمر الألباب، دار الجيل، بيروت،د. ت.

٤ ـ إبراهيم سلامة (دكتور): تيارات أدبية بين الشرق والغرب، ط/ ١ مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٥٢م.

(١) . شعر أبي تمام بين النقد القديم ورؤية النقد الجديد، ص ٢٩٨.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٥ ـ إبراهيم عبد العزيز السمري: اتجاهات النقد الأدبي العربي في القرن العشرين، ط/ ١ دار الآفاق العربية ، القاهرة ٢٠١١م.

٦ ـ إبراهيم مصطفىٰ وآخرون: المعجم الوسيط، دار الدعوة، د.ت.

٧ ـ ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، تحقيق د. نزار رضا ، دار مكتبة الحياة بيروت. د. ت.

٨ ـ ابن أبي الإصبع: تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق: د.حفني شرف، مطابع شركة الإعلانات الشرقية بالقاهرة ، ١٩٦٣م.

٩ ـ ابن الأثير : الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط/ ١، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

١٠ ـ ابن الأثير: الاستدراك في الرد علىٰ رسالة ابن الدهان ، تحقيق: حفني محمد شرف، الأنجلو المصرية، ١٩٥٨م.

١١ ـ ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك،لمحقق: محمد عبد القادر عطا، مصطفىٰ عبد القادر عطا، ط/ ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢م.

١٢ ـ ابن الطقطقي محمد بن علي بن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٦٦م.

١٣ ـ ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق – بيروت ١٩٨٦م .

١٤ ـ ابن حجة الحموي: خزانة الأدب وغاية الأرب، تحقيق: عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال– بيروت، دار البحار–بيروت، ٢٠٠٤م.

١٥ ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر ، بيروت ١٩٩٤م.

١٦ ـ ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط/ ٥ دار الجيل، بيروت، ١٩٨١م.

١٧ ـ ابن سنان الخفاجي: الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية – بيروت، ١٤١٩ هـ.

١٨ ـ ابن سنان الخفاجي: سر الفصاحة ، ط/ ١ دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٢م.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

١٩ ـ ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ط/ ١ دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٤هـ.

٢٠ ـ ابن عساكر: تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥م.

٢١ ـ ابن كثير : البداية والنهاية، تحقيق : عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط/ ١ ، دار هجر، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٢٢ ـ ابن منظور: لسان العرب ، دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ.

٢٣ ـ أبو إسحاق الحصري: زهر الآداب وثمر الألباب، دار الجيل ، بيروت، د. ت.

٢٤ ـ أبو البركات الأنباري: نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق: إبراهيم السامرائي، ط/ ٣ المنار ، الزرقاء ، الأردن ١٩٨٥م.

٢٥ ـ أبو العتاهية: ديوان أبي العتاهية ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٨٦م.

٢٦ ـ أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٦١م، ج١٦ .

٢٧ ـ أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي: الموازنة بين أبي تمام والبحتري، تحقيق: السيد أحمد صقر،ط/ ٤ دار المعارف القاهرة.

٢٨ ـ أبو القاسم الشابي: الخيال الشعري عند العرب، مطبعة العرب، تونس، د.ت.

٢٩ ـ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد - مكتبة الخانجي- القاهرة، المكتبة العربية- بغداد، مطبعة السعادة- القاهرة (١٣٤٩هـ = ١٩٣١م).

٣٠ ـ أبو بكر الصولي: أخبار أبي تمام ، تحقيق: خليل محمود عساكر وزميلَيْه ، ط/ ٣ دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٨٠م .

٣١ ـ أبو بكر محمد بن يحيىٰ الصولي: أخبار أبي تمام ، تحقيق: خليل محمود عساكر وآخرين ، ط/ ٣، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠م.

٣٢ ـ أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤١١/ ١٩٩١م.

٣٣ ـ أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ط/ ٣ عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٣ هـ.

٣٤ ـ أبو هلال العسكري: الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية - بيروت ١٤١٩ هـ.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٣٥ ـ أبو هلال العسكري: ديوان المعاني، دار الجيل، بيروت، د. ت.

٣٦ ـ إحسان عباس (دكتور): فن الشعر، ط/ ٣ دار الثقافة ، بيروت،د.ت.،ص ,٢٣٨

٣٧ ـ أحمد الشامي (دكتور): الدولة الإسلامية في العصر العباسي الأول، مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة (١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦م.

٣٨ ـ أحمد الشايب: الأسلوب، ط/ ٧ مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٧٦م .

٣٩ ـ أحمد أمين (دكتور): ضحىٰ الإسلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة ، مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٧م.

٤٠ ـ أحمد بن علي المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط/ ١ دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٨هـ.

٤١ ـ أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، د. ت.

٤٢ ـ أحمد عبد الستار الجواري: الشعر في بغداد حتىٰ نهاية القرن الثالث الهجري، ط/ ٢ المجمع العلمي العراقي ، بغداد ١٩٩١م.

٤٣ ـ أحمد عبد القادر محمود عقل (دكتور): صراع الحضارات وأثره في الشعر العربي في العصر العباسي الأول (القرن الثاني الهجري)، رسالة ماجستير بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح في نابلس ، فلسطين ,٢٠٠٣

٤٤ ـ أرشيبالو مكليش: الشعر والتجربة، ترجمة: سلمىٰ خضراء الجيوسي، دار اليقظة العربية، بيروت ١٩٦٣م.

٤٥ ـ إروين إدمان: الفنون والإنسان، ترجمة: مصطفىٰ حبيب، مكتبة مصر، د. ت.

٤٦ ـ إسماعيل بن كثير الدمشقي: البداية والنهاية ، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة- القاهرة (١٤٢٠ هـ = ١٩٩٩م).

٤٧ ـ الثعالبي: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، دار المعارف ، القاهرة ، د.ت.

٤٨ ـ الجاحظ: البيان والتبيين ، دار الفكر للجميع ١٩٨٦م.

٤٩ ـ الجاحظ: رسائل الجاحظ ، تحقيق : عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٩٦٤م.

٥٠ ـ الحسن بن بشر الآمدي: الموازنة بين أبي تمام والبحتري، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، الطبعة الرابعة.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٥١ ـ الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، تحقيق: د. بشار عواد معروف، ط/ ١ دار الغرب الإسلامي، بيروت ٢٠٠٢م.

٥٢ ـ الخطيب التبريزي : شرح ديوان أبي تمام ، تحقيق : راجي الأسمر ، دار الكتاب العربي، بيروت ط/ ٢ ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٥٣ ـ الخليل بن أحمد الفراهيدي:كتاب العين، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

٥٤ ـ الزمخشري: أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٩٩٨م.

٥٥ ـ السيد عبد العزيز سالم (دكتور): دراسات في تاريخ العرب ـ العصر العباسي الأول، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ـ مصر ١٩٩٣م.

٥٦ ـ الطاهر أحمد مكي (دكتور): الشعر العربي المعاصر، ط/ ١ دار المعارف بمصر ١٩٨٠م.

٥٧ ـ العربي حسن درويش (دكتور): الشعراء المحدثون في العصر العباسي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٩م.

٥٨ ـ الفرزدق: ديوان الفرزدق: تحقيق: علي فاعور، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٧م.

٥٩ ـ الفيروزآبادىٰ: القاموس المحيط، تحقيق: محمد نعيم العرقسُوسي، ط/ ٨ مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان،، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥م.

٦٠ ـ القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، تحقيق : أحمد البر دوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ١٩٦٤م.

٦١ ـ المطهر بن طاهر المقدسي البلخي: البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، د. ت.

٦٢ ـ أنور الرفاعي: الإسلام في حضارته ونظمه ، دار الفكر ١٩٧٣م.

٦٣ ـ أنيس المقدسي: أمراء الشعر العربي في العصر العباسي، ط/ ١٧ دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٩م.

٦٤ ـ أوستن وارين ورينيه ويليك: نظرية الأدب، ترجمة: محيي الدين صبحي، المجلس الأعلىٰ لرعاية الفنون والآداب، دمشق ١٩٧٢م.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٦٥ ـ جابر عصفور (دكتور): الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، دار الثقافة، القاهرة ١٩٧٤م.

٦٦ ـ جان ماري جويو: مسائل فلسفة الفن المعاصرة، ترجمة: د. سامي الدروبي، ط/ ٢ دار اليقظة العربية، بيروت ١٩٦٥م.

٦٧ ـ جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ، دار الهلال ، القاهرة ، د. ت.

٦٨ ـ جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي ، دار الهلال ، القاهرة ، د. ت.

٦٩ ـ جلال الدين السيوطي: بغية الوعاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية ، لبنان، د. ت.

٧٠ ـ جلال الدين السيوطي: تاريخ الخلفاء، تحقيق: حمدي الدمرداش، ط/ ١ ، مكتبة نزار مصطفىٰ الباز، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

٧١ ـ جمال الدين أبو الحسن القفطي: تاريخ الحكماء ، ط. ليبزج ١٩٠٣م.

٧٢ ـ جميل نخلة المدور: حضارة الإسلام في دار السلام ، القاهرة ١٩٣٣م.

٧٣ ـ حسن إبراهيم حسن (دكتور): تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، ط/ ١٤ مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٩٦م.

٧٤ ـ حسين عطوان (دكتور): الزندقة والشعوبية في العصر العباسي الأول، دار الجيل ، بيروت.

٧٥ ـ حسين عطوان (دكتور): الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول، ط/ ٤ دار الجيل، بيروت ١٩٩٧م.

٧٦ ـ حسين عطوان (دكتور): الشعراء من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ، ط/ ١ ، مكتبة المحتسب، عمان ، دار الجيل ، بيروت ١٩٧٤م.

٧٧ ـ حفني محمد شرف (دكتور): الصور البيانية بين النظرية والتطبيق، ط/ ١ دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٦٥م.

٧٨ ـ خلف محمد جراد (دكتور): التفاعل الثقافي والحضاري في العصر العباسي مقال بمجلة التراث العربي-مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب-دمشق العدد ٨٠

٧٩ ـ خليفة الوقيان (دكتور): شعر البحتري دراسة فنية، ط/ ١ المؤسسة العربية للدراسات، بيروت ١٩٨٥م.

٨٠ ـ خليل السامرائي ، وآخرون: تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي ، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، جامعة الموصل.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٨١ ـ خير الدين الزركلي: الأعلام ، ط/ ١٥ دار العلم للملايين ، بيروت ٢٠٠٢م.

٨٢ ـ داود سلوم (دكتور): النقد الأدبي، القسم الأول، مطبعة الزهراء، بغداد ١٩٦٧م .

٨٣ ـ ديك الجن: ديوانه ، تحقيق: د. أحمد مطلوب، وعبد الله الجبوري، دار الثقافة ، بيروت – لبنان.

٨٤ ـ روبين جورج كولنجوود، مبادئ الفن ترجمة د. أحمد حمدي محمود، الدار المصرية للتأليف والترجمة، د.ت.

٨٥ ـ سعيد مصلح السريحي الحربي (دكتور): شعر أبي تمام بين النقد القديم ورؤية النقد الجديد، رسالة ماجستير بكلية اللغة العربية جامعة أم القرىٰ ١٤٠٢هـ.

٨٦ ـ شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٩٥م.

٨٧ ـ شوقي ضيف (دكتور): الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ط/ ١١ دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٧م.

٨٨ ـ شوقي ضيف (دكتور): تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، ط/ ١٦ دار المعارف، القاهرة ٢٠٠٤م.

٨٩ ـ ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة ـ القاهرة.

٩٠ ـ طاهر حجار خرفان (دكتور): الاتجاه الشعبي في شعر العصر العباسي الأول، رسالة ماجستير بكلية الآداب جامعة دمشق، ١٩٨١م.

٩١ ـ طه حسين (دكتور): الفتنة الكبرىٰ ، عثمان ، دار المعارف بمصر ١٩٥١م.

٩٢ ـ طه حسين (دكتور): حديث الأربعاء، ط/ ١٤ دار المعارف ، مصر .

٩٣ ـ طه حسين (دكتور): مع المتنبي، ط/ ١٣ ، دار المعارف .

٩٤ ـ طه حسين (دكتور): من تاريخ الأدب العربي "العصر العباسي الأول" ـ القرن الثاني ، ط/ ، دار العلم للملايين ١٩٧٦م.

٩٥ ـ طه حسين (دكتور): من حديث الشعر والنثر، ط١، دار المعارف، القاهرة ١٩٣٦م، ط ١٠، دار المعارف بمصر١٩٦٩م.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٩٦ ـ طيب تيزيني: مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط، ط/ ١ دار دمشق ، دمشق ١٩٧١م.

٩٧ ـ عبد الرحمن بدوي (دكتور): في الشعر الأوروبي المعاصر، ط/ ٢ المؤسسة العربية للدراسات، بيروت ١٩٨٠م.

٩٨ ـ عبد الرحمن بدوي (دكتور): من تاريخ الإلحاد في الإسلام ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٤٥م.

٩٩ ـ عبد الرحمن بن خلدون : مقدمة كتاب ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق : خليل شحادة، ط/ ٢، دار الفكر ، بيروت ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.

١٠٠ ـ عبد الرحمن بن محمد بن خلدون: المقدمة ، طبعة بيروت ١٩٦١م.

١٠١ ـ عبد الرحيم بن عبد الرحمن العباسي: معاهد التنصيص علىٰ شواهد التلخيص، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب – بيروت، د. ت.

١٠٢ ـ عبد السلام بن رغبان : ديوان ديك الجن الحمصي، تحقيق: مظهر الحجي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢٠٠٤م.

١٠٣ ـ عبد السلام محمد هارون: همزيات أبي تمام ط/ ١ دار الجيل ، بيروت ١٩٩١م.

١٠٤ ـ عبد العزيز الثعالبي: سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية ، تحقيق: حماد الساحلي، ط/ ١ دار الغرب الإسلامي.

١٠٥ ـ عبد العزيز الدوري (دكتور): الجذور التاريخية للشعوبية، دار الطليعة، بيروت، ط/ ٣ ١٩٨١م.

١٠٦ ـ عبد العزيز الدوري (دكتور): العصر العباسي الأول دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي، ط/ ٣ ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٩٧م.

١٠٧ ـ عبد العزيز سيد الأهل (دكتور): عبقرية أبي تمام ، ط ٢، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٢م.

١٠٨ ـ عبد العزيز سيد الأهل (دكتور): عبقرية أبي تمام، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٢م.

١٠٩ ـ عبد الفتاح الديدي (دكتور): الخيال الحركي، ط/ ١ دار المعرفة، القاهرة ١٩٦٥م.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

١١٠ ـ عبد القادر الرباعي (دكتور): الصورة في النقد الأوروبي محاولة لتطبيقها علىٰ شعرنا القديم، مجلة المعرفة ، دمشق، العدد ٢٠٤ لسنة ١٩٧٩م .

١١١ ـ عبد الكريم اليافي (دكتور): جدلية أبي تمام، دار الجاحظ للنشر، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد ١٩٨٠م.

١١٢ ـ عبد الكريم محمد حسين (دكتور): وصية أبي تمام للبحتري الإسناد والتوثيق، بحث منشور بمجلة جامعة دمشق، مجلد ١٩ـ العدد (٣ ، ٤) ٢٠٠٣م.

١١٣ ـ عبد الله بن أسعد اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، تحقيق: خليل المنصور، ط/ ١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧م.

١١٤ ـ عبد الله بن المعتز: طبقات الشعراء، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، ط/ ٣ دار المعارف، القاهرة.

١١٥ ـ عبد الله بن حمد المحارب (دكتور): أبو تمام بين ناقديه قديماً وحديثاً، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط/ ١ ، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

١١٦ ـ عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري: عيون الأخبار ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٨هـ.

١١٧ ـ عبده بدوي (دكتور): أبو تمام وقضية التجديد في الشعر، مكتبة الشباب بالقاهرة ١٩٧٥م.

١١٨ ـ عز الدين إسماعيل (دكتور): في الشعر العباسي، الرؤية والفن، ط/ ١ المكتبة الأكاديمية، القاهرة ١٩٩٤م.

١١٩ ـ علي أدهم : علىٰ هامش الأدب والنقد ، دار المعارف ، ط/ ١ ، القاهرة ، ١٩٧٩م.

١٢٠ ـ علي بن عبد العزيز الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، وعلي البجاوي، مطبعة عيسىٰ البابي الحلبي ، د.ت.

١٢١ ـ عمر فروخ (دكتور): أبو تمام شاعر الخليفة محمد المعتصم بالله ـ دراسة تحليلية، بيروت ١٩٦٤م.

١٢٢ ـ فاروق عمر فوزي (دكتور): الخليفة المجاهد هارون الرشيد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد (١٤٠٩ هـ = ١٩٨٩م).

١٢٣ ـ كاجان: الإبداع الفني، ترجمة : عدنان مدانات، ط/ ١ دار ابن خلدون، بيروت ١٩٨٠م.

١٢٤ ـ لويس شيخو اليسوعي: شعراء النصرانية بعد الإسلام ـ القسم الثالث ، شعراء الدولة العباسية ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ١٩٢٦م.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

١٢٥ ـ مارك شورر وآخرون: أسس النقد الأدبي الحديث، ترجمة: هيفاء هاشم، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٦٧م.

١٢٦ ـ محمد ابن شريفة (دكتور): أبو تمام وأبو الطيب في أدب المغاربة، دار الغرب الإسلامي، بيروت١٩٨٦م.

١٢٧ ـ محمد أبو زهرة: ابن حنبل – حياته وعصره ـ آراؤه وفقهه ، دار الفكر العربي .

١٢٨ ـ محمد الخضر حسين: الخيال في الشعر العربي، جمع وتحقيق: علي رضا التونسي، المطبعة التعاونية ١٩٧٢م.

١٢٩ ـ محمد النويهي (دكتور): ثقافة الناقد الأدبي ، ط/ ٢ مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٦٩م.

١٣٠ ـ محمد بن جرير الطبري: تاريخ الرسل والملوك، دار التراث، بيروت ١٣٨٧هـ.

١٣١ ـ محمد بن علي بن محمد المعروف بابن العمراني: الإنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق: قاسم السامرائي، ط/ ١ دار الآفاق العربية ، القاهرة، ٢٠٠١م.

١٣٢ ـ محمد بن يزيد المبرد: الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط/ ٣ دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٩٧م.

١٣٣ ـ محمد صبري: أبو عبادة البحتري، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٤٦م.

١٣٤ ـ محمد ضيف الله بطاينة (دكتور): الحياة الاقتصادية في العصور الإسلامية الأولىٰ، دار الكندي، الأردن ، د. ت.

١٣٥ ـ محمد عبد الحفيظ المناصير (دكتور): الجيش في العصر العباسي الأول،ط/ ١ ، دار مجدلاوي للنشر، عمان ،٢٠٠٠م.

١٣٦ ـ محمد عبد العزيز الكفراوي (دكتور): الشعر العربي بين الجمود والتطوّر، دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٧٣م.

١٣٧ ـ محمد غنيمي هلال (دكتور): دراسات ونماذج في مذاهب الشعر ونقده، دار نهضة مصر، القاهرة، د. ت.

١٣٨ ـ محمد كامل حسين (دكتور): أدب مصر الإسلامية، عصر الولاة، دار الفكر العربي، د.ت.

١٣٩ ـ محمد مصطفىٰ هدارة (دكتور): اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، دار المعارف ١٩٦٣م.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

١٤٠ ـ محمد مصطفىٰ هدارة (دكتور): مشكلة السرقات في النقد العربي، دراسة تحليلية مقارنة، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٨م.

١٤١ ـ محمد مصطفىٰ هدارة (دكتور): مقالات في النقد الأدبي، دار القلم ١٩٦٤م.

١٤٢ ـ محمد نبيه حجاب (دكتور): بلاغة الكتاب في العصر العباسي ، دراسة تحليلية نقدية لتطور الأساليب، مكتبة الطالب الجامعي رقم ٣١، ط/ ٢ ١٩٨٦م.

١٤٣ ـ محمود الربداوي (دكتور): الحركة النقدية حول مذهب أبي تمام (تاريخها، وأثرها في النقد العربي) دار الفكر ١٩٦٧م.

١٤٤ ـ مصطفىٰ الشكعة (دكتور): الشعر والشعراء في العصر العباسي ، ط/ ٦ دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٦م.

١٤٥ ـ ملحم إبراهيم الأسود (دكتور): بدر التمام في شرح ديوان أبي تمام، مطابع قوزما ، بيروت ١٩٢٨م.

١٤٦ ـ منير سلطان (دكتور): بديع التراكيب في شعر أبي تمام، ط/ ٣ منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٩٧م.

١٤٧ ـ نجيب محمد البهبيتي (دكتور): أبو تمام الطائي، حياته وحياة شعره، دار الثقافة والنشر والتوزيع، ١٩٨٢م.

١٤٨ ـ نجيب محمد البهبيتي (دكتور): تاريخ الشعر العربي حتىٰ نهاية القرن الثالث الهجري، دار الكتب المصرية ١٩٥٠م.

١٤٩ ـ نصرت عبد الرحمن (دكتور): الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث، مكتبة الأقصىٰ، عمان ١٩٧٦م.

١٥٠ ـ نصرت عبد الرحمن (دكتور): في النقد الحديث، ط/ ١ دار الأقصىٰ، عمان ١٩٧٩م.

١٥١ ـ هـ . ب. تشارلتن: فنون الأدب، ترجمة: زكي نجيب محمود، لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ١٩٤٥م.

١٥٢ ـ هاشم صالح مناع (دكتور): الحكمة وتطورها في شعر أبي تمام، بحث بمجلة التراث العربي، الصادرة عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق ، العدد ١٠١ .

١٥٣ ـ ويمزات وبروكس: النقد الأدبي، ترجمة: د. حسام الخطيب، ومحيي الدين صبحي، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٧٥م.

١٥٤ ـ يوسف ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب، مصر، د. ت.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

١٥٥ ـ يوسف البديعي الدمشقي: الصبح المنبي عن حيثية المتنبي، (مطبوع بهامش شرح العكبري)، المطبعة العامرة الشرفية الطبعة: الأولىٰ، ١٣٠٨ هـ.

١٥٦ ـ يوسف البديعي: هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام ،تعليق وشرح : محمود مصطفىٰ مطبعة العلوم بالسيدة زينب، القاهرة ١٩٣٤م.

******

المؤلف في سطور

الاسم : إبراهيم عبد العزيز إبراهيم سمري.

اسم الشهرة: إبراهيم عبد العزيز السمري.

من مواليد قرية: شبرا بيل ـ مركز السنطة ـ محافظة الغربية ـ ج.م.ع.

الوظيفة : كبير معلمين بالتربية والتعليم .

الهاتف: ٠١٠٢٣٤٣٩٦٨٠

البريد الالكتروني: semary225@gmail.com

من أهم أعماله:

أولاً: في الأدب والنقد:

١ ـ أنا العربي . ديوان شعر فصيح.

٢ ـ الزهرة الحائرة. ديوان شعر فصيح.

٣ ـ القلوب الحزينة. ديوان شعر باللهجة العامية.

٤ ـ اتجاهات النقد الأدبي العربي في القرن العشرين.

٥ ـ أبو تمام ، حياته ، وعصره.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٦ ـ الساقية. (رواية).

٧ ـ سارة. (رواية).

٨ ـ ابتسامات القدر. (رواية).

٩ ـ الجني العاشق (مجموعة قصصية).

ثانياً: في الفكر الإسلامي:

١ ـ الدعوة الإسلامية في المرحلة المكية (دروس تربوية للدعاة المعاصرين).

٢ ـ الجهاد في الإسلام (مفهومه ، وأنواعه، وضوابطه).

٣ ـ الإسلام يشرق من الغرب.

٤ ـ تنمية المجتمع من منظور إسلامي.

٥ ـ القدس وآفاق التحدي.

٦ ـ منظومة القيم الإسلامية وأثرها في تأكيد التعايش في المجتمع المعاصر.

٧ ـ العقيدة الإسلامية وأثرها في إتقان العمل.

٨ ـ الخليفة المصلوب عبد الله بن الزبير.

٩ ـ الإسلام والعنصرية.

١٠ ـ النظام السياسي الإسلامي، أسسه وآلياته، وموقفه من الديمقراطية.

١١ ـ الأزهر ماضيه وحاضره ومستقبله.

١٢ ـ حب الوطن والانتماء إليه من منظور إسلامي.

١٣ ـ معالم الفكر الاقتصادي عند الدكتور محمد شوقي الفنجري.

١٤ ـ الغلو والتطرف الفكري: (أسبابه ، مظاهره ، أضراره، سبل علاجه).

١٥ ـ التحديات المعاصرة التي تواجه الدعوة الإسلامية وكيفية مواجهتها.

١٦ ـ حقوق ذوي الإعاقة في الإسلام.

****

شبكة الألوكة - قسم الكتب